عقيلات!...

نادية الكوكباني

عقيلات!...

رواية

رقم الإيداع ٤٢٠/٢٠٠٩

تصميم الغلاف/ أسامه عبدالرقيب الشيباني

إهـــــداء

إلى كل من طلبن مني "كتابتهن"

بمنتهى الحرية مزحة يُلهِيهُن رذاذها،

أو حقيقة يعشن لظاها!...

قبل البدء:

جميعنا متشابهات، وان اختلفت جزئيات خاصة بكل واحدة منا... لذلك قررت أن أكتبنا، وأنا أسير بهذا الاتجاه تبدت لي أمور كثيرة جعلتني أعيد صياغة قراري باتجاهات أكثر عمقاً وأكثر شمولية، كانت محيرة لي ومربكة معا...

في النهاية لا ابحث عن مسميات لما أفعله. مسميات لم تعد مجدية إذا لم يواكبها تغيير حقيقي لكل ما نفعله، وابحث بكلمتي - على الأقل - عن كل ما يمكنه أن يحدث تغيرا حقيقيا في مجتمع تُمارس فيه حق الوصاية على الآخر، ضاربة بكل قيم الحرية والعدالة والحق عرض الحائط، أبحث عن كل ما يمكنه أن يغير صوراً شتى مجحفة بحق نساءٍ ورجالٍ على السواء حرموا حرية الاختيار! أمام الذهنية "الشبه جمعية" في مجتمعنا التي ترى نفسها آلهة وما عداها عبيدا عاقين!...

الراوية

تحكي الأسطورة اليونانية:

أن البشر كانوا في الأصل "وحدات تامة" مكونة من الذكورة والأنوثة معاً، لكن كبير الآلهة "زيوس" غضب عليهم فشطرهم إلى نصفين عقابا لهم، هكذا أنخرط كل نصف يبحث عن نصفه المفقود المشطور عنه... ولما كانت إعادة اندماج بعضهم ببعض مستحيلة، سعى كل منهما إلى الحب كوسيلة مثلى لتحقيق الاكتمال القديم!...

(١)

العاشرة مساءً، الوقت متأخر! أعلم ذلك جيدا! بدأت صنعاء تغط في سباتها العميق! وتفقد أي دلائل للحياة!... صنعاء المدينة التي يتحول ليلها "مسلخاً لأرواحنا" ويا له من مسلخ، وكأنها تلتذ بسلب كل ما أعطته في نهارها من شمسها الدافئة ومن ضجيجها الساذج ومن رفقة ناسها الرائعين...

عندما فتحت لي "جود" باب منزلها لم يظهر على وجهها أي علامات استغراب أو اندهاش من مجيئي في تلك الساعة من الليل، كأنها كانت في انتظاري! أو تتوقع قدومي على اقل تقدير. ألقيت بنفسي بين ذراعيها وأجهشت بالبكاء. انتحبت وأنا اشعر بدفء تربيتها على ظهري. لم تسألني عن شيء. أوصدتْ الباب، بهدوء سرنا معا باتجاه صالة الاستقبال. أجلستني على اقرب كرسي وغابت عني. عادت بعد دقائق ممسكة بطبق شوربة ساخن، أصرت على أن أتناوله ليخفف على الأقل ارتجاف جسدي الذي بدا لها هزيلا على غير عادته!...

وضعت يدها على فمي لتمنعني من الحديث وهي تقول:

كل ما تحتاجينه الآن هو الراحة، نامي وسنتحدث لاحقا! سأجهز لك الغرفة، حتى لا تتحول صنعاء في هذه اللحظة إلى "مسلخ لأرواحنا" كما قال عنها شاعرك المفضل "فتحي أبو النصر"، القصيدة التي لا تنطفئ جذوة اشتعالها كما تقولين عنه

تكومت على نفسي في السرير الذي أعدته لي. حاولت أن أنام. لم يكن النوم سهلا بعيدا عن سريري وعن رائحة أنفاسي المتجذرة في لحافي وعلى مخدتي، ورغم ذلك لم اعرف متى نمت صباحاً وربما ظهراً، كم الساعة الآن؟ لا أعرف! الضوء يملأ الغرفة. كانت غرفة الضيوف في آخر الممر، متصلة بالمنزل ببابها الذي يطل مع باقي أبواب الغرف على ممر أنيق ظل يدهش الزائرين بتصميمه وبنسب طوله وعرضه وإضاءته. ومع هذا كانت أيضا منفصلة فهي الوحيدة التي تطل على حديقة المنزل بشرفةٍ واسعةٍ بقيت متنفساً لقضاء أوقات شاي العصر والليل خاصة في الصيف، وفي نهايتها سلم يصلها بالحديقة.

عندما غادرتُ الغرفة كان هناك صوت لحركة خفيفة في المطبخ، اعتقدتُها "جود" لكنها كانت "صفية" الخادمة الحبشية. استقبلتني بابتسامة وتحية صباح رقيقة. قالت بأن الأستاذة تركت لي رسالة فوق التلفزيون في صالة الجلوس قبل أن تسأل عن سُكر قهوتي الصباحية.

اندهشتُ، للحظات مما قالته واتجهت مباشرة لمعرفة ماذا في رسالة جود. "صباح الخير روضة، اضطررت للذهاب للمدرسة، لن أتأخر، صفية في خدمتك، ومفكرة خضراء في درج المكتبة الأيمن يمكنك التسلي بقراءة ما فيها لحين عودتي! محبتي، جود"

توجهت ببصري للبحث عن المفكرة الخضراء التي تحدثت عنها، كانت واضحة للعين وقريبة من تناول اليد وكأنها جهزتها قبل أن تغادر. التقطتها وكلي لهفة لأعرف ما فيها ولماذا تريدني جود أن أقرأها. فتحتها، استقبلني خطها الذي اعرفه جيدا، صغير جدا، لكنه واضح جدا، على عكس خطي تماما. أكتب وكأني أصنع طلاسم من الحروف حتى لا يفهمها أحد غيري.

قلبتُ ورق المفكرة بشكل بديهي لأعرف محتواها ولو بشكل خاطف، فيما صفيه تضع القهوة أمامي وبعض حبات التمر، يبدو أن جود أخبرتها بمزاجي الصباحي. سألتْ إذا ما كنت ارغب في أن أتناول شيئا الآن أو شيئا معينا على الغداء، أجبتها بشكل سريع أن تفعل ما تراه مناسبا للغداء أما الآن فلا رغبة لي في الأكل وعدت سريعا لمفكرة جود.

أكثر ما أثار انتباهي وتأملي هو العنوان الذي اختارته جود لعملها الذي لم اعرف بعد ما هو! كان ملفتاً في أول صفحة: "عقيلات" رابضٌ على عناوين كثيرة كتبتها وخدشتها وحورتها حتى استقرت على ذلك كما يبدو، ليجثم بسواده على كل العناوين السابقة. تلاه في الصفحة الثانية وبين قوسين: (الصدفة البحتة هي التي جعلتني أعرف حكاياتهن، والصدفة البحتة أيضا هي التي جعلتني أدونها، لأكتشف أنني إحداهن تماما كما ستكتشف ذلك كل واحدة منكن!... جود التاج).

ما فعلتهُ مباشرة وقبل الدخول في قراءة ما كتبته جود ولكثرة ما حيرني عنوانها هو التوجه للكمبيوتر للبحث عن معنى هذه الكلمة، بعد أن اختلط الأمر عليَّ بين العاقلة والعقيلة، فالعاقلة كما تشير أول نتيجة لمحرك البحث "جوجل" هي من تعقل لسانها عن الكلام، أما العقيلة فهي الزوجة الكريمة التي لا تبرح الخدر وتتستر من الرجال!...

*****

كانت علاقتي بجود قوية وصادقة رغم أننا لم نكن نرى بعضنا بعضاً بشكل دائم. لم نعد نلتقي في السنوات الأخيرة إلا في المناسبات ورغم ذلك كانت علاقة عميقة، تفهمني من أول كلمة، تُغِير عليَّ في كل مشكلة أو مصيبة أقع فيها. تماما كما افعل معها بنية خالصة وبجهد لا أتوانى أو تتوانى عن التقصير فيه!...

قضينا معا فترة الدراسة، في ذات الفصل، وبعض أعوام في ذات المقعد. حتى أنهينا المرحلة الثانوية. في الجامعة تخصصت جود في هندسة الاتصالات وأنا في الهندسة المعمارية. افترقنا منذ بداية العام الثاني بعد أن قضينا العام التمهيدي الأول معا لدراسة المواد العامة لكل تخصصات الكلية، تجمعنا كافتيريا الكلية الخاصة بالطالبات والبعيدة نوعا ما عن كافتيريا الطلاب، نتبادل فيها أخبارنا، ونشتكي من صعوبة المناهج ونكد الدكاترة.

كان لكل منا صديقاتها المقربات... لكن يظل لكل صديقة نكهة خاصة مرتبطة بظروف تعارفنا وتفهمنا للظروف من حولنا، لذلك لم تكن هناك مشاكل تذكر أو حتى خلافات بين صديقاتنا، وكأن قدرتنا على استيعابهن كانت أقوى من أي ظروف طارئة قد تسبب أي نوع من المشاكل!... لذلك ربما نجحت جود مؤخرا في مشروعها وبقوة، ونالت ثقة المحيطين بها في وقت قياسي ونالت سمعتها قدرا كبيرا من الاحترام والثقة والتميز.

لم يكن لتفوقنا في الجامعة والتزامنا بالحضور وحبنا لتلقي العلم رصيد يذكر لدى كل المقربين لنا من الذكور في عائلتينا، فما نفعله ليس سوى تسلية لنا، واثبات كاذب، زائف، منافق بأن عائلتينا متفهمتان ومتحضرتان وتسمحان لبناتها بالتعليم! رغم الاختلاف الجذري بينهما، فعائلة جود أصولها كما يقولون "هاشمية " على عكس عائلتي تماما التي يعتبرونها بدون أصول ويصفونها "بالمزاينة " ولولا كفاح والدي وصموده في التجارة وجمعِهِ للمال حتى لو كان ذلك بطرق غير مشروعة لأصبح ذلك مثار لغط كبير أو تلميحات من عائلة جود لتنهي أو على الأقل

هاشمية: تعود جذور نسبها للنبي محمد ÷ .
مزاينة: فئة دنيا في الترتيب الاجتماعي لبنيةٍ نظام القبيلة. لا يتزاوج المزاينة مع القبائل ولا يظهرون قولاً أو فعلاً يفهم منه تساويهم مع أبناء القبيلة ولا يفتخروا بنسبهم أو بأنفسهم.

لتخفف علاقتها بي. لكن سِحر المال والجاه هو سبب تغاضيهما عن هذه النقطة، بل وسبب تغاضي المجتمع التي تظهر تناقضاته في معاملة الأغنياء بطريقة والفقراء بطريقة أخرى رغم تشابههم في الأصل، لذلك كنت دائما ما اسمع من عماتي أن إصرار أبي على تزويج بناته من عائلات معروفة بحسبها ونسبها وتاريخها في المجتمع بأنه "يشتي يتأصل "أي يكون له أصل!...

آه المال، سبب البلاء كله وما زال بالنسبة لي حتى اللحظة!...

تردد جود دائما وبشكل مضحك تلك العبارة التي تسمعها دائما من شقيقيها (لا تظني أنك ستتوظفي وتزاحمي الرجال لو تخرجت من الجامعة، قرايه وبس، قرايه وجلسة في البيت!...) أما أنا فكان والدي بين حين وآخر يردد عبارته لكن بأسلوب آخر (يا بنتي لو اخترتِ شيء سهل، مناسب لرقة البنات، بدل هذا السهر والتعب والوقفة على ارجلش طوال الليل، أنتِ إلا بنت مثل اسمش...) كلتانا لا ترد. نبتلع مع صمتنا ألماً لا يوصف وشعوراً بالذل والمهانة خشية أن نحرم من النعمة التي أسبغوها علينا، وكلتانا تردد أيضا عبارة الضعفاء والمهزومين وربما عبارة الأقوياء المنتصرين (لكل حادثٍ حديث...).

يشتي: يريد
قرايه: تعليم

كنا أجبن مما نتخيل، وافقت جود على البقاء في البيت حال تخرجها مهندسة اتصالات كهربائية مع وقف التنفيذ رغم حصولها على المركز الأول ووظيفتها مضمونة في الجامعة، أرقى مكان وأفضل وظيفة يمكن أن يحلم بها أي شخص. لم تفتح فمها حتى لتناقش أو تناضل من أجل الخروج للعمل وإقناع شقيقيها أن عملها لا يتطلب اختلاطاً أو رؤية للرجال كما يظنان لأن علاقتها ستكون بالأجهزة الكهربائية، والأجهزة فقط في أي مؤسسة أو وزارة أو شركة سيتم قبولها فيها. اكتفت بالصمت في انتظار المرحلة القادمة كما يريد شقيقاها: "العريس"، وعندما جاء هذا العريس المنتظر، ابن عمها الذي كانت تميل له، رفضته أمها دون سبب مقنع غير عدم ارتياحها لزوجة أخيها "أم العريس" قالت: أن بنتها الوحيدة لن تكون مرتاحة في العيش مع "عَمَّة" مُتسلطة وقاسية ولا تحب أهل زوجها كما كان مشاعاً عنها في العائلة!...

أبدت جود استسلاما أكثر مما توقعت. لم تكن قوية مثل أمها التي فرضت رأيها على زوجها وأولادها بدهاء متقن، بأن العريس لا يناسب ابنتها الوحيدة. لماذا كانت بهذا الاستسلام والخنوع؟ هل هو الخوف من المواجهة بعد هذه السنين! هل هي عدم الرغبة في أن لا تتحمل مسئولية نفسها وقراراها

عمة: حماة

واختيارها فيما لو فشلت الزيجة ووصلت إلى ما كانوا يخشونه!... المذهِل أن شقيقيها وأمها لم يهتموا حتى بمراضاتها أو تخفيف الصدمة عنها أو حتى بمواساتها فقط يقولون:

"إن العريس القادم أفضل منه"، ووافقا مباشرة على طلبها السفر للقرية لترتاح ولتريحهما أيضاً.

ربما لو كانت جود قاومت منذ البداية هذا الظلم وهذا الاستعباد في حياتها بل وحتى في اختيار شريكها في هذه الحياة، لما جاءت ثورتها عارمة وقراراتها صارمة. ولكانت أيضا اقل تأثيرا عليها ولقبلت حتى المفاوضة مع والدتها وشقيقيها...

فاجأني صوت صفية وهي تسألني فيما لو كنت انوي الغداء الآن أم انتظر الأستاذة؟ "بالطبع سأنتظر الأستاذة يا صفية، شكرا لكِ!..."

ما زلتُ ممسكة بمفكرة جود الخضراء. ما زلتُ أتأمل خطها وعنوانها، ما زلتُ أرتجف غير قادرة حتى على تقليب أوراقها!... ما أبشعَ تلك الرجفة التي تشلك عن الحركة وعن التفكير لمجرد توقعك لما قد يحدث! الرجفة التي تهوي بك من هدوء استقرارك وسكينتك، وتحولك في لحظات إلى كتلة لحم غير قادرة على شيء. إنها عكس الرجفة التي تحلق بك في السماء نشوة، وتزهر في أعماقك حياة!... يبدو أن الرجفات مثل

البكاء! نبكي عندما نفرح ونبكي عندما نحزن، نبكي عندما نشعر بالخوف ونبكي عندما يغمرنا الأمان! تماما كما نرتجف من شدة الحزن ونرتجف من شدة الألم ومن شدة الفرح ومن شدة الخوف! ترى أيها أصدق!؟

لماذا أنا غير قادرة على البدءِ في قراءة ما تركته لي جود؟ هل تواطئي مع نفسي في تخمين ما سأقرؤه السبب؟ هل "عقيلات" جود هنَّ المربوطات! المقيدات! المسجونات؟ هل هن المصونات ذوات الخدر! المتسترات من الرجال! وتحت أمر الرجال أيضا؟ ألهذا ثُرتِ يا جود؟ ألهذا رفضت أن تكوني عقيلة فلان! ألهذا أردت إثبات أن بإمكانك أن تكوني أنتِ، أنتِ دون أن تكوني عقيلة أحد!...

معكِ حق! لا شيء يشفع لنا في مجتمعنا مهما كان منطقيا سوى تلك المسميات التي يبحثون عنها: "زوجة" مسمى يعشقونه! "مطلقة" مسمى يمقتونه! "عانس" مسمى يختلفون عليه! هم لا يبحثون عن جوهر تلك العلاقات التي تكون وتكون معا سيرورة الحياة. قد تصبح المطلقة التي قهرتها الظروف ومع ذلك تؤدي واجباتها تجاه أبنائها أفضل من الزوجة المهملة تجاههم ومع ذلك هي الأفضل في كفتهم الغير عادلة وفي مسمياتهم الغبية.

يا إلهي يا جود كم يبدو عنوانك صادما وقاسيا وصادقا! يجمع تناقضات عدة. وخلف حروفه تخمينات مربكة وربما محيرة أيضاً... ترى كم عقيلة حوت مفكرتك؟ هل أنا وأنت ضمن عقيلات مفكرتك؟ هل نحن أولهن يا صديقة عمري. أم آخرهن أم في الوسط؟

لا أنسى اليوم الذي قررتِ فيه مغادرة صنعاء إلى قريتك، بعد أن ضقت ذرعا بكل ما حولك. بعد أن جعلك شقيقاك مجرد كيانٍ جامدٍ له صفات يتباهون بها، ويبحثون له عن مبررات للحياة في المجتمع وفي القيام بكل ما يرضيه... (بنتنا متعلمة، مهندسة، عرسانها كُثر، آخرهم ابن عمنا الذي رفضناه لأنه لا يناسبها، نحن أدرى بمصلحتها وبما يناسبها. بنتنا لا عيب فيها...) متناسين بأن للآخرين من حولهم ألسنة يتحدثون بها ومنطقاً يفوق منطقهم لأنه الأقوى، لسبب واحد فقط أنه صادر من رجل.

لم يصدر من ابن عمها شيء يؤذيها أمام ما قامت به أمه حين قالت (كان المفروض أن تحمد الله وتشكره لأن ابني سيتزوجها، لقد أصبحت عانساً، من سيتزوج فتاة عمرها خمسة وعشرين عاماً ومتعلمة أيضا، سأزوجه أحسن وأجمل وأصغر منها، وستندم طيلة حياتها على أنها رفضته...)

ابتلعتِ كل ذلك يا صديقتي وغادرتِ. شعرتُ بالوحدة من بعدك، تمنيت كثيرا لو سمح لكِ شقيقاك بالعمل بشروطهما كما فعل أبي الذي أقتنع بأن العمل مثل التعليم حماية للمرأة من غدر الزمان حتى لو كانت غير محتاجة للمال. في الحقيقة هو أشفق على ابنته التي تخطت الأربعة وعشرين عاما وهو مستمر في رفض كل خُطابها على أمل أن يُفصل لها عريساً بمواصفاته هو، ويحقق مصالحه هو!...

وافقتُ على كل شروطه، لم أمارس مهنة الهندسة المعمارية التي تعلمتها وتفوقت فيها وأبدعت طوال سنوات الدراسة الخمس كما حلمت خاصة بعد حصولي على المركز الأول، وفرصة عملي في الجامعة متاحة وبشكل كبير. قبلت أن أكون مُدرسة للمرحلة الابتدائية في المدرسة القريبة من منزلنا. وافقت على التدريس وقلت لا يهم، نصف البلاء ولا كله، بعد أن كاد الملل يقتلني وأنا أقضي أيامي بين أربعة حيطان.

ربما لذلك يا صديقتي كانت ثورتك عارمة وتمردك حقيقياً، صادقاً، دافعتِ عنه بكل سنيّ قهرك وحرمانك واستعبادك!!!

*****

عادت جود من المدرسة، كل ما فيها يوحي بالغضب، لم تنتظر لأسألها ما بها لكنها انفجرت قائلة: كنت على يقين من أن ما حدث

في العام الماضي سيتكرر هذا العام أيضا. كل ما هو سيئ وقبيح ينتشر بين الناس بشكل مذهل كالوباء، بل كالنار في الهشيم فعلا!...

لم تنتظر مني أي رد أو تعليق يُهدئ حالتها وأكملتْ: تصوري أن أمهاتنا الأُميات غير متعلمات كن أكثر ايجابية معنا في تربيتنا والحرص على إنهاء تعليمنا في الستينيات أكثر من المتعلمات ونحن على مشارف انتهاء العقد الأول من الألفية الثالثة!...

لن تصدقي يا روضة أن إحدى طالبات المدرسة في العام الماضي تزوجت حال انتهائها من الثانوية، رغم نصيحتي وكلامي المقنع المنطقي لأمها الجامعية وأبيها الجامعي أيضا، بخطر ذلك عليها صحيا ونفسيا وحياتياً في المستقبل، وضرورة تأجيل ذلك لتكمل تعليمها حتى تكون قادرة على تحمل المسئولية التي ستلقى على كاهلها لأن الزواج ليس فستاناً ابيضاً، وحفلة زفاف كبيرة، ضخمة وفخمة كما تحلم به الفتيات وتتنافس الأمهات في إبراز ما لديهن من مال وجاه! دون فائدة!...

صباح اليوم فوجئت بدعوة زفاف أنيقة باهظة الثمن موشاة بالدنتيل ومعها هدية في علبة مخملية، ووجدت المُدرسات يفتحن هداياهن وكل واحدة تقول بأن هديتها الأجمل (مصاحف مغطاة بالمخمل الأرجواني، تماثيل أنيقة لعروسين على عربة تجرها الخيول، شموع معطرة وورود مجففة...) يا إلهي شعرت بأن دخاناً

كثيفاً يتصاعد من وسط رأسي وأنا أرى منظرا مستفزا لكل مشاعر البساطة والتواضع والقيم بأسرها!...

أين أبسطه وأيسره، أبركُه؟ أين مراعاة مشاعر الآخرين غير القادرين حتى على طباعة ورق ملون لدعوة زفاف في مجتمع يعيش أكثر من ثلثه تحت خط الفقر حسب تقارير التنمية البشرية! أين الوسطية التي لم يعد لها وجود: إما غناء فاحش أو فقر مدقع!!! غير هذا وذاك حتى لو افترضنا أنهم أحرار في المال الذي انعم الله به عليهم، وكما يرددون دائما ((وأما بنعمة ربك فحدث...)) ألم يفكرا أن امتحانات نصف العام الدراسي بعد اقل من أسبوع؟!...

هل تعرفين ماذا أجابت الأم وأنا اسألها هذا السؤال: "ستكمل دراستها في كندا، زوجها سيكمل تعليمه الجامعي هناك، الزواج حماية له يا أستاذة جود" وجدتني أرد عليها وأنا فاغرة فاهي من الدهشة: (حماية له!!! وابنتك الم تفكري فيها، وفي حياتها ومستقبلها وتعليمها! وفي حمايتها أيضا فيما لو قرر يوما استبدالها بأخرى لها مواصفات أحسن كما يفعل اغلب الرجال!!!...)

امتقع وجهها وأنا أقول ذلك وقالت: "فال الله ولا فالك يا أستاذة جود ما يقع إلا خير، لا تتأخري في الحضور..." لم أجد

شيئا أقوله للأم التي أصرت على أن تسلم لي دعوة زفاف ابنتها بيدها، لمحبة ابنتها لي واحترامها اللا محدود لي كما تقول، غير أن اردد في أعماقي "أتمنى أن لا يحدث شيء مما أخشاه بعد حين"...

ابتسمتْ جود وبدأتْ تقول عبارتها وهي تقهقه: هل تعلمين يا روضة لقد خشيت أن تفسر أم العروسة حنقي وغضبي من هذا الزواج المبكر الغير متكافئ بالمرة من أنها وسواس وغيرة، وربما قهر امرأة عانس ليس إلا!... لفتنا عندها نوبة ضحك طويلة قبل أن نتوجه للمطبخ لتناول طعام الغداء.

طلبتْ جود من صفية أن تغادر حال انتهائها من نظافة المطبخ حتى لا تتأخر على زوجها ويسبب لها مشاكل كعادته، بينما دخلت هي لاستبدال ملابسها. أعدت لنا جود بعد الغداء قهوة القشر المحوجة بالزنجبيل والهيل، تعرف أنني أحبها بعد الأكل، تناولناها في شرفة حُجرة الضيوف. قلت لها وأنا انظر باتجاه البيت الملاصق لبيتها:

انظري كم هو جميل بيتنا من بعيد، من يصدق أن سكان هذا البيت أصابهم العطب من الداخل وأصبحوا غير قادرين حتى على التعايش تحت سقفه!... رجل وثلاث نساء!... ثلاث نساء وخمسة عشر ابن وابنة!... خمسة عشر ابن وابنة وعشرون حفيداً، والبقية تأتي!... الجميع يبحث عن السعادة

في هذه الحياة! الجميع غير راض عن حياته! الجميع يلهث وراء سراب لا يلتقط منه غير المزيد من الجري والظمأ!...

حاولت جود أن تخرجني من هذا الموال وقالت لماذا لا نرتاح الآن ونستعد لمشاهدة فيلم الليلة في قناة روتانا زمان!... عندها انفجرت ضاحكة وهي تقول: هل تذكرين يا روضة الفيلم الذي أهديته لصلاح، زميلي في الكلية، كان "رسالة من امرأة مجهولة" لفريد الأطرش، كنت أريد أن اعبر له عن إعجابي به وعن كوني لا أمانع فيما لو فكر في خطبتي أو حتى مبادلتي الإعجاب! نظرتُ إليها وابتسامتي وصوتي ينمان عن سخرية وقلت لها: نعم اذكر وأذكر حتى أنه أعاد لك الفيلم وقال انه لا يهوى الأفلام القديمة، ولا يحب فريد الأطرش في الأصل. واصلت: وهل تذكرين ما فعلته أنا أيضا لأعبر لياسر زميلي في الدفعة عن إعجابي به، كتبت قصة قصيرة عن أمل فتاة في شاب سينقذها من مشاكلها وسيحقق لها الحب والأمان! عندها انفجرت جود بالضحك وهي تقول نعم أذكر وأذكر حتى أنه أعاد لك الصحيفة التي نشرت القصة وهو يعلق أن أسلوبك رائع في الكتابة لكنه شخصيا ضد هذه الأفكار، هو مقتنع تماما أن الفتاة يجب أن لا تعبر للشاب عن مشاعرها مهما كانت تحبه!...

لفتنا بعدها نوبة ضحك هستيرية من هذه الذكريات التي نعتبرها أجمل ما مر بنا في الحياة!...

ربما كنا نعي تماما بأنَّا كنا نبحث في وقت مبكر عن مخرج لمشاكلنا العائلية. نبحث عن وسيلة نهرب بها من ظروفنا القاهرة لنا بعد تخرجنا. نتوسل طريقة تخرجنا للعالم وللعمل وللحرية حتى لو كانت انتقالاً من وصاية رجل في منزل العائلة، إلى وصاية رجل في منزل الزوجية، لكن التجربة والاختلاف قد يكونان سبباً للتغيير. هكذا حلمنا! لم نجرؤ على أكثر من ذلك كما فعلت باقي زميلاتنا، لم نجرؤ على الوقوف ساعات طويلة للحديث معهما والتفاهم والتعارف بشكل أفضل وهذا اضعف الإيمان. شيءٌ ما في سلوكنا كان يجعل شقيقيها ووالدي أمام أعيننا، كان الخوف في أعماقنا رغم أنهم لا يروننا أو يعرفون ماذا نفعل! ورغم قناعاتنا بأن هذا ليس خطأ وأن زميلاتنا محقات في التعرف على من سيكون لهن شريك حياة!...

انتهت سنوات الدراسة الخمس بزيجات كثيرة في كل الأقسام في الكلية، لكنَّا لم نكن منها، لا أنا ولا جود كنا خارج الدائرة، لأن الخلل كان في أعماقنا، نعم في أعماقنا! وفي طريقة تربيتنا المبنية على الخوف وعدم الثقة في النفس بل وعدم المسئولية تجاه حياتنا ومستقبلنا إلا إذا قرر ذلك المخولون بالتصرف من رجال العائلة.

*****

نظرت إليَّ جود وهي تسألني: لماذا توقفت عن الكتابة يا روضة؟ كان لديك أسلوب جميل وتعبيرات رائعة وإحساس مرهف في كل ما كنت اقرؤوه لك من خواطر أيام المدرسة والجامعة أيضا! هل تعلمين أن الدواء الوحيد لكل ما أنت فيه الآن هو الكتابة! لا يهم نوعها أو شكلها المهم أن تُخرجي كل ما بداخلك لترتاحي!... الست معي؟ بها تنتصرين على قبح الحياة وألمها، كما فعلت أنا، آمنت بذلك وبدأت أكتب بشكل يومي تقريبا، يمكنك أن تسميها يوميات حتى لو كانت مشتتة وغير منتظمة إلا أني كنت اشعر بارتياح لا حدود له حال انتهائي من طقس الكتابة اليومي ذاك، تماما كما كنتِ تحدثينني عن كتابة يومياتك سابقاً ألا تذكرين يا روضة!؟

كنتُ أصغي لكلامها ساهمةً شاردةً في أحلى ذكرياتنا عندما كنت اقرأ لها يومياتي التي كنت اكتبها، وأحيانا خواطري من قصص وأشعار كنت أدونها في كل فترات دراستنا من المرحلة الابتدائية حتى مرحلة الجامعة! بدأتْ بعدها علاقتي بالكتابة تأخذ مسارا أكثر حميمية لتصبح هي الشيء الوحيد القادر على التعبير عني وعن كل ما كان يعتمل في أعماقي. ترى، ألهذا السبب جعلتني جود اقرأ ما كتبته؟ هل لأني سأفهمه أكثر أم لأنها تريد أن أعيد صياغته، أم لأن ما فيه قد يجعلني صابرة على

مصيبتي لأنها لا تمثل شيئا لمصائب عقيلاتها!؟... ما الذي جعلني ابتعد عن القلم وعن الكتابة رغم إيماني أنها وسيلة للتغلب على القهر والألم الذي يصيبنا نحن النساء، بل وعلى القبح من حولنا كما قالت جود؟ هل المشاكل أم الصراع من اجل الحصول على ما يفترض انه حق من حقوقي؟! الحياة الكريمة وفق خياري أنا وقراري أنا!... لا وفق ما يراه أبي!...

أبي ذلك المتسلط الجبار، الذي يُسَيِّر البيت كله بيد من حديد!... لا احد يجرؤ على مناقشته، زوجاته الثلاث، أبنائه الذكور أو الإناث، كلامه أوامر، "فرمان ملكي" يجب الانصياع له وتنفيذه دون نقاش. هو الأعلم بكل شيء، هو المُسيِّر لحياتنا وسعادتنا كما يراها، هو العالِم بما يجب أن يكون وبما لا يجب في حياة كل أبنائه وبناته... أبي ذلك الجبار الذي دمر كل شيء جميل في حياتي على الأقل! إن كانت باقي شقيقاتي راضيات عن الحياة التي اختارها لهن، وسعيدات بالحياة في قصورهن الفارهة، يعشن فيها مع أزواج لا هم لهم غير الجمال والمال! ما أقسى تلك النظرة للمرأة، تُجرِّدها من أرقى وأسمى حقوقها في الحياة بحرية!...

هل تعلمين يا جود حدثت لي حكاية غريبة مع أبي بعد سفرك للقرية بفترة وجيزة لم احكها لك وتذكرتها الآن: كنتُ

فرمان: مرسوم

حينها كما تعلمين قد تجاوزت الأربعة والعشرين عاما ببضعة شهور، لكن ذلك لم يكن يعني له شيئاً وحبسني!...

بدت علامات الاستغراب على وجه جود قبل أن أواصل الحديث بصوتٍ مرتجفٍ، وغصةٍ أمسكت بحلقي، ومرارة اكتسحت فمي، نعم لا تستغربي ولا تندهشي، حبسني كما لو كنت معتقلة سياسية ثلاثة أيام دون أكل أو شرب إلا ما كان يتم تهريبه لي من عقب الباب! لن تصدقي سبب ذلك أيضا: سمعني احدث في التلفون شقيق صديقتي الذي كان يريد معرفة رأيي في الزواج منه قبل أن يتقدم لخطبتي بشكل رسمي. فسر أبي رؤيته لي ذات مرة وهما يوصلاني للمنزل بعد أن حضرت حفلة عيد ميلاد صديقتي بأنها ليست المرة الأولى التي أراه فيها وأن "بنته" بدأت تشوه سمعته وتحب ويتقدم لها بعروض زواج عن طريق التلفون! لم أكن معه وحدي عندما أوصلاني للمنزل ولم يحدث شيء غير ما حكيته له ومع ذلك لم يصدقني!...

وجدتني أدافع عن نفسي لا ادري مِمَّا، قبل أن أدفع ذلك الثمن الغالي والعقاب الفظيع الذي وجهه لي أبي. تكومت على نفسي لا أعرف كم بقيت، كرهت صوت أنفاسي وهي تخرج مني لهول شعوري بالصدمة، لم أكن اسمع غيرها يتردد دون توقف

بنته: ابنته

طيلة اليوم، إذا أغلقت فمي وتنفست من انفي صدر صوت يشبه الصفير المكتوم، وإذا فتحت فمي بدت أنفاسي وكأني الهث كالكلب! نعم ربما لو كان لديه كلب لعامله بإنسانية أكثر مني!...

بعد وساطة دموع أمي وكلام زوجتيه عن أدبي وأخلاقي العالية وصدقي فيما أخبرته، تم الإفراج عن الكلبة، من سجنها بل من قفصها!...

لن تصدقي يا جود بأني بعدها بدوت أكثر قوة وصلابة من قبل، ذقت شيئا مما كنت أخشاه، فكسرت ذلك الحاجز من خوف العقاب في أعماقي، كان هذا نصرا ذاتيا كبيرا لي، لذلك لم أعد ارفض من بعد هذه الحادثة رؤية شقيق صديقتي والخروج معه منفردين وفي الخفاء طبعا، بعد أن أصر على التواصل معي حال معرفته لما تعرضت له من عقاب بسببه. ورغم أن والدي لم يكن يحبذ وضع اللثمة على وجوهنا إلا بعد زواجنا إذا فَضَّل أزواجنا ذلك، لقناعته أن اللثام على الوجه سبباً لمشاكل كثيرة، ويمكن للمرأة أن تفعل من السوء ما تريد دون أن يعرف ذلك أحد بسبب تغطية وجهها، إلا أنني كنت أضعها وأخرج.

ربما كانت حسنة أبي اليتيمة هو أنه لم يجبرنا على وضع اللثمة قبل زواجنا على عكس باقي الآباء الذين يجبرون بناتهم على وضع اللثمة. كان معه حق في ذلك فقد كنت أضع اللثام حال خروجي

اللثمة: ما يغطي الوجه دون العينين ويطلق عليه حاليا النقاب.

مع شقيق صديقتي حتى لا يعرفني أحد، كم بدا لي المُنكر في تلك اللحظات سهلا يا روضة، ولولا نُبل شقيق صديقتي لأستغل حالتي وضعفي أبشع استغلال... بعد ذلك العقاب ورغم الصدق في تعاملي مع والدي، وبعد ما فعله بي، أصبح لي الحق أن أُغَيِّر ذلك كلِّيا إلى النقيض منه فيما يعني سلوكي مع ذاتي، خاصة وأنا اعرف أن أبي لن يزوجني إلا من الرجل الذي سيختاره هو وتتفق مصالحه معه كما فعل مع شقيقاتي!...

لم يعاودني مجددا ذلك الإحساس وتلك النشوة وأنا مع شقيق صديقتي في سيارته التي كنا ندور فيها حول المدينة بعض ساعات في كل أسبوع مرة أو مرتين، كان النظر في عينيه يسري في جسدي رجفة لذيذة، واحتضانه ليدي في تلك المرات القليلة التي تجرأ فيها ولمسها تشعل فيَّ نشوة لا أزال اشعر بحلاوة مذاقها في فمي كلما خطرت ذكراها في مخيلتي رغم هذه السنين التي مرت!...حدثني كثيرا عن رغبته العارمة في الذهاب معي لزيارة "غار قيس وليلى" في جبل التوباد ، والبقاء معاً في تلك المساحة الصغيرة

جبل التوباد: يقع داخل قرية الغيل في الجزء الجنوبي الغربي من محافظة الأفلاج، ٣٥٠ كم جنوب مدينة الرياض.سكن القرية قبل ١٠٠٠ عام بني عامر والتي ينتمي لها قيس بن الملوح وليلى العامرية. يقع بوسط الجبل غار يسمى (غار قيس وليلى) وهو عبارة عن فتحة صغيرة تقع في منتصف الجبل، يقال أن قيس وليلى كلنا يجلسان فيه ويتبادلان الشعر والغزل. كتب على احد الصخور بجوار الغار بيت لأحدى قصائد قيس المشهورة=

التي لم تتعد الأربعة أمتار، حيث كانا يجلسان فيها، يتبادلان الشعر والغزل. قال أنه ساعتئذٍ سيهمس في أذني بما لم يقله قيس لليلى، وسنذوب معا في ذلك الغار كما لم يفعلا! سيقدم لي السعادة خالصة من اللذة التي حلم بها طويلا: معي ولنا!...

هل بإمكاني نسيان كل ذلك يا جود؟ بالطبع لا، إن تلك الذكريات كانت زادي في تلك الليالي التي كنت أتقطع فيها ألما بجوار رجل لا يهمه غير متعته وسعادته ونشوته فقط، لذلك كرهت معاشرته وهو يتجاهل مشاعري وحاجتي للمتعة مثله، وكرهت رائحته وهو مخمور، لا يأبه أو يهتم إلا بما يشاء من الوصول لأقصى الغياب عن العالم ولأقصى اللذة.

لولا هروبي بخيالٍ لذيذ إلى ماضٍ لم يحدث فيه غير السمو بعلاقات ومشاعر إنسانية وصلت حدود السماء، رغم أني لم أره أو التقية حتى ولو من باب الصدفة منذ زواجي! نظرت إليَّ جود وهي تتنهد وتقول معك حق يا فيلسوفه، لقد حللت الموضوع ببساطة شديدة، أنا أيضا لا يمكنني أن أنسى ذلك المذاق الفريد لاحتضانه لي ولقُبلتهِ!...

=عندما مر بجوار الجبل وتذكر ليلى وأيامهما الجميلة وهما صغيران يرعيان الغنم فوق الجبل بعد أن حرم من رؤيتها ومن الزواج بها:

أمر على الديار ... أقبل ذا الجدار وذا

وما حب الديار شغفن ... ولكن حب من سكن

بحلقت فيها مندهشة! "قُبلة!!! قُبلة من! لم تخبريني أي شيء يا جود عن ذلك!؟ ابتسمتْ وهي تقول لا احد يعرف بأمرها حتى اللحظة يا روضة، تعرفين، بعد ذهابي للقرية، وبعد زواجك، بَعُدنا رغما عنا عن بعضنا وأصبحت أخبارنا موسمية، لكن الحديث عن الأشياء التي نحبها يجعلنا نستعيد تذكرها وكأنها حدثت للتو فتحدِث في أعماقنا نشوة تمدَّنا بأشياء كثيرة نحن بحاجة إليها!... لذلك سأحكيها لك:

بعد مغادرتي صنعاء إلى القرية جاء ابن عمي إلى بيت جدتي التي كانت تحبه ولا ترفض له طلبا، وحاول إقناعي بالتصدي لشقيقيَّ والزواج منه لأنه يحبني! وأنا أيضا أميل إليه منذ طفولتنا، كان الأول بل الوحيد الذي حلمت به في مراهقتي وتمنيته زوجا لي من أعماقي. عندما خذلته كوني غير قادرة على مجابهة شقيقيَّ وأمي، انهار أمامي لأنه لم يتوقع ذلك الجُبن والاستسلام من قِبَلي رغم حبي له! عندما اقتربت منه لأخفف عنه وأُبَيِّن له أن ما يطلبه صعب لأني سأقف في وجه العائلة بأكملها، شدني إليه واحتضنني بقوة، وعندما حاولت التملص من بين ذراعيه ومقاومته لم اشعر إلا بحرارة أنفاسه تقترب من شفتي، وغبنا في قبلة دافئة هي كل ما تعرفه جود التاج صديقتك و مديرة "مدرسة العُلا الثانوية" عن الحب!...

لا أدري لماذا أشفقتُ على جود وهي تقول ذلك، تجرأت بعدها وسألتها، ألا تشتاقين للحياة في ظل رجل يا جود!؟ ألا تشتاقين لمذاق تلك القبلة بين حين وآخر؟ ألا ترغبين في تجربة الزواج لتتمتعي بالحياة الزوجية والعشرة والأبناء!؟ لم تستغرب سيل أسئلتي لأن علاقتنا كانت دائما شفافة، لذلك كانت إجابتها سهلة جدا!وابسط مما توقعت:

أكثر من حدود احتضان ابن عمي وقبلته لا اعرف شيئا ولا احلم أيضا بشيء. يكفي أن أتذكر صدق اللحظة وقوتها وعمقها ونقائها لأستمر، ولو باحتضان الوسادة ليلا لإخماد ما يشب في أعماقي من مشاعر لا أستطيع وصفها أو تجاوزها بمجرد مرور تلك القبلة بتفاصيلها بمخيلتي. لديَّ غرفة ليلية مليئة بالخيالات ومليئة بكل ما أريد من متعة تخصني لأنها شعور داخلي سامي يتجاوز حدود الشعور بها في الواقع، عن وعي تدركينه! لذلك يرضيكِ ويعوضكِ عن كل ما تفقدينه في خارجها. إنها كما سمتها الروائية الانجليزية " فرجينيا وولف" في إحدى رواياتها "غرفة تخص المرء وحده" وهذا ما لا يملكه السواد الأعظم من البشر. تماما كما أن لكل إنسان صندوقاً اسود يلقي بداخله كل ما يريد أن يخفيه عن العالم تصل أحيانا حد دهشته من ذاته ومن أفعاله أو حتى تفكيره، لذلك يواجه نفسه ويلقي بكل ما يريد في أعماق ذلك

الصندوق! ويكذب عليك من يقول غير ذلك يا روضة، جميعنا لنا صناديق سوداء.

ما اتخذته في حياتي كان قرار نابعا عن قناعة من أعماقي لا أتمنى إلا أن يُحترم عوضا عن حياتي التي ضاعت ولا يد لي فيها، فبعد الأقاويل عن رفضي لإبن عمي وقول أمه أنهم هم الذين رفضوا، أصبح أمر خُطابي نادراً جدا وإن حدث فمواصفات شقيقيَّ كانت صعبة... بدأ التقدم في العمر يداهمني دون أن يدركوا ذلك، ولم تعد لي خيارات يا روضة! لم أعد مرغوبة إلا كزوجة ثانية أو عشيقة، أو زوجة في السر وجميعها حلول لا تناسبني أبدا!...

بعد أن أنشئت المدرسة، لن تصدقي عدد عروض بعض أولياء الأمور بالزواج مني ضمن نفس الإطار، زوجة ثانية أو زوجة في السِر! أحد أولياء الأمور طلب الحديث معي في أمر خاص وعلى انفراد، اعتقدت أن الأمر خاص بابنه وعندما طلبت من السكرتيرة أن تتركنا وحدنا لدقائق هجم عليَّ كالوحش الهائج وهو يقول انه يفكر بي بشكل جنوني، لم ير في حياته امرأة لها مواصفاتي الجسدية... لاحظي كلمة الجسدية يا روضة لتعرفي أي نوع من الرجال هو! قال أيضا ما يثير القرف والاشمئزاز إن استدارة أردافي عندما أمشي لا تغادر مخيلته، وان طولي لم يجده في أي امرأة يمنية.

شعرت بالرعب للحظات وأنا غير قادرة على التملص من بين يديه وخشيت الصراخ أيضا حتى لا تحدث فضيحة في المدرسة، تظاهرت بأني موافقة على طلبه، بدا لي في حالة غير طبيعية وهو يترك يدي ويغادر مكتبي في الحال! هل تعرفين ما كان طلبه، أن نتزوج دون أن نعلن ذلك الزواج لأن ظروفه العائلية لا تسمح له بإعلان ذلك الزواج، ونستمتع بالحياة معا في شقته السرية التي لا يعلم أحدٌ عنها شيئاً.

ارتميت على أقرب كرسي في مكتبي بعد مغادرته وأجهشت بالبكاء وأنا ارتجف، حدثت نفسي ما الذي فعلته ليسيطر عليه الخيال بهذه الطريقة! كلامي معه ومع غيره من أولياء الأمور بذات الطريقة الهادئة والمحترمة أيضا. دائما المرأة تحاسب نفسها وتلوم نفسها في مواقف كهذه حتى لو لم تكن هي المخطئة.

عندما عدت للبيت فكرت في كلامه الذي كنت اسمعه لأول مرة. وقفت أمام المرآة طويلا أتأمل طولي وأبحلق في أردافي. قهقهت عندها لأني فجأة تذكرت كلام أمي عنهما في بداية بلوغي مع صديقتها: إن إردافي وشقيقاتي مميزة باستدارتها ومثيرة للرجال، لذلك طلبت منها أن تخيط لنا ملابس واسعة جدا حتى لا نثير الانتباه. لم اهتم بهذا ولم أفكر في ما فعلته أمي حتى جاء ذلك الحقير وفعل ما فعله!

طلبتُ من الحارس بعدها أن لا يدخله وإذا أصر فليتجه لشئون الطلاب دون رؤيتي، مجرد مرور ما فعله بمخيلتي يصيبني بالغثيان. لست نادمة يا روضة ولا ابحث ولن ابحث عن رجل أكون عقيلته بعدما أصابني من شقيقيَّ! أنتِ اعلم الناس بأن ما فعلته في حياتي من نجاح لم يكن سهلا ولسبب بسيط ومض في ذهني للحظات، لكني تمسكت به واستمت لأدافع عنه كأني أدافع عن وجودي حتى لو كان ذلك متأخراً! ذلك الوميض كان يقول: انكِ مهما فعلت في هذا المجتمع لإرضائه، فلن تنالي الرضا التام، رغم ظلمك لنفسك وقبولك بظلم الآخرين لك، لذلك لن أعود للخلف أبدا، ويكفي ما أقدِّمه من رسالة إنسانية وحياتية في المدرسة التي تعلمين أنني فعلت الكثير لكي أنال ما أنا فيه... الكثير، الكثير يا روضة!...

*****

كانت جود في حالة صفاء ذهني تام لم أعهده لديها في الفترة الأخيرة، كانت ترغب في الحديث في كل شيء وفي أي شيء، وجدتها فرصة مناسبة لأسألها عما حدث لها في القرية قبل قدومها إلى صنعاء وإصرارها على العيش بمفردها في بيت العائلة وعدم قبول عرض شقيقيها في السكن معهما أو مع والدتهما. ليس هذا فحسب بل إنها تجرأت وضربت بكل كلامهما عرض الحائط في

عدم السماح لها بالعمل وطالبت بميراثها من والدها كاملا وأنشئت حضانة للأطفال تطورت حتى أصبحت الآن من أرقى المدارس الخاصة في العاصمة صنعاء، بل إنها المدرسة الوحيدة التي تتبع نظاما خاصا في مناهجها وفي اختلاط طلابها حتى المرحلة الثانوية، وهو أمر غير معهود بالمرة في العاصمة حيث تصر وزارة التربية والتعليم على الفصل بين البنين والبنات منذ الصف الرابع الابتدائي في مدارس منفصلة وان كان في نفس المدرسة ففي صفوف منفصلة للبنين وأخرى البنات.

بعد سؤالي إياها، سرحت عني قليلا كمن يسترجع شيئا لا يريد أن يتذكره. أطلقت زفرة عالية وهي تقول: سأحكي لك يا روضة كل شيء، وقد تندهشين حين تعرفين أنه لم يكن ثمة ما يستحق. لكن كما يقول المثل، "إنها القشة التي قصمت ظهر البعير" أو إنها ثورة قامت على أهون سبب، ولولا تراكمات سابقة لكان الأمر بالنسبة لي هيناً جدا وأكثر من هين أيضا! لكن أعدكِ بالرد على سؤالك في اقرب فرصة. الآن يجب عليَّ النوم، امتحانات نصف العام قريبة وترتيباتنا لا تنتهي ويجب أن اذهب إلى المدرسة في وقت مبكر. ليلة هانئة.

طبعت على خدي قبلة وغادرتني. عُدتُ شاخصة ببصري من جديد إلى بيتنا، أتطلع إليه بمشاعر متأرجحة بين روعة

ذكريات الطفولة فيه، ووجع عودتي له بتلك الذكريات المؤلمة.
كانت اغلب حجراته مضاءة، فيما عدا حجرة أمي التي أصبحت في الفترة الأخيرة تحب النوم في وقت مبكر، بسبب أبي الذي مازال في ريعان شبابه ويحتاج لامرأة قوية تؤانس ليله وهي لم تعد قادرة على ذلك. الحروب أو المشاحنات التي كانت لا تنتهي في التنافس بين زوجاته عليه أنهكتها وتركته الآن لهن يشبعن به (الطُبان قتلني وكمل لي السيرة...)

حجرة نومي أيضا كانت مطفأة. سيصدق أبي باني نمت في وقت مبكر مثل أمي، ولن يخطر على باله أنني في بيت صديقتي جود وأرى غرفته المضاءة الآن من شرفة حجرة الضيوف. إنه في حجرة الزوجة الثالثة، أكثرهن شباباً وإثارة له مؤخراً بدليل استحواذها على أكثر ليال الأسبوع. يقول دائما أن السبب في شبابه الدائم الذي يحسده عليه كل أصدقائه هو النساء، وينصحهم بممارسة الجنس لأنه يطيل العمر ويجدد الطاقة، "عليكم بالنساء فإنهن خير وقاية لكم من الشيخوخة وأمراض التقدم في العمر".

لم يعد يهتم كسابق عهده بالمرور على حجرتي منذ عدت لمنزله مطلقة بعد أربعة وعشرين عاما من الزواج، مكتفيا بالصدمة التي أصابته في مقتل بطلاقي، لأنها خالفت كل قوانين سير حياة إحدى بناته. قانون: "لا طلاق. حياة في كنف الزوج حتى الموت"!

الطبان: أي تعدد الزوجات

أنت تعلم يا أبي أن لا يد لي في طلاقي وإلا ما كنت وافقت أنت على ذلك أبدا أبدا!... ولأعدتني كأي حيوان لا إرادة له إلى حظيرة الزوجية رغما عني، لتسلمني له بخيط طويل تمسكه أنت من رقبتي وتقول له بكل فخر: "إعقلها حيث تشاء!..." لكنك الآن مثلي تماماً لا حول لك ولا قوة!...

*****

استيقظت حال مغادرة جود للمنزل متوجهة لمدرستها. لم تكن صفية قد حضرت بعد. أعددتُ لي فنجان قهوة وعدت للغرفة. لا شيء يسحرني في الصباح غير رائحة القهوة وساعة صمت اقضيها مع نفسي، تعودت ذلك لا ادري منذ متى، لكن ما أدريه أن ذلك كان سبب خلاف دائم مع زوجي الذي كان!... إذ كان يفسر ذلك بأنه تجاهل صباحي له في عدم الحديث معه، أو عبوس متعمد لمضايقته في بداية يومه! لم يحترم أبدا طلبي المتكرر بتلك الساعة الصباحية الأولى: أن تكون لي وبعدها ستسير الأمور كما يجب. لم يحترم ذلك أبدا وكأني كنت اطلب المستحيل! يا الهي كلما أتذكر تلك الأيام بل تلك السنوات اشعر بالصداع يكاد يدمر رأسي وأحاول استبدال ذلك بتذكر وجوه صغاري في تلك الصباحات لأنسى قدر استطاعتي آخر ساعة من الليلة الماضية وأول ساعة في الصباح في عِشرة ذلك الرجل!...

لا ادري لماذا تأخرت صفية اليوم، أريد العودة للبيت ولا

أريد المغادرة إلا بعد حضورها... صفية أو صوفيا كما تحب جود مناداتها، أثيوبية الجنسية، جاءت لصنعاء أوائل التسعينيات هربا من شظف العيش في بلدها لأنها سمعت أن الخادمات الأثيوبيات رواتبهن مجزية في اليمن، لكن لسوء حظها أنها قدمت مع ما يقارب عودة اثنين مليون يمني مغترب من دول الخليج والسعودية بسبب حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠ والتي كان موقف اليمن مساندا فيها للرئيس العراقي صدام حسين في غزوه للكويت. انقطعت بعدها المساعدات من دول الخليج لليمن خاصة الكويت وأصبحت الحياة صعبة لليمنيين أنفسهم، بارتفاع الأسعار وانخفاض سعر العملة وتدهور أوضاع البلاد الاقتصادية حتى اللحظة!...

ورغم ذلك كانت صوفيا محظوظة حيث دبرت لها بعد فترة إحدى صديقاتها العمل في بيت وزير، أقصد قصر وزير وبراتبٍ مغرٍ. كانت تقول إن عملها كان مريحا جدا فلديها غرفة خاصة قرب المغسلة، وأن كل ما كان عليها القيام به هو تنظيف القصر وغسل الملابس وكيها، أما مسئولية المطبخ فكانت من مهام خادمة فلبينية، حيث كان الوزير يقيم الكثير من المآدب في قصره لضيوف من مختلف الجنسيات. إضافة إلى مربية مسئولة عن الصغار، وخبازة يمنية للخبز والمأكولات المحلية التي تتطلبها بعض الولائم الكبيرة.

البذخ الذي كانت تتحدث عنه صفية في ولائم الوزير أو المقايل النسائية لعقيلته، لو سمعت عنها من شخص آخر لقلت انه يبالغ، لكن لم يكن لصفية أي غرض في التهويل أو المبالغة في ذلك! تقول أيضا بأن ما يُرمى في أكياس القمامة يمكنه أن يكون وجبات يومية لعائلات كثيرة لو تم حفظه وتوزيعه للمحتاجين بطريقة سليمة...

ولأن دوام الحال من المحال كما تقول صفيه أيضا: لم ينتقل بعد انتهاء فترة الوزير إلى بيته القديم من جميع الخدم غيرها! كان البيت مؤجرا عندما كانوا في بيت الوزارة، حتى يستفيدوا منه خلال فترة تواجده في منصب وزير. لا أحد يبقى في بيته من الوزراء، بيت على حساب الدولة وخادمات وسائق وحارس ومرافقين على حساب الدولة. مساكين أبناء هذه الدولة التي لا تعدل بين أبنائها أبدا، فهناك من ينعمون بخيراتها و من لا ينعمون أبدا ولو بالقليل.

أصبحت صفية هي مسئولة عن كل شيء في منزل الوزير السابق، ولما بدأت حالتها الصحية تسؤ بسبب مرض في الكبد داهمها فجأة لم ترحمها عقيلة الوزير وتخفف عنها الأعمال الموكلة إليها بل طردتها وقالت إن بيتها ليس مستشفى! اضطرت صفية بعدها للزواج من رجل يمني شعرت انه سيحميها ويعينها على

مرضها، وأيضا لن تدفع المال المطلوب منها للإقامة في اليمن فلم تعد قادرة على دفعه، وبعد أن كانت تبعث لأهلها جزءاً من راتبها أصبحت تهرب حتى من الاتصال بهم كي لا يعلموا بتدهور حالتها صحيا وماليا، لكن ما حدث لها مع الزوج كان العكس تماما، استغلها وطالبها بالعمل، بحجة أنه لن يصرف عليها ويكفي ما يصرفه على زوجته اليمنية وأطفاله منها.

تنقلت صفية في بيوت عدة لم يكن احد ليعذر غيابها المستمر وذهابها أياماً كثيرة للمستشفى لتلقي العلاج ويتم الاستغناء عنها سريعا. وجدت نفسها فريسة المرض وفريسة لزوج لا يرحم بلغ به الأمر في الفترة الأخيرة إلى ضربها دون أسباب واضحة، تفهم من كلامه أن أهله يلومونه بسبب زواجه من إثيوبية وأنه فضحهم بين الناس و سيقولون على أبنائه منها فيما لو أنجبت "مُوَلَّدون" أي أمهم حبشية. ذات مرة صرخت في وجهه وهي تقول أنها لن تنجب لأنها أصبحت غير صالحة للإنجاب، كثرة الأدوية تسببت في عقمها وهذا ما أكده لها الطبيب، ليرتاح من هذا الهم ويريحها! وإذا أراد فليطلقها ويتركها في حالها.

التزم بعد ذلك بعدم تكرار ضربها بعد أن شكته لعاقل الحارة لكنه لم يتوقف عن أهانتها وإملاء شروطه عليها في أن لا تقصر في

بيته وفي واجباتها الزوجية نحوه، كان يضاعف الإهانات إذا ما تأخرت في عملها بسبب أي ظرف طارئ، ومع ذلك كانت تتحمل هذا الغُبن، لا خيارات لها كما تقول! لذلك ستصبر!...

منذ عملها في بيت جود وصفية تشعر بالراحة. تشعر أيضا أن عملها جاء منقذا لها مما عانته. لا تهتم جود بغيابها المتكرر، إنها تعرف تعبها وتعرف أيضا أنها لا تقصر أبدا عند عودتها. تأخرها اليوم يدل على أنها لن تأتي وهناك سبب قاهر منعها، إما عقيلها أو نوبة كبد وذهاب للمستشفى. وجدتني اتجه للمطبخ لا اعرف ما يمكنني عمله للغداء، لكن كل شيء كان منظما ونظيفا وهذا ساعدني على الانتهاء سريعا من عمل الغداء.

لم أزد على عمل شوربة العدس والسلطة والخبز المحمص، أعلم أن جود تحب هذه الوجبة جدا، خاصة من يدي. قالت لي عند عودتها بأن صفية اتصلت لها واعتذرت عن عدم حضورها وقالت إن وجبة غداء اليوم في الثلاجة منذ البارحة، وتحتاج إلى تسخين فقط لكنكِ قمت بالواجب يا روضة وأكثر، هو غداء ملوكي إذا يا روضة كما كنا نسميه، وتصر والدتك على أنها وجبة الكسالى هل تذكرين؟

*****

في أعماق كل امرأة إنصات مدهش لوقع الكلمات أو الأفعال التي تحمل معنى أو تلميح من رجل! هناك أفق ممتد إلى ما لا نهاية من السعادة وربما من الأحلام التي تومض في نفس اللحظة التي تنطفئ فيها!... وكما أن هناك هروباً أول من النظرة الأولى التي تصيبها بالارتباك وتكمل دائرة نبضها، هناك شوق إلى ما بعدها أو إلى تكرارها على الأقل!... ليصبح استعباد تلك اللحظة لا يقاوم، تستلذه وتدمن عليه باتجاه سموه ورفعته في أعماقها، فقط أعماقها!... ومع مرور الأيام يتحول إلى سر من أسرارها التي لا يعرف عنه أحداً شيئاً!...

الراوية

(٢)

لم أغادر منزل جود إلا في اليوم التالي بسبب غياب صفية وبسبب رغبتي الضارية في معرفة سر مفكرتها وما تحويه. ما زلت غير قادرة على استنتاج ما تريده جود مني!!! تحدثنا في المساء عن ذلك وكما تعودنا دائما بصراحة قالت لي جود:

نعم يا روضة، أريد منك كتابة ما قرأتِهِ في المفكرة، بالصيغة الأدبية التي ترينها مناسبة، قصص قصيرة ربما، وربما رواية... تعرفين أن كتابتها من قِبلي أمر لا يمكنني أن افعله، لسبب واحد أن من وثقن فيَّ سيعرفن، وقد يفسرن ذلك بمسميات كثيرة أقلها خيانة الأمانة! هدفي أبعد ما يكون عن ذلك. أريد أن نتعلم من تجارب بعضنا البعض. أن نستفيد منها. أن لا نكرر أخطاء غيرنا وتصبح تجارب لنا لا علينا. أن أكمل رسالتي في كشف الخبايا التي تبدت لي دون بحث عنها، لا بغرض التشويه أو الإثارة أو حتى الشهرة، لكن لغرض أسمى من ذلك بكثير. لغرض مستقبل كل الصغار الذي يجب أن لا نخفي عنهم شيئا مهما كان قاسيا لنجنبهم جزءاً وربما كل ما قاسيناه. هل تفهمين ما أريد قوله والوصول إليه يا روضة؟

ثم أردفت:

قد لا تصدقين إنهن جميعا وبلا استثناء طلبن مني كتابة

حكاياتهن بل مآسيهن كما يفضلن أن يسمينها. لا أعـرف لـذلك سبباً، ولكني اعرف جيدا أن ما طلبنه شيء وان ما سيرينه قد تحقق ومن قِبلِي شيء آخر تماما. لكن أنت عندما تكتبينها يا روضة الأمر مختلف تماما، سيظل بُعدك وعـدم معرفتـك بهـن حـافزا عـلى أن تبدعي وتظهرين بشاعة واقع بعيون لا تخفي شيئا، إضـافة إلى أن وضعك الآن وبعد ما حـدث لـك مـن ظلـم وقهـر سـيجعلك تخترقين حروف كل ما كتبته بمحبـة ورغبـة صـادقة في الانجـاز حتى لو سبب لك ذلك نوعا من المشاكل مع والدك الـذي كـان رافضا أن تنشري شيئا من خواطرك الجميلة في السابق فـما بالـك برواية، وأيضا شقيقاك المتسلطان اللذان لا يعملان شيئا في الحياة غير الاستمتاع بأموال والدك والتنكيد عليك وعلى شقيقاتك!...

لم تسمع جود رأيي أو حتى تعليقي على ما قالتـه، لكنهـا واصلت بحماس شرح البِنية التـي اسـتخدمتها هـي في كتابـة محتـوى مفكرتهـا وأعطتنـي منتهـى الـصلاحية في أن افعـل بمحتواها ما أريد. وكمديرة مدرسة حازمة وبلهجة حادة كأني إحدى طالباتها حملتني مسئولية القرار النهـائي والتفكـير فـيما سأفعله، وأعقبت بصوت يشوبه رجاء: (لولاك يا روضة لن تري العقيلات النور أبدا وثقي من ذلك! من عقيلات الأمس ستتحرر عقيلات اليوم وغداً، التحرر الذي نريده يا روضة هو

حقوقنا في الحياة. احترام ذواتنا ورغباتنا من قبل الرجـل كـما نفعل معه تماما. هل تفهميني يا روضة؟).

صباحا غادرت منزل جود ومعي المفكرة الخضراء، التي لم أكن قد قرأت فيها غير العنوان! كان يلزمني التفكير في أشياء كثيرة غير تلك التي قالتها جود، أشياء تخصني وتخص حياتي، أشياء من الرغبات والمخاوف والتطلعات تحتاج إلى قـرارات حاسمة يلزم التفكير فيها قبل انهيار كل شيء!...

كيف يمكنك أن تمسك بالأفق وتطير في ذات اللحظة!...

*****

لم ينتبه أحد لعودتي للمنزل، كما لم ينتبه أحد عند مغادرتي لزيارة جود فيما عدا أمي التي أخبرتها. لن يصدق أحد مـا آل إليه أهل هذا المنزل من شتات. ليس لأن معظم ساكنيه خرجوا منه بل لأن أساس تواصلهم وهم فيه كان خطـأً، علاقـات لم يبنها الحب بل دمرها الحب، تنافس زوجات أبي بمن فيهنّ أمي على الاستئثار بقلبه جعل من أبنائه جزءاً من الصراع الخفي بين الزوجات الثلاث، لم يزرعن الحب في قلوبنا من اجل الحـب، بل جعلنه حباً مـسبباً بهـدفٍ وغايـاتٍ كثـيرةٍ، وهـذا افقـدنا الصدق في أعماقنا وتحولت علاقاتنا نحن أبناء كل زوجة عـلى حده مجرد واجب ليس إلا!...

أمر ببصري في أنحاء غرفتي وأنا أحتضن مفكرة جود، أتأمل تلك القصاصة التي علقتها على مرآتي منذ أيام دراستي الجامعية للروائي الانجليزي "أوسكار وايلد" أهدتني إياها صديقتي نجلاء في قسم اللغة الانجليزية ومع ذلك لم أفكر فيها بعمق أو حتى اعمل بها أبدا. أنا حتى لم اسأل نفسي لماذا أهدتني إياها!

(Be your self. Every one is already taken)

كان يلزمني أن أفكر فيها منذ أن كتبتها صديقتي بخط يدها الجميل واهدتني إياها. في الواقع لقد أهدتها لكل صديقاتها في الفصل بعد أن أصبحت كل واحده منهن في قسم أثناء الدراسة الجامعية. كما يلزمني أن أفكر فيها في هذه اللحظة بالذات، في هذه اللحظة التي قهرتني الحياة لأني منذ البداية بلا إرادة، وها أنا اقبل تذمرها بل صفعتها القوية على وجهي لدرجة أنها أفقدتني توازني لأدفع ثمن أخطاء غيري دون أن اختلف معهم أو أؤمن بذاتي، ولم أكن يوما نفسي أو ذاتي...

ربما كنت جزءاً من "ذات" أبي التي تسير على الأرض، يحركها كما يريد وفي أي اتجاه. وربما كنت جزءاً من "ذات" أمي التي تتباهى بإنجابها لي كأول فرحة، ليس لها ولكن لأبي!!! رغم تكرارها أنهُ تمنى لو كنت ولداً، وما كان ليفكر بالزواج من أخرى أبدا بعد شقيقتي الثالثة. وربما أنا "ذات" ملكية خاصة

لزوجي الذي أصبح الآمر والناهي في كل حياتي بدءاً بالأكل والشرب وموعد النوم ونوع القراءة وانتهاء بدخولي للحمام لقضاء الحاجة! ملكية خاصة تجعله دائم التعقب لي ولتصرفاتي، لأكلي وشربي وحتى استغراب أوقات استحمامي وتفتيش جسدي بخبث من أي علامات مباغته أكون قد تلقيتها أثناء خروجي، جعلتني مع الوقت أخشى أن اصطدم بحواف الطاولات وأخشى أن أصاب بجرح أثناء تنظيف المنزل أو أثناء إعداد الطعام، لأنها كانت تفسر باتجاه تهكمي وجارح وبغيض تصيبني بالدوار من مجرد تذكر تلك النبرة في صوته وهو يشرح أن أجساد نساء الليل لا تخلو من تلك العلامات، إنها علامات متعة لعابرين غير محترمين، لنساء بغايا غير محترمات، هكذا يقول، وببلاهة لا متناهية اقبل كلامه، حتى اعتقدت أنني إحداهن لكثرة ما ردد هذه العبارات أمامي!...

أنا في النتيجة ذات كل هؤلاء و لم أكن يوما ذاتي فهل آن الأوان لأكون؟؟؟

*****

قطعت أمي إسهابي في التفكير بصمت في محتوى ومعنى ما في القصاصة وهي تسأل فيها إذا كنت قد شعرت بالراحة في بقائي ليومين عند جود:

نعم أنت تعرفين جود يا أمي وتعرفين أنني دائما وأبدا اعشق الحديث معها. يمدني ذلك براحة وسكينة لا حدود لها، ليس من الآن فقط ولكن منذ بداية علاقتي بها في المدرسة والجامعة. هل تعرفين يا أمي أن إنصات جود للآخرين هو سبب نجاحها في علاقاتها مع صديقاتها وفي عملها!؟ إنصاتها مدهش، ينضح من وجهها هدوء وابتسامة خفيفة تجعل منك مخدرا ومسترسلا في الكلام والحديث دون ترتيب ودون إعادة... تفاجئك برأيها إذا استدعت مشكلتك أو حديثك ذلك وكأنها عاشتها معك لحظة بلحظة، لا تبخل عليك برأي أو مشورة صادقة ومخلصة، وإذا طم ألمك على قلبها وشلها عن التفكير للحظات تكتفي باحتضانك بحنان لا حدود له، لتشعر بنبضات قلبها تكاد تقفز من بين جوانحها مشاركة لك بإخلاص كل ما قلته أو حكيته أو شكوته...

الإنصات يا أمي، لم أشعر انه مهم جدا إلا بعد طلاقي. ما أروع أن تثرثر بكل ما تشعر به في أعماقك لصديقة مخلصة لا تبخل عليك برأي أو نصيحة أو مساعدة، صديقة تشعر معها بأمان ومؤازرة إذا ما اشتدت عليك وتكالبت هموم ومصائب الدنيا!!! أصبحت تجمعات ومقايل قات الصديقات التي أحضرها مؤخرا قمة في النفاق والتفاهة، مباراة لاستعراض

الملابس والذهب ليس إلا! لا تجد من تنصت لك أو تهتم بسؤالك عن حالك، أو عن مشكلتك، أو حتى يثير صمتك وحزنك وانكفاءك على ذاتك: استغرابها أو فضولها!... النصر في هذه التجمعات لمن صوتها أعلى ولمن لسانها طويل، المهم أن تتكلم لا يهم على من حتى لو كانت أقرب صديقاتها. تنزِه نفسها عن أي خطأ وما فعلنه الأخريات جريمة. تنسى الظروف التي أجبرتها على ذلك، تنسى قدرتها على الاحتمال، تنسى وتنسى وتنسى! ما لا تنساه هو دورانها حول ذاتها حتى يصاب غيرها بالدوران!...

بدأ صوتي يختنق ويتحشرج بالبكاء، تذكرت هؤلاء الصديقات في محنتي، تذكرتهن متألقات في سماعها، مندهشات من أحداثها، متخاذلات عن إسداء نصيحة أو رأي أو حتى كلمة مواساة، لدرجة شعوري أن ما حدث لي أسعدهن، مع إني لم أتخل عن أي واحدة منهن طلبت رأيا أو مشورة أو مساعدة. لم ابخل بوقت وجهد ومال! شهدت ولادة معظم أولادهن على يدي! سهرت على راحتهن في أوقات مرض عصيبة! غِرتُ على كل واحدة منهن تعرضت لمصيبة أو فاجعة مباغتة...

يا إلهي كلما فكرت في ذلك شعرت بالقهر والظلم أكثر من الذي وقع عليَّ من زوج عذبني وأهانني وأخيرا طلقني وألقى بي

خارج منزله كالحشرة، كل هذا أجده ارحم منهن بكثير، لأنه المتوقع، أما ظلمهن فهو غير المتوقع، هو الطعنة التي تباغتك من الخلف وتصرعك قتيلا في ثواني يا أمي، في ثواني!...

موجع أن يُفرح في مصيبتك. أن يُكتفى بالنظر إليك وأنت تنزف دماً لتزداد حيرتك في تفسير تلك النظرات!هل هي رحمة أم شماتة أم ود ومحبة! إلى هذا الحد هناك من يتقن صنعة التخفي، في مشاعره وكلامه وسلوكه، كيف يمكنك أن تكون قوياً رغم الألم المسيطر على كيانك، رغم البلل المستوطن لمآقيك، رغم الوهن الذي يعتريك، الوهن الذي قررت أن لا يعلم أحدٌ عنه شيئاً!...

موجعٌ وهنك وهو يتعربد في أرجائك باحثا عن منفذ خروج ليريحك ويستريح. موجعٌ وهنك وأنت تتوسده ليلاً، وتحتذيه نهارا، فقط ليذكرك كم خذلانات حصدت وكم خذلانات تنتظرك في الحياة.

تتساءل بعد هذا كيف يمكن لك الاستمرار مع من حولك من بشر صالحين، وجرحك ذاته ما زال ينزف دماً، كيف تظهر لهم أن ما كان: كان "عارضا" وأنت مصاب تقطر ألماً وحسرة. كيف يمكنك أن تتقبل الآخرين الذين لم يتقبلوك في محنتك! الذي تساوت مصيبتك في أدمغتهم مع مصائب

آلاف البشر التي يسمعون عنها ويقرؤون عنها ويلوكونها فيما بينهم كل يوم.

شعرت بالقهقهة في أعماقي في آخر لقاء لي بهن وإحداهن تلقي ندوة دينية عن ضرورة القيام بالعبادات ومجاهدة النفس لأدائها كالصلاة والصوم، ناسية وربما متناسية أن فقه المعاملات هو ما نحتاجه في زمن الفقر والجهل الذي نعيش فيه. زمن الموت جوعاً وبرداً ومهانةً وهي ترتدي طقما ذهبيا حول رقبتها وأساور حول معصمها تكفي بأن تقوم بستر عائلات فقيرة في منازل بسيطة عوضا عن عراء أرصفة الشوارع التي يستوطنونها، وتوفير لقمة العيش لأكثر من عائلة لا تجد ما تأكله. وجدتني أبصق على نفسي من سماعي لخزعبلات تفيض بمظاهر الكذب والغش والخداع ليقال عنها متدينة وعنهن ملتزمات قبل أن اردد في أعماقي: سطحية... لأن ما بيننا وبين الله أنقى وأطهر من تذكيرك الباهت لواجبات هي في صميم علاقة العبد وربه. أما الحياة فنحن نستحق أن نحياها بمعاملات إنسانية بعيدة عن الزيف والنفاق الاجتماعي الذي نعيش فيه...

نعم تبدو لي تافهة لأني اعرفها جيدا واعرف سر تحولها، علاقتها بابن الجيران الذي أحبته وقضت معه أروع ذكرياتها، كنت فيها أنا حارسة القبلات التي يسترقانها معا في غفلة من

الأهل حال لقائهما معا وهما في قمة سعادتهما. تقدم لخطبتها كما وعدها لأنها حب عمره وأمله في الحياة، لكنها رفضته لتقدم آخر طلب الزواج منها، وسيم وغني في نفس الوقت كما دلت على ذلك صورته. في ليلة الزفاف اكتشفت خداعهم لها عندما أرسلوا لها بصورة شقيقه الوسيم أما هو فقد كان قمة في قبح الشكل وذا حول في العينين... شعرتْ انه عقاب الله لها عن تلك القبل التي سرقتها ذات يوم ومتعت بها نفسها وأنها ليست من حقها، تعاقب نفسها بما تفعله من مظاهر تدين خادعة لأن ما يهمها هو المجاهرة بها أمام الناس وهي غير قادرة رغم تلك السنين على تقبل شكل زوجها القبيح لكنها قادرة على التمتع بأمواله الطائلة كما يدل على ذلك ما ترتديه من ذهب وما تسكنه من قصر فخم. ليصبح الدين وسيلة لهروبها مما هي فيه ومحاسبة نفسها وفق رؤاها هي بعيدا عن جوهر العبادات الإلاهيه والمعاملات الإنسانية.

شعرت أمي بمدى ألمي من تذكر ذلك، حاولت تغيير الموضوع، سألتني عن ما أحتضنه بين يدي؟ أجبتها إنها أجندة جود يا أمي!...

فغرت فاها ورفعت حاجبها مستغربة: أجندة جود!!!...

نعم يا أمي، أعطتني إياها لأقرأها أولا ومن ثم أقرر!

تقررين ماذا؟ تحدثيني كأني كنت معكما! لماذا لا تشرحي الموضوع بالتفصيل؟!...

شرحت لها الحديث الذي دار بيني وبين جود البارحة، لم تعلق لكنها أخذت الأجندة من بين يدي وراحت تقلب صفحاتها!...

"عقيلات"!!!

ارتفع صوتها وهي تعيد لي الكلمة باستغراب!!!...

نعم يا أمي عقيلات!...

كانت أمي لا تعرف القراءة والكتابة عندما تزوجت أبي في عام ١٩٥٥ وهي في الثانية عشرة من عمرها كالسواد الأعظم من اليمنيين قبل قيام الثورة، لكنها أصرت على أن تمحو أميتها في أولِ فصلٍ تم افتتاحه عام ١٩٧٣ لتعليم كبار السن من النساء والرجال الذي بدأ في مدينة صنعاء، قبل أن ينتشر في بعض المدن اليمنية الرئيسية.

من شدة جهل الناس في ذلك الوقت كانوا يطلقون على المدارس "نحو الأمية" بدل "محو الأمية"، تتذكر ذلك أمي دائما بمتعة لا يضاهيها شيء، وضحكة منتصر لا تفارق شفتيها وهي تبين لصديقاتها مدى جهلن في النطق والمعنى لرفضهن الذهاب معها للمدرسة! واكتفين بنشر مقولة (تُقى بتجنن)

ويقصدن طبعا أن خيارها في تلقي العلم في تلك السن وبهذا الحماس هو الجنون بذاته!!!...

جاء قرار أمي بان تتعلم القراءة والكتابة بعد أن انتهت من إنجاب بناتها الخمس وابنها الوحيد، بعد زواج أبي من الزوجة الثانية مباشرة. تقول دائما إن الله رحمها بالتعليم حتى لا تصاب بالجنون عندما تفكر أن زوجها في أحضان امرأة أخرى حتى لو كانت زوجته. أدمنت بعدها القراءة في كل شيء صحف ومجلات وكتب متنوعة، أصبحت مثقفة، تتابع الأخبار في التلفزيون وتقرأ كل جديد، تغيرت في حديثها ومعاملتها مع الآخرين، أصبح تعليمها وكثرة قراءاتها واضحة في رقي تصرفاتها وفي استيعابها لما حولها.

كانت هي السفيرة عندما تم إلحاق أبي بالسلك الدبلوماسي لمدة أربع سنوات في إيطاليا، واثقة من نفسها وقدراتها، أتقنت اللغة الانجليزية وبعض الإيطالية، أصبحت أكثر أناقة وأكثر شباباً، لم تقِّم الدنيا وتقعدها حتى وأبي يتزوج إيطالية شابة ويحضرها للعيش معه في صنعاء بعد انتهاء فترة توليه منصب السفير. وكأن الزواج الثاني هو الذي قصم ظهرها وما تبعه لا يهم مهما تعدد.

باختصار كل شيء يعجبني في أمي، ما عدا حبها العظيم

والرائع لأبي. حب وصل حد العبادة. حب جعلها لا تُعدل من آراءه أبداً، لا في تربيتنا ولا في زواجنا ولا في طريقة حياتنا. اقتنعتْ أننا بناته وهو أدرى بمصلحتنا، إننا عقيلاته وهو المتصرف في ربطنا لأي شجرة يريدها، أو أي زوج يختاره!...

لم تدر له ظهرها يوما، تخرج من حضرته وهي تنظر إليه، تجر خطواتها للخلف، تتحدث عنه بمنتهى الحب، تذكر حكاياتها معه وتتلذذ بها، ورغم أنني سمعتها مرات عديدة منها إلا أنني اشعر بالسعادة وأنا أُظهر لها روعة سردها في كل مرة وتجديدها لها أيضا حتى كدت أحفظها عن ظهر قلب، تبدأها كل مرة وتقول:

(رآني والدك وإنا أساعد جدكِ في "بقس العنب " وهو يرافق نائب الإمام أحمد في صنعاء في أحد نزهاته لمنطقة الروضة خارج صنعاء، ك"عكفي " في حرسه الخاص، شيءٌ ما جعلني التفت إليه وأبادله نظرات الإعجاب دون أن يشعر جدك بذلك. لم يمر يومان إلا ونائب الإمام يستدعي جدكِ

بقس العنب: إزالة الأوراق الزائدة في أشجار العنب قبل موسم التكاثر.
الإمام أحمد بن يحي حميد الدين، ملك اليمن الإمام الناصر لدين الله ١٨٩٥ - ١٩٦٢
عكفي: جندي

ويطلب خطبتي لوالدك بشكل رسمي، رفض جدك في البداية رفضاً قاطعاً بحجة انه "مُزيِّن" حتى لو كان عكفيـاً للنائـب وأن بنته لن تتزوج بـ "مُـزيِّن"، إلا أن النائـب وأمـام إصرار والدك أضطر لتهديد جدك بأنه سيأمر بزيادة ما يؤديه من زكاة لبيت المال إذا لم يزوجني "للعكفي" المقرب إليه والذي يهمه سعادته وراحته مقابل الخدمات التي يقدمها له!. طبعا خـاف جدك على بقية أخوتي وعلى الجوع الذي ينتظرهم وما يحصلون عليه بالكاد يكفي معيشتهم، وزوجني بوالدك.

انتقلنا بعدها للعيش في صنعاء التي كنت احلم بـالعيش فيها. لم أتوقع أن يتحقق هذا الحلـم بمنتهـى الـسهولة. عـشنا سعادة لا مثيل لها رغم تأخر حملي بك. أنجبتك بعد مرور ستة أعوام. سماك "روضة " على اسم منطقتنا وليذكر أنها أهدته شريكة حياته وأم أولاده.

قامت بعد عامين من ولادتك الثورة وبدل والدك جلـده سريعا ولا ادري إن كانت هذه ميزة أو عيباً في شخصيته ليكون

الروضة: منطقة تقع شمال صنعاء(٩ كم) وكانت منتزه صـنعاء في موسم الأعناب. تقضي فيها العائلات الغنية الـصيف. وتتميـز بثمارها اللذيذة كالعنب والرمان والخوخ والسفرجل. تغنى بطيـب هوائها وحدائق أعنابها الشعراء. والروضة أسم مشترك لعدد مـن المواضع في المحافظات اليمنية.

مع الثوار. أرشدهم عن أسرار قصور نواب الإمام وأهله التي كان يدخلها ويعرف محتوياتها جيدا. يقول أبوك أنهم وجـدوا أموالاً هائلة من الـذهب والفـضة كانـت محفوظـة ومخبـأة في صناديق في تلك القصور، استفادوا منها كثيراً في تمويل الجيش للقضاء على فلول الملكيين المناصرين للحكم الإمـامي. لـيس هذا فحسب بل انه أرشـدهم أيـضا إلى مخـابئ أمـوال قـصور الإمام في مدينة تعز بحكم علاقته بحُـراس تلـك القـصور في الزيارات القليلة التي كان يرافق فيها نائب الإمام لمدينة تعز مقر حكم الإمام أحمد. كم هو عظيم والدك يا روضة في إخلاصـه قبل الثورة وبعدها)

آه يا أمي، ماذا تريدين أن أرد على ما تقولين؟ تجـدين لـه دائماً مبرراً نقيا وصافيا وشفافا لكل ما فعله قبل وبعد الثـورة كما تقولين. هو في الحالتين لم يخرج على كونه مزايداً وانتهازيـاً وعديم المبادئ، تمسك به نائب الإمام وقربه منه وجعل له منزلا صغيراً في حديقة قصره حتى ينقل إليه أخبار كل ما يحيط به في القصر بين جنود "العُكفة"، إضافة إلى نزوله بين الناس ونقل كل ما يدور بينهم البين من تذمر لما يعانونه مـن فقـرٍ وجهـلٍ وانتشار للأمراض. كان يقول: "هذا طـائع لمولانـا الإمـام" وهذا "عاصي لمولانا الإمام"!!!

الأدهى انه كان يهدد كل من يسيء للإمام أو يتذمر بأنه سيقول للنائب لأن هذه وظيفته، وينقلب حاله عندما يطلب منه المتذمر العفو ويقوم برشوته بما تيسر له من حبوب أو مال على أن يعده بكتمان السر، وأن ما قاله ليس سوى مرارة شكوى من ضيق العيش لا تغني ولا تسمن من جوع! لا يمر يومان إلا والرجل في الزنزانة وأبي يتمتع بخيراته!...

ما كان يعجب النائب في أبي انه ذكي بما يكفي لكي لا يكتشفه أحد ولا يأخذ أحدٌ الحذر منه، كان مثل النمس في كلامه وتصرفاته وأفعاله!... إذا مر شهر ولم يوفر خمسة جنيهات ذهبية كان يشعر بأعراض مرض لا يعرفه إلا هو. يحكي ذلك بنفسه، ليبرهن لأولاده إلى أي حد كان ذكيا وألمعياً في جمع المال الذي أسس به تجارته بعد ذلك لتقيه من غدر السياسة كما يقول، فالسياسة ليست دائمة "رئيس يطلعك السماء!" و "رئيس يرمي بك الأرض!"...

عندما أصبح الوضع معكوسا بقيام الثورة عام ١٩٦٢ لصالح الثوار الذين قاموا بها، تحول بشكل مذهل في أرائه ومبادئه وقناعاته باتجاههم ليكون معهم، مع ضباط الثورة.وجد طريقة يخترق بها صفوفهم ويصل لقادتهم ويتحول إلى مرشد لتلك القصور.هكذا أسس نفسه بينهم وتولى من يومها مناصب عدة.

كان مدعيا فيها النزاهة ليصل للمناصب العليا، ومتخذا نفس الأسلوب في جمع المال واخذ عمولات يتبادل فيها المصالح مع العملاء على اختلافهم. عندما شعر بالملل من تولي المناصب في داخل اليمن تم تعيينه سفيرا في عدد من الدول. يتاجر فيها بأهم سلعة لتلك الدولة دون حياء أو خوف أو حساب لسمعة بلاده في كون سفيرها يشتغل بالتجارة، في هذه النقطة يقول: "أنا أفضل من السفير الذي يفرش شقة ويجهزها لمزاجه الخاص، ويحولها إلى وكر مليء بالعلاقات المشبوهة والسهرات البذيئة له ولأصدقائه!..." هو أدرى عموما بهؤلاء أيضا!...

لا اعرف كم عدد الصناديق المملوءة بريالات "الفرانصي" أو الذهب التي أخفاها أبي في ذلك الوقت عن الثوار واستولى عليها لنفسه، وأصبحت أساس ثروته الضخمة التي لا يعرف أحدٌ عنها شيئا ولا عن البنوك التي يضعها فيها! لكن حتى هذا وبعد أن حدثتني أمي ذات مساء عنها وطلبت مني عدم الحديث عنها لأي إنسان، تجد له مبرراً فهي ليست سرقة بل

الفرانصي: هو الريال الفرنسي المعروف باسم "ماريا تريزا": الإمبراطورة النمساوية التي طبعت صورتها على إحدى وجهي العملة وعلى الوجه الآخر شعار الإمبراطورية: نسر ذو رأسين وتاج إمبراطوري. كان تداوله مستمرا في اليمن حتى ظهور العملة الورقية عام ١٩٦٤م.

هي ما كافأ به نفسه بعد خدمة طوال عمره وتضحيته من اجل النائب والإمام، في مواقف كثيرة كاد يدفع فيها حياته ثمنا لها!!!

آه يا أمي ما الذي فعله بك ولك هذا الرجل؟ ما الذي سحرك به لتري كل عيوبه حسنات، وحسنات عظمى ذات معاني سامية ونبيلة وهي مُمرغة في الوحل والقذارة؟

ما الذي جعلها ترى في تزويج بناته الخمس دون اخذ رأيهن فضيلة تحت مسمى "البنت لا تعرف مصلحتها!" ومن عائلات لا يهمه إلا مصاهرتها لمالها أو جاهها وحَسَبِها كتعويض عن أصله الذي رفضه جدي سابقا كونه "مُزيِّن"؟

ما الذي جعلها ترى زواجه للمرة الثانية، والثالثة حق تحت مسمى "إنجاب الأولاد أفضل من البنات!"؟ رغم هروب الزوجة الايطالية الثالثة بولديه "آدم ويوسف" بعد أن كتبت له على مرآة غرفة نومها "كنوز الدنيا لن تجعلني أعيش في سجن كبير اسمه اليمن!؟" وحتى اللحظة لا يعرف عنها وعنهما شيئاً رغم محاولاته المتكررة لطلب مساعدة السفارة في البحث عنهم!؟

ما الذي يجعلها ترى من استمرار قسوته معنا بعد زواجنا وعدم وقوفه إلى جوارنا في مشاكلنا مع أزواجنا، مما جعلهم أكثر ظلما وقهرا لنا في حياة عبودية لا نعرف منها ما هو المطلوب منا ونحن غير مقصرات في شيء!؟

آه يا أمي كم تحيرينني بحبك هذا له، رغم قرارك في العيش معه

مؤخرا دون علاقة زوجية كاملة، وقبوله لهذا القرار وهو يعرف انك ما زلت في قمة أنوثتك وحاجتك النفسية والجسدية لذلك وأنك حتى اللحظة غير قادرة على نسيان زيجاته المتكررة.

جروحها لم تندمل من أعماقك رغم هذه السنين التي مرت ومع ذلك ما زلتِ مشدوهة به وبحبه أكثر من قبل! مكتفية بأجمل ذكريات حياتك معه كما تقولين.

*****

تَجرأتُ وأمي تحتضن أجندة جود ولا اعرف فيما شردتْ، على أن اسألها سؤالاً قد يبدو غبياً وربما سخيفاً من وجهة نظرها: لماذا تحب أبي كل هذا الحب؟! ولماذا لسنا مثلها في علاقاتنا مع أزواجنا وإن استثنيت حالي باعتباري المطلقة الأولى بينهن!؟

توقعتُ أن لا تجيب عليه لما قد يسببه سؤالي من جر ذكريات لا تريد استرجاعها أو حتى تذكرها! لكنها وبمنتهى الهدوء ردت عليَّ وهي مركزة نظرها في بؤرة لا أراها:

((حُب عمري، أماني الذي عشتُ حياتي كلها معه دون أن افقده أو اشعر بزعزعته في أعماقي، بل على العكس، في كل زواجٍ له اشعر أنني في أمان أكثر عندما أراه جاثياً على ركبتيه يستسمحني ويطلب غفراني لأنه يريد إنجاب الولد الذي سيحمل اسمه ويرث ثروته ويخلد تاريخه! كثيراً ما كان يُقبل يدي ويتذكر حُجرة زفافنا

ودفئها و"القزازة " التي انعكست على وجهي وجعلت مني أجمل امرأة في الكون. قضى معها أسعد أيامه وأمتع لحظاته ونشوته.

يتذكر ويقول لي بفخر أنني اشرف امرأة واطهر امرأة، عندما قررت أن احبس نفسي في غرفتي لعام كامل لمجرد أن نائب الإمام لمح لي بإعجابه بجمال وجهي وقوام جسدي أثناء تجواله في قصره، وظللت حبيسة الغرفة حتى انتهي والدك من بناء منزلنا وانتقلنا لخارج القصر!...

إهمالي لصحتي وعدم ثني قراري في الحمل الذي تكرر خمس مرات متتابعة والنتيجة خمس بنات دون أن أنال الولد الذي يريده هو حتى كدت أموت لولا لطف الله كما يقول، ورغم ذلك كررت التجربة للمرة السادسة بعد عامين فكان أخوكِ، فرحتهُ به كانت لا يحدها حد، وللأسف بعد أن تزوج عليَّ، وأراد الله له أن يكون منها بنت أيضا!...

قد يفعل الرجل أشياء كثيرة لا تعجب المرأة، تقهرها وتظلمها لكن ليس مثل التشكيك في طهرها وشرفها، وليس مثل اتهامها بالخيانة أو التلميح بذلك يا روضة! هذا هو الأمان الذي أتحدث عنه، الأمان الذي يجعلك دائما إلى جواره في سرائه وضرائه، الأمان الذي يجعله يثق فيك ويفاخر بك لأنك حرة، والحرة لا تخذل زوجها أبدا!...

القزازة: فتيل يحترق على مادة القاز.

لم يفرق بيننا، أقصد زوجاته الثلاث نشعر بهذا العدل في معاملتنا وإعطاءنا كافة حقوقنا الزوجية من حب وعطف وحنان. يشعر أن الله عاقبه لأنه تزوج مسيحية، بحرمانه من ولديه بعد أن غافلته وهربت بهم إلى الأبد!. اشعر انه سندي في الحياة. ما بيننا لا يمكن لأحد أن يفهمه مهما حكيت وعللت وبررت. إنها عشرة أربعين سنة يا روضة! أربعين سنة!...))

كأن شيئا ما أوقفها عن الكلام، زاغت ببصرها في البؤرة التي لا أراها، وجهت لي كلاما صارماً جاداً (اكتبي عقيلات يا روضة، حتى تشعري أنني كنتُ دائما معكن، حتى لو لم أقف يوما في مجابهة أبيك أو الصدام معه من أجلكن، لكن حان الوقت ليثمر الظلم والقهر عدلاً وسلاماً!..))

في الحقيقة لم افهم ما قصدته أمي بالضبط، لم أناقشها، غادرت الغرفة سريعا بحجة قيامها ببعض الأعمال! لم افهم ما عنته، لم أعطه أكثر من حقه في التفكير وعدت لمفكرة جود التي تركتُها مرمية على السرير! حاولت أن ابدأ في قراءتها لكنني فجاءة شعرت بخمول ورغبة شديدة في النوم، رغم نور الشمس الذي يعم الكون!...

كيف لك أن تبدأ من النقطة التي اعتبرتها نهايـة؟ عفوا بل كيف يمكنك أن تبدأ من النقطة التي يعتبرها من حولك نهاية؟ المعذرة، اقصد النقطة التي يعتبرهـا المجتمع نهاية؟

نهايتك أنت!...

الراوية

(٣)

استيقظتُ وأنا ارتجف، ثيـابي مبللـة بـالعرق، فمـي جـاف، لم انـدهش من وجود أمي إلى جـواري، مـا أثـار اسـتغرابي هـو وجـود أبي معهـا أيـضا وأين؟ في غرفتي!... لا أتذكر آخر مرة دخلها من ندرتها!...

(كنتِ تصرخين بأعلى صـوتك وكأنـك تتـصارعين مـع وحش في منامك: صغاري لا! أطفالي لا!... يبدو انه كابوس مــزعج، أشربي هــذا المــاء واقــرإي آيــة الكــرسي في سرك لتهدئي...) يداي أيضا كانتا ترتجفان، أنسكب نصف الماء على اللحاف قبل أن ادلق الباقي في جوفي بلا وعي أو تركيـز وأنـا أحاول أن أسيطر على رجفـة جـسدي بـسبب الكـابوس كـما فسرت حالتي أمي، وهي تنظر بغيض باتجاه أبي.

لم يكن أبي بحاجة لأن تشرح له أمي أو حتـى أنـا سـبب الكابوس الذي أفزعني إلى هذه الدرجة، هو يعرف سبب ما أنا فيه ويعرف تماما الكابوس الجاثم على صدري حتى بعد طلاقي عندما رفض الـسماح لي برؤيـة صـغاري حتـى ولـو في آخـر الأسبوع أو حتى ساعة في اليوم. يعرف تماما أنه وبعد أن رفض بقاء أبني الصغير وهو في سن حضانتي، بحُجة انه "لن يـربي ابن الناس". وهذا جعل والده يرفض أيضا رؤيتي لثلاثـتهم بعد أن فضلت بنتاي البقاء معه حتى لا تشكلان وسيلة ضغط منه لإذلالي وقهري كما شعرتا من خلال تصرفاته!...

يا الهي كم عانت ابنتاي منه ومن تحكمه وظلمه لهما! وكم تمنيت بسبب ما كان يحدث لهما من سؤ معاملة وظلم أنني لم أنجب بنات أبدا. بدا لي والدي أمامه عادلاً وهو يسمح لنا بحقوق حرمهن منها كالتعليم الجامعي، وكلاهما ينظر لهذا الأمر وفق مزاجه فأبي يقول: "تعليم جامعي للزمن الغادر وللظروف التي لا نعرف عنها شيئاً، لا للوظيفة ومزاحمة الرجال!" وحكمة طليقي التي كان يرددها دون كلل أو ملل تقول: "الجامعيات لا يذهبن للتعليم بل للبحث عن زوج!..." فلا داعي للتعليم ما دام قادراً على أن يوفر لبناته أزواجاً ومن عائلاتٍ محترمةٍ، ومستوى راق أفضل من ذهابهن للتعليم في الجامعة...

استنجدتُ في بداية الأمر بوالدي ليقنعه بأنَّ نظريته باطلة، لكنه أجاب: "بناته، وهو حر في تربيتهن!..."

ما زاد الطين بله هو ما حدث في جامعة صنعاء في تلك الفترة من عام ٢٠٠١ في كلية الطب من حادث اختفاء إحدى الطالبات وانتشار الشائعات حولها من كل جانب. كلها كانت سلبية نحو الفتاة. أبدع الناس في تخيل حكايات وقصص للمسكينة التي لا يعلم احدٌ بمصيرها. قصص لا تعرف أي خيال أبدعها ولماذا؟ ولماذا دائما المرأة هي المخطئة، بل إنها الخطيئة على حد قول أحد أئمة المساجد في خطبة الجمعة: أن النساء

حطب نار جهنم ووقودها. لا يمل هؤلاء الخطباء من تلك الصيغة ومن تكرارها، ينسون المجتمع وما يعانيه من فقر وجهل وفساد في كل مصالحه الخدمية،ويدخلون في دائرة المرأة والاهتمام بتفاصيل لبسها وحياتها ومعاملتها وصولاً إلى تهذيب حواجبها وصبغ شعرها، وكأنها سبب بلاء الكون. جعلوا اغلب المجتمع من البسطاء يدور حول تلك النقطة ويسبب الكثير من المشاكل الاجتماعية حتى جثم على صدره الجهل بما عدا تلك النقطة وأصبح غير قادر على التطور والتفكير في الحياة بشكل أفضل ليعيش، فقط يحارب ويلعن ويبحث عن المرأة! ...

اختفاء الفتاة الجامعية سببه في إحدى الشائعات: أنها هربت مع حبيبها أو عشيقها الذي رفض أهلها تزويجها به!... شائعة أخرى: أنها هربت مع أستاذها الذي كان يغازلها في المحاضرات. شائعة ثالثة ورابعة وخامسة كلها بنفس الاتجاه، إلى أن حدثت مفاجأة لم يتوقعها احد عندما اختفت فتاة أردنية أيضا في ذات الكلية، وكان موقف عائلتها مغاير تماما لما فعلته عائلة الفتاة اليمنية. عائلة الفتاة اليمنية اعتبرت اختفائها عاراً وخشيت أن تكتشف سبباً يودي بها للعار أو الفضيحة، وحكموا على ابنتهم التي يعرفونها والتي أحسنوا تربيتها و كانت مثالاً للأخلاق بظنون وتهيؤات جعلت منها تدخل ظلماً في قفص الاتهام. وحيدة إلا من رفقة براءتها التي لا يعرفها غيرها.

أم الفتاة الأردنية ذهبت بنفسها وبحثت وفتشت حتى توصلت إلى سبب اختفاء ابنتها و إلى سبب موتها ووجود جثتها في مشرحة كلية الطب وأن الفتاتين كانتا ضحية لأمين المعمل الذي كان يجهز الجثث للتشريح. لا احد يعرف الأسباب التي دفعته لقتلهما. سرت شائعات كثيرة عن الموضوع وعن ضلوع شخصيات كبيرة فيها، وعلاوة على ذلك أخبار عن تسريب أو بيع جثث لنساء كانت تصل لمشرحة كلية الطب من سجن النساء ومن المباحث الجنائية وكلها تشير إلى وسائل لا أخلاقية في استخدام تلك النساء بطرق مختلفة في الدعارة لهؤلاء المسئولين في الدولة، وعن وعن.. وعن... بلغت الشائعات حداً اختلط فيه الحابل بالنابل أمام جهل مروجيها وعدم استيعابهم لمخاطر ما يروجون له عن المجتمع!...

كانت النتيجة أن هناك عدداً مهولاً من الفتيات حُرمن من الدراسة في الجامعة بسبب هذه الحكاية التي تم التعامل معها من منطق العيب والإثم وشدة خوف العائلات على بناتهن دون البحث عن الأسباب أو عن التصرف المستقبلي لتفادي كل ذلك واعتبار ما حدث تجربة نستفيد منها بالتوعية لا بالقمع والحرمان.

تذكرت سلبية أمي وهي لا تتدخل في تربية أبي لنا، لذلك فعلتُ عكسها تماما، في تأمين مستقبل إبنتي "سارة وأروى"

ولو بأقل القليل، ساعدني في ذلك كثرة انشغال والدهما في أمور لم نكن نعرف عنها شيئاً غير أنها عمله الذي يقدسه...

إنه حتى اللحظة لم يعرف أن ابنتيه أنهتا دراستهما الجامعية وبتفوق أيضا. وفي كل عام كنت أتمنى أن لا يحضر لهما خُطاباً فتحرمان من التعليم، لذلك لم أكن اخرج برفقتهما رغم كثرة الولائم التي كنا ندعى لها وأيضا عدم رؤية من يزورنا لهما إلا نادرا.

ساعدني أيضا شروط والدهما التي كانت أصعب من أن تتوفر في عريس من البشر، فجاء رفضه لخُطابهن نعمة من الله ليكملا تعليمهما وبهدوء.

هو لا يعرف أن ابنته الكبرى "سارة" لديها ليسانس آداب في علم الاجتماع، ولا يعرف أيضا أن الوسطى "أروى" لديها بكالوريوس تجارة في إدارة الأعمال، أنهتها منذ عام وان كلتيهما تعملان في البيت عن طريق الانترنت، ترسلان أعمالهما وبحوثهما وتكسبان أيضا مبالغ مالية... لا تنتظران العريس الذي لا زال يُفصله كثوبٍ يأتي على مقاسه هو ويلائم شروطه هو أما هما فلا يهم، إنهما كما يقول "مكالف " والمكالف تكلف وستكلف من يريدهن!...

كلتاهما لم يفاجئهما أمر طلاقي التعسفي والظالم في

مكالف: نساء

نظرهما، هذا أفضل لي مما كنت أعانيه إلى جوار والدهما من أجلهن ومن أجل أخيهن الصغير " نشوان" الذي لم يتعد الرابعة عشرة بعد! شعرتا أيضا بفخر لأن اكتشاف أمر إكمال تعليمها الجامعي كان سبب طلاقي للمرة الثالثة التي لا يمكن لي العودة لعصمة والدهن! مقارنة بالأسباب التافهة التي طلقني بسببها فيما مضى الأولى عندما عاد من رحلة عمل فاشلة ولم يجدني في المنزل أثناء زيارتي لأمي، قال بهدوء (أبقي حيث أنتِ، أنتِ طالق!...) أما الطلقة الثانية فكانت لسبب أكثر تفاهة، أكاد انفجر من الضحك وربما القهر كلما تذكرت وجبة الدجاج التي أعددتها بالفرن ولم تكن ناضجة تماما، وكانت سبب طلاقي لأنها دليل إهمال وتأمر على تخريب صحته التي يحافظ عليها، ويقوم بفحوصات طبية نصف سنوية في أكبر وأفضل مستشفيات سويسرا.

هل هناك ظلم أكثر من ذلك؟؟؟؟

اكتشف عن طريق الصدفة البحتة، عندما تقدم لخطبة سارة أحد أبناء أصدقائه واخبره أن إعجابه زاد بها عندما قرأ اسمها على شبكة الانترنت بعد حصولها على جائزة دولية كأفضل بحث تم نشره في مجال حقوق الإنسان!...

ظهر الوالد الصارم أمامها كالغبي الذي لا يعرف شيئا عن

ابنته، قبل أن يعتذر لها عن عدم قبوله لطلب خطبتها. ثارت ثائرته ولم يرتح إلا وقد أخبرناه ثلاثتنا ما كنا نفعله لمدة ٥ سنوات منذ دخولها الجامعة حتى أنهتا تعليمها، وبعد أن عرف كامل التفاصيل لم يستطع كبح جِماح غضبه وشعوره بالإهانة من عدم تنفيذ أوامره بل وتحديها بعمل عكسها، وألقى في وجهي يمين الطلاق أمامها ليرتاح وينتقم مني على عصيان أوامره!...

لذلك أعتقد أن ما جعل أبي يتصرف بذلك العنف تجاه أولادي هو شعوره بأن زوجي تعدى مكانته وأخذ استشارته وطلقني دون سبب جوهري، ورمى بي في بيته حتى دون السماح لي بجمع ملابسي وأشيائي الخاصة لأنه هو الذي احضرها لي، وأيضا لأن والدي في هذا الطلاق لن يستطيع أن يعيدني إليه رغما عني كما فعل في فترات حنقي المتكررة وأيضا طلاقي للمرتين السابقتين...

لم ينصفني ذلك الزوج يوما وأنا أطالب بحقي في أن يعاملني كإنسانة لها حقوق وعليها واجبات، لها رغبات وأمال تريد تحقيقها في نفسها وبيتها وعائلتها وليست ماكينة إنجاب فقط، ووسيلة متعة...

أثناء ولادتي لصغيري لم يتوقف النزيف (نتيجة الحالة النفسية السيئة التي لازمتني خلال فترة حملي من معاملته السيئة)

إلا باستئصال الرحم، ورفض التوقيع على إجراء العملية لأنه يريد المزيد من الأولاد، وعندما اخبروه أنني بدأت افقد الوعي أضطر مكرها للتوقيع، ولولا صفقاته وعمله المستمر مع والدي والذي يدر له مبالغ خيالية ولا اعرف طبيعة هذه الصفقات المشبوهة حتى اللحظة، لما وَقَّع على كشف المستشفى، ولولا اكتفائه أيضا بما وصل إليه وبما جمع من ثروة لما طلقني، وهذا هو ما أثار حفيظة أبي وحنقه وليس طلاق ابنته.

آه لو يعرف كل الناس أن أساس ثروتك يا أبي باطل، وانك تحيا في عالم من الحرام في ظل ثروة استوليت عليها وكافأت بها نفسك في حين أن ما كنت قد حصلت عليه كان كافيا لتحيا حياة كريمة وشريفة وتحظى بسمعة تفتخر بها ويفتخر بها أولادك...

دار في بالي كل هذا وأبي واقف إلى جوار أمي يتطلع إليَّ دون اهتمام وكأني كرسي في الغرفة، موجها كلامه لأمي بضرورة تناولي لأقراص منومة أو مهدئة حتى لا تسوء حالتي لأن صراخي كان مخيفاً، قبل أن يغادر الغرفة لا اعرف إلى أين!... عرفت من أمي لاحقا انه كان ماراً فقط من أمام حجرتي باتجاه حجرتها عندما سمع صراخي، وهذا يعني أن زيارتي والاطمئنان عليَّ لم تكن من ضمن برنامجه لولا الصدفة.

ليس هذا فحسب بل أن سبب زيارته الرئيسي هو زيارة

ولديه ومواصلة رجائهما بمساعدته في العمل بعد أن بدأ يكبر ولم يعد قادرا على السفر والقيام بالصفقات، وبالتأكيد سيعدانه وسيخلفان مثل كل مرة، لا ينقصهما شيء، كل شيء متوفر وبكثرة، المال، الزوجة الأبناء، فلماذا يتعبان ويكدان دون حاجة لذلك؟ لا يحترمان العمل كقيمة في حد ذاته وأنه ضرورة لتجديد حياتهما واثبات نجاحهما في الحياة. ومثل كل مرة يزورهما سينتهي به المطاف إلى الاستسلام والرضا باستمرار إشرافهما على بعض أعماله ليعرف الناس أن لديه أبناء مهتمين بمتابعة أعماله والخوف على مصالحه. مظهر اجتماعي ليس إلا!...

*****

بالفعل ربما هو كابوس، بُعدي عن أولادي ليس سهلا أبدا أبدا، افتقدهم بشكل مخيف، وما تحملته من ظلم وسوء معاملة كان من اجلهم ومن اجل البقاء إلى جوارهم، كان ما يفعله بي والدهم طيلة حياتي معه أكثر من الظلم، يهون كل العذاب والمهانة وسؤ المعاملة، أمام الصباح الذي سأفتح عينيَّ فيه لأراهم غارقين في نومهم دون منغصات. كان كتماني للحظات أريد أن يسمع فيها صراخي الكون، من اجل أن لا يحدث ما يقطع عليهم أحلامهم الوردية الرائقة التي أتخيلها تمر في أدمغتهم الملائكية في لحظات سوداء كئيبة وحزينة ومخزية تمر بها أمهم.

اللحظات التي اقضيها معهم نتحدث ونضحك ونلعب،

كانت هي حياتي، أعدت معهم فترات دراستي وهم يلتهمون كتبهم خلال أعوام دراستهم، كان تفوقهم يعوضني عن حرماني من الحب ومن الحنان من زوج كنت لديه وسيلة متعة فقط!...

وبدلا من أن يكافأ ابنته الكبرى وفرحته الأولى بدخولها الجامعة وباختيار كلية تفضلها كنتيجة طبيعية لمعدلها العالي، حرمها من التعليم وانساق وراء أراء ظالمة تُحرم وتُجرم كل شيء. وبدلا من أن يفتخر أيضا بما وصلت إليه ببحثها الذي حصل على جائزة، وهذه الجائزة قادت إلى عريس ذي حسب ونسب كما كان يتمنى، عاقب أمها التي ساعدتها على تحصيل العلم بالطلاق وبرفض العريس التي كانت قد بدأت تميل له دون أن تعرفه، لكن يكفي انه لا يمانع من نشر أبحاثها التي أعجبته وكانت سبب التفات انتباهه لها والتقدم لخطبتها! إنسان بهذه العقلية جدير بالاحترام والتقدير!...

آه كلما فكرت في ذلك شعرت برأسي يكاد ينفجر، ودائما ما اسأل نفسي ما الذي جعلني أتحمل كل ذلك من زوجي!؟ هل هو الخوف الذي زرعته أمي في أعماقنا منذ صغرنا من أبي وان طاعته يجب أن تكون عمياء باتجاه واحد ووحيد فقط، دون تذمر! هل هو المجتمع الذي تمارس فيه المرأة كافة حقوقها على أنها زيادة نعمة من الرجل وللرجل ليس إلا!...

ولماذا لم أُعلم بناتي أيضا أن يقلن "لا" للظلم الذي

حدث لهن من حرمان الدراسة والمجاهرة بها وبذكائهن وتميزهن فيها! هل خشيت أن يتم حبسهن في غرفة لمدة أيام كما فعل معي أبي ذات يوم؟ هل أردت لهن الحياة بهدوء واخذ حقوقهن بهدوء دون أن تتأثر نفسياتهن كما حدث معي حتى اللحظة التي انهار فيها كل شيء جميل في أعماقي!؟

لم يكن زوجا رومانسيا كما حلمت وتمنيت، فشلت كل محاولاتي في جعله يهتم بشؤوني الصغيرة، كان يسخر مني وأنا أعطر الجو برائحة الفل، واستقبله على ضوء الشموع وأنغام الموسيقى الناعمة في غرفة نومنا الضخمة بحجمها والفاخرة بقيمتها والتي تحولت مع مرور الزمن إلى غرفة تعذيب ليلي يمارس فيها كامل متعته متجاهلا مشاعري ورغباتي ومتعتي التي لا أعرفها حتى اللحظة رغم أني سمعت عنها كثيرا من أحاديث نساء أصدقائه اللاتي فرضهن عليَّ وأجبرني على تلبية دعواتهن.

دعواتهن تلك التي كنت أبدو فيها كالبلهاء وأنا أجدُ اختلافاً كبيراً بيني وبينهن في التفكير وفي طريقة العيش، لا أعرف من الصح ومن الخطأ، أنا أم هن! لكن في كل مرة تتكرر نفس المواضيع ونفس الأحاديث وندور في نفس الدائرة: ما يدور في غرفة النوم ولو بشكل عام، إلى ما يدور في المطبخ، إلى ما يدور في المحلات التجارية!!!

ولعل أغرب تعليق سمعته من إحداهن وأخذ مني وقتاً في

التفكير هو قولها: " الرجل يريد زوجة لها مواصفات المومس، تشتهيه ليلاً وتداعبه، تدربه وتتفهم خجله. تتحمل ثورته في الصباح عندما يؤنبها لقلة احترامها له في الليلة الماضية ولا يفاجئها طلبه ذات الشيء في كل ليلة".

أشعر أن كثرة قراءاتي أثرت في طريقة تفكيري وفي تعاملي مع الناس ومع الحياة، كنت أبدو مختلفة عنهن وأنا أناقش مواضيع عده أحاول أن ادمجهن فيها وأشركهن ليشعرن بقيمة وجودهن ويساهمن في المجتمع الذي يعشن فيه ولو بوعي وتعليم أبنائهن.

أناقش معهن ما لا يخضن فيه من أمور الدين لأحرض فيهن السؤال والتفكير الذي يقود إلى الحقيقة والى ثبات المعتقدات وإدراكها لا إلى الإلحاد أو الخروج عن الملة كما يفسرنها. كل هذا دون فائدة، سطحيتهن كانت قاتلة حتى لو تباهت كل واحدة منهن بأنها تقرأ وأنها أحضرت آخر الروايات من أخر سفرة لها، أو طلبتها بالانترنت ووصلتها طازجة من دار النشر إلى بين يديها!. والنتيجة فلل كبيرة وضخمة بمكتبات وكتب للزينة ليس إلا!...

أهرب من هذا كله بالخيال وأنا اعلم انه أصبح مرضاً يلازمني ولا استطيع التغلب عليه أو الهروب منه إلا إليه!

الخيال الذي يعيدني إلى الرجل الذي رفضه أبي دون سبب غير احتمال قذر: أن أكون على علاقة به، لأنه أخو صديقتي، عاقبني من اجل شكه بالحبس كأني حيوان لديه، دون أي مبرر ودون أي سبب. ومع ذلك العقاب القاسي والمهين لم يستطع أن ينزع أبي من أعماقي ما زرعه الحبيب العابر في حياتي من رومانسية تلك الساعات القليلة التي كنا نقضيها معا، لتصبح أحلام اليقظة هي منفذي الوحيد للحياة كما هي الآن أملي في الآتي الذي حتى لو لم يتحقق منه شيء.

لا اعرف ماذا فعلت به الحياة وأين انتهى به الترحال، إلا أنها مشاعر ولحظات اقضيها مع ذاتي لا توصف أصل فيها ذروة النشوة السرية التي لا يعرف أحدٌ عنها شيئاً بمجرد مرورها على مخيلتي، من كلماته الرومانسية ولمسة يديه الحانية ونظرات عينيه الدافقة بالحب وبالرغبة التي لم يعبر عنها يوما بغير ذلك، في حين أن أحلامي فاقت ذلك بمراحل.

*****

للمرة الأولى وأنا في غمرة الكابوس كما قالت أمي، والقلق الذي يجب أن اخذ له حبوباً منومة أو مهدئة كما نصح أبي وبكل ثقة وعدم شعور بأدنى ذنب تجاهي وتجاه ما فعله بي، شعرت بقوة داخلية غريبة، قوة نابعة من أعماقي، قوة مُبشِرة

بثورة لا اعرف ما هي أو كيف سأنفذها؟! لكن أبي في هذه اللحظة، أبي تلك الهالة العظيمة التي كانت ترعبني بمجرد مرورها في مخيلتي، شعرت به أمامي كأنه كيس كبير منفوخ وان دبوساً صغير يمكن أن يجعل منه خرقة بالية.

شعرت بأن الحقائق التي نعرفها، عفوا اقصد الفضائح التي نعرفها عن الآخرين تجعل منا أقوياء أمام أنفسنا حتى لو لم نصارحهم بما نعرفه عنهم! يكفي أن تقاطعنا معهم يكون باتجاه ايجابي تتعزز من خلاله ثقتنا بأنفسنا وبصحة كل ما يعتمل في أعماقنا لنتعامل به مع محيط صحي نؤثر ونتأثر به.

لم أكن اشعر برغبة في الانتقام من أبي، ولم أستطع يوما تحديد شعوري تجاهه، هل هو حب أم كره أم خوف؟ لا أبحث الآن عن إجابات لم تعد مجدية واشعر برغبة في الخروج من هذه الدائرة بعملٍ ما يجعلني راضية عن نفسي، أحقق به ذاتي، اشعر به بقيمة وجودي بعد كل ما عانيت. لكن ما هو هذا العمل؟

هل أعود للوظيفة التي حرمني منها الزوج بدون سبب، رغم بعدها عن تخصصي الجامعي؟! أم ابحث عن وظيفة أخرى؟ ولو فعلت هل سيوافق أبي عليها أولا و شقيقيَّ ثانيا باعتباري امرأة مطلقة وخروجي من البيت بحجة الوظيفة أمر

فيه نظر. وربما يحدث ما هو أسوء من ذلك ويؤثر عليه أصدقائه الذين يسمع كلامهم بشكل لم استطع أن أفسره، شلة، أعتبرهم أنا من الفاسدين في تعاملهم التجاري واستغلال وظائفهم لتسهيلات أغراضهم الشخصية. مليونيرات لكنهم أمراض نفسيون لا يتحدثون أثناء لقاءاتهم برفقة كؤوس الشراب المتنوعة من الكحول إلا في الجنس وفي النساء.

سمعتهم ذات مرة أثناء مرور عابر من أمام صالون الاستقبال دون أن يشعروا بي لأصل غرفة نومي، شعرت بعدها برغبة في التقيؤ ولم انم طيلة الليلة من الخوف والرجفة التي ربما ذكرتني بعذاب ليال لن تتكرر لكن تأثيرها لم يُزل بعد من أعماقي!...

يا الهي كيف يحول الطلاق حياة المرأة في مجتمعنا! كيف يجعل منها نكِرة لا وجود لها! وفضيحة يتحدث عنها الأهل باستحياء! في الوقت الذي تحتاج فيه للمؤازرة والوقوف إلى جانبها لتبدأ حياة جديدة، إلا أنها تجد تلميحات من كل محيطها بأنها المسؤولة عن الطلاق، وكان عليها أن تتحمل المزيد من الإهانات من اجل صغارها حتى تموت!...

نعم هذه هي الحالة التي لن يتحدث عنها احد. وكأن عليها أن تموت ولا تطلب الطلاق في قوانين ظالمة وفاحشة! الأدهى من ذلك والأَمَّر هو نظرة المرأة للمرأة في هذه الزاوية: فالمتزوجة ترى

المطلقة على أنها ناقصة اجتماعياً، وأنها بطريقة أو بأخرى سبب ما آلت إليه! لا تبحث لها عن مبررات لرفضها الحياة إلى جانب رجل لم تستطع التفاهم معه أو الوصول لحلول وسط في الحياة معه. تنسى أن الطلاق في حالات كثيرة هو رحمة وإلا ما كان الله شرعه!

لماذا عندما نختلف مع من حولنا نحولهم إلى أعداء!؟ في حين أن اختلافنا رحمة للاستمرار في الحياة معاً!؟...

حال خروجهما أبي وأمي من حجرتي نهضت باتجاه الدولاب الذي خبأت فيه أجندة جود، فتحتها وبدأت اقرأها بحماس كبير يوازي تلك القوة الغريبة التي في أعماقي ولا اعرف سببها!...

فكرت مجدداً في كلامها وفي طلبها مني أن اكتب رواية عن عقيلاتها، نعم رواية لهن ليصبحن أكثر معرفة وأكثر قوة وأكثر قدرة على تحديد مصيرهن! هكذا أعتقد، لأن من لا يستفيد من تجارب وربما مصائب الآخرين هو غبي بالدرجة الأولى...

بدت لي الفكرة في بدايتها وسيلة من جود لأخرج من الحالة التي أنا فيها، لكنني الآن اشعر كم كانت جود صائبة وهي ترمي لي بالطعم الذي سيغير حياتي دون أن تقول لي ذلك! الطعم الذي سيجعل مني إنسانة أخرى غير تلك التي كانت مهزومة وانهزامية في نفس الوقت. ربما أرادتني أن أصل إلى الدرجة التي وصلت

إليها من تغيير وقلب موازينها وتمردها على ما سبب لها ظلما كبيرا رغم مثاليتها وحفاظها على عادات وتقاليد مُجحفة لم تحاول أن تغيرها، لكنها تفانت فيها وفي أن لا تُغضِب أحداً حتى قررت ونتيجة لحادثة لم تخبرني بها حتى الآن أن تستقل بحياتها وبمشروعها وبأملها ضاربة بكل ما سبق عرض الحائط.

سألت نفسي لماذا توقفتُ عن الكتابة؟ وكيف استطاعت جود أن تعرف أن هذا هو المَخرَج لي؟ هل لازالتْ مقتنعة بقدرتي على الكتابة من أيام المدرسة، هل لا زالت عاشقة لكتاباتي وأنا اقرأها لها في حديقة منزلها أو منزلنا في عصاري أيام مراهقتنا حتى افترقنا؟

الكتابة، لماذا لم انشر كل ما كتبت؟ لماذا أعدمت كل أوراقي وأجنداتي حال زواجي؟ كأني اعتبر أن ما سأبدؤه هو حياة جديدة نقية لا علاقة لها بما مضى وكأن ما مضى كان جريمة، في حين انه عالم من الطهر والنقاء مُدَوَّن بحروف من الصدق والصراحة والبراءة.

لماذا يعتبر المجتمع أن ما تكتبه المرأة هو جزء من حياتها وتجاربها واقل لفظ مثقف ومهذب يمكن أن يقال عن كتاباتها إنها "نشر غسيل" في حين يكتب الرجل ما يشاء ويُعتبر تاريخاً من حياته وحياة مجتمعه، تتوالى عليها الدراسات النقدية والمؤتمرات ويأخذ عليها الجوائز وينال بسببها الحفاوة والتكريم أينما ذهب؟...

نشر غسيل: عرض للفضائح

تحكي إحدى عقيلات جود التي قرأتها بشكل عارض في أجندتها وهي كاتبة مرموقة ومثقفة: (أن الرجل عادة لا ينسجم مع المرأة المثقفة أو الكاتبة ولا يسعى للزواج منها إلا فيما ندر، يعتبرها تجربة يثبت فيها أنه إنسان حضاري ومتمدن وأنه قادر على الحياة مع امرأة تجادله وتحاوره. تتفق وتختلف معه. تنشر صورها في الجرائد ويراها الناس على شاشات التلفزيون. بعد فترة يشعر أن ما فعله هو إخلال بمنظومة المجتمع الذي تربى فيه وأصبح هو جزء من منظومته وأنه لا يريد أن يؤسس لشيء كهذا خارج عن قناعاته، ومن هنا يبدأ الصراع ففي الوقت الذي يتيح لنفسه مساحة واسعة من الحديث مع زميلاته وتبادل الآراء والنكات القبيحة أحيانا، يحرم عليها وبشدة الحديث مع زملائها وأكثر من ذلك إن كانت كاتبة فيطالبها بالامتناع عن الكتابة في مواضيع كانت تثير إعجابه بها وبجراءتها قبل الزواج بها كانتقاداتها وسخريتها لظواهر سلبية في المجتمع أو تعبيرها عن مشاعر خاصة كونها استخدمت "أنا المتكلم" في خطابها.

تبدأ لاءات كثيرة تنزل عليها كمطرٍ باردٍ يزيد من رجفتها وشعورها بعدم الأمان وبالإهانة أحيانا وهو يقول لها اكتبي في كذا ولا تكتبي في كذا، دعي المواضيع الساخنة لغيرك لأنك زوجة فلان. تحتار ما الذي يمكنها أن تفعله وكيف تتعامل معه وتقنعه:

أن هذه مبادئها في الحياة وفي تغيير سلبيات المجتمع باتجاه الحياة العادلة التي تريدها لها ولصغارها ولكل من حولها؟ كيف تتعامل معه وهي لا تريد الوصول إلى أن تكون مطلقة ويقال عليها مثقفة مطلقة وهذا حال معظم المثقفات في بلادنا "مطلقات".

تذكر حضورها لندوة مهمة عندما سمعت روائياً عربياً مشهوراً وناقداً مهماً يتحدث عن روائية بمنتهى الصفاقة فقط لأنها كتبت نصاً روائياً جريئاً وان زوجها يستحق أن يصنع له تمثال كنصير لحرية المرأة لأنه سمح لها بالنشر!... في حين أن له كتابات أكثر جرأة مما كتبت ويعرف تماما أن ما كتبه ليس بغرض الإثارة أو الشهرة، لكن للكاتب مآرب أخرى أكثر سموا ورقيا من السطحي الذي يراه البعض، فلماذا ينتقدها إذا وهو يعي كل ذلك.

هذا هو الوسط العفن للمثقفين والمبدعين، هذا هو التناقض الدنيء في سلوكهم وأرائهم في المرأة. يَدَّعون التحضر وأرجلهم في الخرى، يدعون تشجيعهم للمرأة وهم أكثر من يمارس عليها الظلم والقهر والقمع.

وأخيرا تقول: اشعر بالملل وربما القرف من الحياة بتلك الطريقة التي حاولت إثبات ذاتي فيها ومكانتي وأرائي على حساب صحتي ونفسيتي وعائلتي دون أن يفهم أقرب المقربين إليَّ وأيضا المجتمع ما أريد!

بعد طلاقي من الزوج المثقف أتمنى لو أجد رجلا عكسه تماما، رجلا لا يعرف من الثقافة شيئا. رجلا يجعلني عقيلته التي لا تغادر المنزل أبدا لا: للوظيفة ولا: للكتابة ولا: للسفر فقط يشعرني أنني امرأته المرغوبة والمعززة والمكرمة في منزلها دون إثبات الذات الذي يسبب لي المزيد من الدمار يوما بعد يوم.

لا اعرف إن كان ما تقوله هو ما ستفعله لأنها في حالة نفسية سيئة من جهادها وعراكها المستمر خارج وداخل منزلها دون أن تجد ذلك المثقف إلى جانبها بل انه عبءٌ إضافي لها!...

أتذكر أيضا ما قرأته للروائية نادية الكوكباني عندما سُئلت عن كون روايتها ((حبٌ ليس إلا!...)) سيرة ذاتية أم لا بقولها: ما لم أكتب على الرواية سيرة! فهي ليست كذلك، وفي نفس الوقت أنا لا أكتب من فراغ ولدي تجربة في الحياة. تجربة أعتز بها، تجاوزت من خلالها النظرة الضيقة في اعتبارها خاصة على أمل أن يتجاوزها القارئ ذلك بهدف سامي ونبيل أنشده منها ليس إلا!...

بحثت عن الرواية بعد ذلك ولم افلح في الحصول عليها من السوق، وسألت بعض صديقاتي أيضا لم يقرأنها ولم يسمعن أيضاً بروائية يمنية اسمها نادية الكوكباني في حين تتابع بعضهن وباهتمام ما يصدر من روايات عربية وعالمية أيضاً حتى لو بحفظ الأسماء.

مسكين الكاتب اليمني حتى في بلده "مفقود، مفقود مفقود..." كما تقول أغنية عبد الحليم حافظ.

وأخيراً وجدت الرواية لكن في موقع الكاتبة على الانترنت وسحبتها نسخة ورقية وقرأتها بمتعة هائلة وبتلصص أكثر من أي قارئ آخر! وجدتني رغماً عني انقاد لها، واحلل وأفكر بشخصية البطلة ولماذا أرادتها الكاتبة بهذا الاستسلام وهذا الخنوع للظروف؟ ربما أرادت أن تقول بأن هذا هو حال المرأة في المجتمع اليمني أو الغالبية العظمى مهما وصلت من مراحل التعليم!...

ألهذا جعلت نهايتها مفتوحة لتقول وتفعل وربما تتمرد على كل ما سبق!. ما لم أستطع فهمه هو لماذا جعلتها امرأة خالية من العيوب، ممتلئة بالنقاء والطهر والخير! هل لتقول في النهاية المفتوحة بأن كل هذا سيتغير وأن الحياة بحاجة إلى قليلٍ من التمرد على باطلها، والى عراك والى اختلاف ندفع ثمنه نحن قبل أي إنسان آخر، في الواقع هناك أشياءٌ كثيرة لم تقلها الكاتبة واعتمدت على استنتاجات لقارئ يعجبها تلصصه لأنه يقود للسؤال الذي تريده مؤثرا وفاعلا فيه... وجدت هذا طبيعي مادام الكل يقرأ ويتلصص ويسمح لنفسه أن يحاكم الراوية، لا يحاكم العمل وربما هذه هي نقطة الخلاف التي عنتها الكاتبة بإجابتها.

هل لهذا لم تُرِد جود أن تكتب رواية عقيلاتها؟ هل خشيت تلصص القُراء إلى هذا الحد أم خشيت شيئا آخر لا اعرفه؟ وان كان كذلك فما أعلنته جود من طريقة حياة رغما عن كل من قال لها "لا" لا يدل على أن يكون هذا هو تفكيرها! هل اكتفي بما قالته لي في آخر لقاء: (لولاك يا روضة لن تري العقيلات النور أبدا وثقي من ذلك!) أم أعاود سؤالها من جديد عن السبب؟ أم اقترح عليها أن تكون الرواية عملاً مشتركاً لكلتينا؟ أم أفكر في الأمر من جديد؟ لا يهم الآن كل هذا، المهم الآن أن اقرأ "عقيلات" جود ولكل حادث حديث كما يقولون!...

*****

سنتعثر بالنساء في كل صفحة وربما في كل سطر المهم التقاط ما تعثرت به لا ركله وهو أضعف الإيمان!...

الراوية

(٤)

كنت قد انتهيت من قراءة ما كتبته جود ومع ذلك لم أغادر حجرتي لمدة يومين... سيطر عليَّ شعور لم استطع استيعابه أو إيجاد تفسير له حتى وأنا أجيب على أمي باني بخير ولـدي مـا يشغلني لا غير!...

كان شيئاً غريباً ذلك الذي أصابني، أتذوقـه لأول مـرة، أدركه ولا أستطيع تفسيره رافقه وجوم يفوق أي صدمة يمكن أن يتلقاها بشر، صور متلاحقة لجود وعقيلاتها، لحياتي وحياة أطفالي، لأبي وأمي، لشقيقاتي، لشقيقيَّ، للكووون!...

هل مر أحـدكم بلحظـة كهـذه ليفسرها لي؟ هـل كـان أحدكم مركزا لدائرة تلف حولـه وهـو ثابـت حتـى أصـابته بالدوران! مركزاً لدائرة لا يرى محيطها لشدة بعدها عنه وقربها منه في ذات الوقت!...

هل مر أحدكم بلحظة انقلاب لا يعرف موقعـه! هـل في نفسه أم في العالم من حوله؟ ربما شاهدتم هذا المنظـر في فـيلم! وربما أنا لشدة تأثري بوقع هذا الفلم الذي لا أتذكر متى رأيته أدركت هـذه اللحظـة؟ لكـنكم لـن تـشعروا بمـداها إلا إذا استوطنتكم في تلك اللحظات التي يخشى المرء أن يستيقظ فيها لأنه لا يعرف هل سيكون هو أم شخص آخر!...

ربما أنا وعن وعي تام أدرك أنـني في اللحظـة ذاتهـا التـي حدثت لجود وكانت مسار تحول في حياتها! الحادثة ذاتها التـي جعلتها تقرر أن تكون جود التاج بمشروعها الذي اختارته في الحياة، أن تكون المديرة، مديرة مدارس العُلا التربويـة الأكثـر شهرة بين المدارس في مدينة صنعاء وبين مديراتها أيضاً.

أن تكون ذاتها لا كما أرادوا لها أن تكون!

أكاد أقترب من تِلك الشعرة الفاصلة بين ما كنت عليه ومـا سأكون عليه. أكاد أدرك ذلك الوميض الذي أرى فيـه نفـسي في حالة أخرى ووضع آخر في الحياة، وفي مساري فيها!...

انتفضتُ من مكاني كمن لدغتـه أفعـى! توجهـت لحجـرة أمي، طلبت منها مبلغا من المال لشراء كمبيوتر محمول، لم أنتظـر سؤالها أو استفسارها عن سبب طلب كهذا وأخبرتها دون سابق تمهيد أنني قررت كتابة روايـة جـود! "عقـيلات" ابتـسمت في وجهي دون تعليق وهي تقول سأرافقك إذا لشرائه.

بدا لي من ردة فعلها من أنها تراضيني فقط لأشغل وقتـي وابتعد عن التفكير في أولادي بعد أن وصلت إلى تلك الحالـة من الاضطراب وعدم النوم أو النوم بكوابيس ليلية مرعبـة! لم تدرك أنني قررت أن تكون الكتابة مشروع حيـاتي القادمـة. لم تدرك أنني اعرف ردة فعل أبي وشقيقيَّ عـلى مـا انـوي فعلـه

وهو: الرفض الغير قابل للمناقشة وقراري الدفاع عن اختياري بكل ما أوتيت من عزم.

لم تعرف أمي بعد ما تحويه أجندة جود من أسرار وخبايا، وإلا ما كانت وافقت على أن ابدأ كتابتها بهذه السهولة، لذلك سأستغل هذه الفرصة لصالحي ولحين انتهائي من الكتابة سيكون لكل حادث حديث.

طلبت منها أيضا أن تطلب من أبي إدخال خدمة الانترنت للمنزل لأني سأحتاج إلى جمع معلومات عن أماكن وشخصيات يتطلبها العمل في الرواية، لكنها لم تخبر أبي هذه الحقيقة بل قالت له إنها خدمة ستمكنني من التواصل اليومي مع صغاري ورؤيتهم عن طريق الكاميرا الملحقة بالكمبيوتر وتخفيف حالة الحزن التي أعاني منها بسبب بعدي عنهم كما رآني في آخر مرة، وهي أيضا فرصة لتعليم أحفاده هذه التقنية المذهلة لأنه عصرهم "عصر الانترنت".

انهمكتُ في الكتابة في حجرتي، توحدت مع عقيلات جود، عقيلة عقيلة، عشت مآسيهن كأني كنت شريكتهن المحلقة فوق رؤوسهن لمراقبة فداحة ما يحدث لهن من ظلم وغُبن لا مفر لهن من تحمله واجتيازه، ربما لأني واحدة منهن، أشاركهن كل فتفوتة من تفاصيلهن مجتمعات ومع ذلك ليس هنالك عقيلة أفضل من عقيلة.

كلنا عقيلات الهم!...

العقيلة الأولى كانت جود ذاتها، ورغم أني صديقتها المقربة إلا أن الفترة التي انقطعنا فيها بعد زواجي كانت ملغمة بالحكايا والأسرار التي لم اعرف عنها شيئاً! ورغم ذلك استطعت أن استخرج بسهولة كل ما أرادت جود أن تموه به وربما تخفي حكايتها عن الآخرين كونها تحكي سيرتها!...

لا يهم هذا قرارها فيما أرادت أن تحكيه عنها وعن عقيلاتها، وما عليَّ إلا أن اجتهد وابحث عن أسلوبي الخاص في سرد حكايا هؤلاء العقيلات ما دام اسمي سيظهر على غلاف الرواية!...

مرور صورة كهذه في مخيلتي للرواية مزينة باسمي كروائية جعلني اشعر بنشوة حلقت بي في عالمٍ جديد، مثير ومحفز في استخراج ما في أعماق نساء الكون منّ أسرار وخبايا. تذكرت ابنتي سارة وأسلوبها المميز في الكتابة ورفضها الدائم لنشر ما تكتبه حتى لو باسم مستعار تفاديا لأي مشاكل قد تحدث فيما لو عرف والدها أنها تكتب قصصاً وتنشرها أيضاً...

والدها الذي كان يتحدث معي عن النساء العاملات معه في شركاته كأنهن "بغايا" وكأن خروجهن للعمل بهدف تحريض الرجال على ملاطفتهن أو الزواج منهن، أو إنشاء علاقة حب معهن، رغم معاملته الأنيقة لهن لدرجة أن رأيهن فيه جميعا وبلا استثناء أنه "**Gentle man**"

آه لو يعرفن ما يقوله عنهن بيني وبينه، وبين أصدقائه المقربين لبصقن في وجهه وفي وجه الزمن الذي أجبرهن على العمل مع رجل بهذه السفالة والحقارة. عندما أراجعه عن آراءه تلك وأدافع عنهن وعن حاجتهن للعمل وعن كونهن محترمات فكرن بطريقة صحيحة في توفير لقمة العيش لعائلتهن أو حتى إثبات الذات والمشاركة في المجتمع، يرد عليَّ ويتهمني باني أدافع عنهن لأني أريد أن أكون واحدة منهن واخرج للعمل مثلهن.

ورغم أن هناك واحدة أو اثنتين من مئات تعامل معهن وتعاملن معه بشرف وافقنه على ما يريد في مناقشة أمور العمل في دعوة غداء أو عشاء في مطعم، ورغم أنهن لم يفعلن شيئا يجرح عملهن أو واجبهن حتى وهن يقبلن هذه الدعوة أو تلك إلا انه عمم النظرة عن النساء العاملات في وظائف مهما كانت، وعليه تم تعميم فرمانه عليَّ وعلى بناتي أيضا!...

ما اكتشفته بعد ذلك وعن طريق زوجة أحد أصدقائه هو ذهابه آخر كل أسبوع مع ذلك الصديق لمنزل أحدى القوادات التي تستغل الطبقة الفقيرة والمعدمة من النساء وتؤجر غرف منزلها للاختلاء بهن مقابل مبلغ من المال تتقاسمه معهن، وعندما واجهته بالحقيقة ومعرفتي بما يفعله هو وصديقه، وأنني أخشى

على نفسي من الأمراض التي قد ينقلها لي من ممارسته الرذيلة مع هؤلاء، أجاب أنه قد تاب وانه احتقر نفسه منذ آخر مرة ذهب فيها عندما أرسلت له المرأة التي تعود عليها ابنتها التي لم تتخط الثالثة عشر ربيعا بدلا عنها لأن أختها الصغيرة احترقت بالتنور وأمها معها ولا يوجد بحوزتها قيمة دواء لها، أوصتها أن لا تدعه يفعل معها شيئاً غير ملاطفتها فقط بأي مبلغ سيدفعه لها.

قال انه لم يمسسها وأعطاها المال وتكفل لها ولبنتيها اليتيمتين بمبلغ شهري يكفيها ومنعها من الذهاب لمنزل تلك القوادة الحقيرة مجدداً. لم أصدقه ولا ادري لماذا! ربما لأنه اكتفى بتلك الأرملة فقط لمتعته دون سواها!...

اووووه لا داعي لاسترجاع كل هذا الألم سأبدأ مشروعي في الحال!...

*****

أصداء رضعتها تفزع أحلامي

"بنت القبيلي رجال"

أصحو شاهرة حكمة أمي

وأواري أنثى أحرقها الصمت

وأعيتها الأدوار

يتسع الخوف!...

فأفر باحثة عن قضمة وهم

أصطدم بصوت جدتي وهي تغني:

"يا بنت عارش على أهلش والزوج ما له عنيه"

ألوذ برائحة أبي فتهمس لي القبيلة التي لا اعرف غير أسمها

أتشح الريح وأعود إلى أحضان الخوف

سماح الشغدري

(ن، أ)

داخل كل امرأة حكايات عدة! نبضات عدة! لا تصدقوا أي امرأة تقول لكم ليس لي سوى حكاية! لـذلك فـضلت جـود أن ترمز لإسمها بـ ن،أ، أعتقد أن لا أحد سيعرف أنها هي غيري.

تبدأ جود أقصد ن،أ حكايتها قائلة: (بدا القلـق واضـحا على أمي بعد ما سمعته من شقيقي وهي تعبر الغرفة بخطواتٍ مرتبكةٍ جيئة وذهاباً، وتضغط على أصابعها لتنفس عن جـزء يسير من عصبيتها وخوفها وارتباكها في ذات الوقت!... ظنت أنهم سيأتون الفجر ويقتـادوني للمعتقـل كـما كـان يحـدث في الأفلام المصرية القديمة، وأطلقت لخيالها العنان وهـي تتـذكر فيلم الكرنك لسعاد حسني مرددة:

قد يغتصبونك كما فعلو معها أو يعذبونك بوسائل قذرة كما فعلو معهـا أيـضا ألم تـري كـم كـانوا مجـرمين وسـفلة في تعاملهم معها، وأردفت، آه لو اعرف من التي فعلت بك هذا، إنه تصرف اقل ما يقال عنه، سافل وحقير وانتهازي أرادت به نيل سمعة حسنة لدى من تحـاول أن تتقـرب مـنهم مـن ذوي السلطة في البلاد وفي هذه الظروف بالذات!...

لم تترك لي خياراً لأرد عليها أو حتى أُفهمها الموضوع كما حدث! وأن لا خوف عـليَّ مـن كـل هـذه الظنـون، الأمـر لا

يستحق ثورتها هذه وكل ما استطعت أن افعله هو تهدئتها وضمها إلى صدري في محاولة لإسكاتها، قد تهدأ دون الخوض في أي موضوع.

لم يكن هذا الحادث هو الأول الذي اقلق أمي عليَّ لكنه مع حادث سابق شكلا تحولاً في مسار حياتي، واعتقد أنني نجحت في استثمارهما لصالحي في الحياة كما يجب!... لذلك لن احكي لكم ما اقلق عليَّ أمي وأنا أشارف على أن انهي عقدي الرابع بعد عامين لكنني سأخبركم أولا عن ما أفزعها وقض مضجعها قبل سنوات عديدة وأنا في نهاية العقد الأول من عمري أي قبل ثمانية وعشرين عاماً من هذه اللحظة. يبدو أنني مسار تعب وقلق لأمي منذ ذلك التاريخ، وربما هن البنات هكذا في مجتمعنا "هم وغم" كما قالت خالتي، و"مصايب إلا من هداها الله" كما قالت جدتي، "قلق حتى تدخل قبرها" كما تقول جارتنا، "ليست فرحة لكنها ونة" كما تردد أمي دائماً.

في العاشرة من عمري وفي أحد أيام رمضان التي كنت اكرهها جدا ليس بسبب الصيام بالطبع لأنه كان طقسا دينيا ممتعاً لي، بل بسبب أنها أيام تقلب نظام حياتي رأسا على عقب بقرار الدولة التي تعيد صياغة اليوم كما تريد وتؤخر الدوام عن العادة ثلاث ساعات للدوائر الحكومية وساعتين للمدارس.

كان يوم جمعة في ذلك الرمضان، لا يستيقظ كل من في البيت قبل أذان الظهر وأحيانا بعده، ولأني أحاول جاهدة أن لا يختلف نظام الشهر في جدول أيامي أحاول أن أطبق ما افعله في يومي الاعتيادي. كنت المستيقظة الوحيدة عندما رن جرس الباب، توجهت لمعرفة من الطارق؟ ودون الأخذ بنصيحة أمي في عدم فتح الباب إلا بعد معرفة وتحديد هوية من في الباب، فتحته، وإذا بالطارق رجلٌ فقير أو بالأصح عجوز يطلب صدقة رمضان!...

أتذكر ملامحه جيداً حتى اللحظة، عجوز جسده مكتنز، قصير القامة، لحيته بيضاء وثيابه رثه بشكل يثير القرف من كثرة ما تراكم عليها من أوساخ، في منتصف القميص الطويل الذي كان يرتديه حزام جعل له كرشاً نافراً للخارج بطريقه مقززة خاصة والريالات الورقية التي كان يجمعها ظاهرة منها! يحمل في إحدى يديه كيساً بلاستيكياً شفافاً اختلطت فيه كل الأشياء التي تصدَّق بها المحسنون عليه من طعام وخبز، وفي اليد الأخرى كيساً آخر للملابس التي يجمعها لأولاد ابنه المتوفي، "الأيتام" كما يقول.

دخلتُ مسرعة وأعطيته بعض الخبز و"اللحوح"

اللحوح: نوع من أنواع الخبز يكثر تناوله في رمضان. يشبه "البانكيك" الأمريكي و"الكريب" الفرنسي

البايت مما تبقى من عشاء ليلة البارحة وناولته. كان يريد مالاً أيضا. أخبرته أن أمي ما تزال نائمة ليعد عصراً لتعطيه صدقة رمضان. انفرجت أساريره وقال بعد أن استشعر الهدوء المطبق على المنزل: هل كل من في البيت نائمون؟

أجبته: نعم

عندها أصبحت لهجته متغيرة وصوته ناعما وهو يقول أنني أشبه إلى حد كبير ابنة ابنه التي غرقت في سد الماء في قريتهم وهو يفتقدها جداً جداً وقد ذكرته بها ويريد تقبيلي على خدي من شدة ذلك الشوق إذا وافقت!...

كدت أبكي من تأثره ورحت اسأل عن كيفية غرقها في سد الماء وكيف اكتشفوا ذلك ومن أخرجها!؟ لم أكمل استفساراتي حتى اقترب مني وباليد الأخرى اقفل باب الحديقة الذي كان يطل على الشارع وغير بعيد عن باب المنزل. شعرت بوخز لحيته على خدي وهو يطبع قبلته الأولى على خدي، وباليد الأخرى امسك بيدي وشدني باتجاهه، لم اشعر إلا ويده تمتد لتعبث ببراعمي التي بدأت تتفتح في صدري وتؤلمني في ذات الوقت، لم استوعب ما يحدث إلا ووخز لحيته وشاربه يزداد عندما لامس شفتي، عدت للوراء من هول ما ينتابني وهو يطمئنني: لا تخافي يا ابنتي كانت الله يرحمها تشبهك تماماً!

ضمني أكثر باتجاهه وانزل يده قليلا ليمسك بشيء انتصب من خلف ثوبه وهو مستمر في تهدئتي!...

لم يكمل جملته، ابتعد عني فجأة، علا صوت أمي من باب المنزل الرئيسي: ماذا تفعل بابنتي أيها السافل الحقير؟ اتركها!!! تقدمتْ باتجاهنا وهي تقذفه بسيل من الشتائم غير ما أخذت يدها تمتد عليه وهي تزجره باتجاه الباب!!!

أغلقت الباب، ووجهت نظرها إليَّ وهي تزم شفتيها من شدة غيظها بينما أنا ما زلت متسمرة في مكاني لا اعرف ما أقول أو كيف أتصرف!!! ثم أردفت: (وأنت يا خبلى ، ماذا كنت تنتظرين، أن يعتدي عليك!؟ لماذا لم تصرخي؟ ألم أحذرك دائما من أن لا تدعي أحداً يلمسك أو أن يقترب منكِ؟)

أجبتها كمتهمٍ يدافع عن نفسه: أنا كنت أفعل خير يمه ، كان مفتقداً لحفيدته التي غرقت في سد القرية!...

أمسكت على رأسها بكلتي يديها وهي تصرخ بأعلى صوتها: (خبلى، خبلى خبلى، إياك أن تجعلي هذا يتكرر) وواصلت سيلاً جارفاً من النصائح والأوامر التي كانت قد قالتها لي إضافة إلى تجرؤها بتوضيح ما كان يفعله العجوز بي من قذارة، وبُعده عن

خبلى: بلهاء

يمه: يا أمي

البراءة كما اعتقدت بمصه لشفتي وتلمسه بشهوة لأجزاء في جسدي، وبينت لماذا يجب أن لا يقبلني أو يلمسني غير واحد فقط في هذه الأماكن هو زوجي، لأن هناك ما املكه بين فخذي وتقصد غشاء البكارة هو من حقه فقط!...هل فهمتِ؟

هكذا قالتها بغيظ ثم فقدت أعصابها من جديد وكأنها تتذكر ما الذي كان سيحدث لي لو لم يوقظها قلب الأم في تلك اللحظة لتنقذني في الوقت المناسب وهي تردد: لكن البنات هكذا مصائب لا نرتاح من همها إلا بزواجها أو موتها!.

لم تكتف أمي بهذه النصائح كعقاب لا يمكنني نسيانه فأنا لم أفق بعد من استيعاب شرحها لفداحة ما كان سيصيبني لو لم تأتِ لتنقذني في تلك اللحظة! لكنها راحت تضربني وتركلني دون أن أحرك لجسدي ساكنا لحمايته منها، لم أدافع عن نفسي أو اهرب منها لأحتمي خلف باب أو دولاب أو تحت سرير لا تستطيع الوصول إليه كما كان يفعل أخوتي!

تسألني بعد أن تهدأ لماذا لا افعل ذلك؟ أجيبها: حتى ادفع ثمن غلطتي كاملاً. لأنك تضربينني بهدف العقاب الذي استحقه!!! وأعود واسألها: وأنت يا أمي لماذا يثير حنقك سكوني في مكاني وتزداد عصبيتك من هدوئي وتقبلي للضرب تماما كما يثير غضبك هروب أشقائي من بين براثنك أو حتى

دفاعهم عن أنفسهم؟ لم تكن تجيبني بل تكتفي باحتضاني وهي تقول: بنتي عاقلة!...

شعرت بالحزن الشديد بعد هذه الحادثة لأن أمي عادت لضربي بعد أن توقفت عن فعل ذلك لعامين، منذ أن توقفت عن أن ابلل فراشي، كان يستفزها هذا الفعل الذي لم أكن اعرف له سبباً بين كل حين وحين. تسامحني أحيانا لأني كنت اقل أشقائي مشاكل في البيت وفي المدرسة، لكنها تفقد أعصابها أكثر.

اشعر بالخجل من أشقائي عند استيقاظي والبلل يغطي ملابسي وفراشي، كما اشعر بالخجل وأمي تضع كيسا بلاستيكيا تغطي به فراشي بعد غسله وتجفيفه في الشمس وكما لم اعرف سبباً لذلك، لم أجد سببا كذلك لتوقفه، لكن ما اعرفه أن توقفي عن ذلك كان حدثاً هاما بالنسبة لأمي كانت تحكيه بزهو عندما تتبادل النصائح مع جاراتها وقريباتها وصديقاتها كون الصوت الذي كان يحدثه الكيس البلاستيكي الذي غطت به فراشي هو السبب عن توقفي "التبول" عليه لأنه يوقظني لأذهب للحمام، رغم أن نصيحتها لم توقف طفلا واحداً عن التبول اللاإرادي ليلاً من أبناء صديقاتها إلا أنها لم تمل من تكرارها.

لم تمر هذه الحادثة مرور الكرام بالنسبة لي، أتذكر حتى اللحظة بين الحين والآخر وخز لحية المتسول العجوز، ويتتابني

شعور متناقض في كل مرة، استلذ بتلك الملامسة لشفتانا واشعر بالقرف كلما تذكرت لعب لسانه بهما ومصهما ومحاولة توغله فيما بينهما لولا صوت أمي الذي أفزعه وأفزعني أيضا.
رغم ذلك لم أكره ما فعله بي العجوز لدرجة أن يكون ذلك سببا في عقده نفسيه من الرجال كما تعتقد أمي، وأن هذا أدى إلى رفضي للزواج رغم محاولات إقناعي من شقيقتيَّ وممارسة الضغط والإكراه من قبل شقيقيَّ، اضطروا بعدها للاكتفاء بسماع ردي على ما يعرضونه بعد وصية والدي وهو على فراش الموت من عدم الضغط عليَّ أبداً واحترام قراراتي.

أنا أيضا لم استطع تحديد سبب مباشر لهذا الموقف العدائي من الزواج، هل هو معاقبتهم على رفضهم أبن عمي وحبي الوحيد بسبب تصفية مواقف لا دخل لي فيها بين أمي وأمه! أم هو شعوري بالمسئولية الكبيرة والكبيرة جدا تجاه الزواج الذي سيثمر أولادا بالنتيجة وضرورة أن أعطي هذه العائلة كل ما لدي وهذا ما لن أقصر فيه أبدا في مجتمع لا يوفر لمواطنيه أبسط حقوق المواطنة من توفير مأوى للعيش وتعليم وصحة والاهم من توزيع عادل لثرواته ولذهبه الأسود!

هل هو عدم رغبة في أن لا يمر هؤلاء الصغار الذين سأنجبهم فيما لو تزوجت بما مررت به أنا وأشقائي من معاناة

حتى وصلنا إلى هذه الدرجة من العلم ومن المكانة الاجتماعية التي تجعلنا راضين عن أنفسنا وعن مسار حياتنا رغم كل الظروف الصعبة التي مررنا بها.

أتذكر والدي الذي كان يكد ويشقى كعامل بناء بسيط لكي يوفر لنا متطلباتنا اليومية للعيش، وأتذكر شقيقيَّ وهما يساعدانه بعد الانتهاء من مراجعة دروسهم في "الوقيص" ليأخذ أجرة يوم زيادة، عن رغبة منهما وحب في مساعدته. كما أتذكر أمي وتعليمها لي ولشقيقاتي في أيام العطلة المدرسية للمشغولات اليدوية من أحزمة لخنجر "الجنبية اليمنية" وصبرها على بلاهتنا في تعلمها حتى أتقناها وأصبحت تذهب بنفسها لبيعها في السوق المحلي لها في "باب اليمن" لتصبح جودة ما نبيعه وإتقانه سبباً في تهافت أصحاب المحلات، ومع ذلك لم نكن نقصر في دروسنا وواجباتنا في المدارس ومن ثم في الجامعات.

شقيقي الأكبر ولد قبل الثورة بست سنوات أنهى عامه الخمسين منذ شهور، أبدى نبوغا غير عادي وهو يلتحق بأول مدرسة أنشئت بعد قيام الثورة ليحقق حلم والدي ويصبح

الوقيص: تهذيب أحجار البناء بحيث تأخذ أشكال منتظمة مربعة أو مستطيلة بزوايا حادة بحيث تكون صالحة للبناء
باب اليمن: أحد أبواب مدينة صنعاء القديمة والباقية بعد اندثار الأبواب الستة الباقية. وهو مدخل للسوق المحلي التقليدي.

ضابطا يحمي الثورة التي أنقذته من جهل وفقر ومرض الحكم الإمامي البغيض الظالم للبلاد من إهمال ثرواتها وللعباد من اعتبارهم مجرد خدم له ولمصالحه الشخصية والعائلية ليس إلا! إلى عدالة الجمهورية ليرى ولديه ينعمان بالتعليم رغم كونهما أبناء عامل بناء بسيط قادم من قرية نائية في الشمال تدعى المحويت طلباً للرزق الوفير في صنعاء العاصمة التي عشقها لأنها موطن الثورة وانطلاقتها الأولى.

شقيقتي التي تليه وتصغره بعام ومع ذلك كانا في نفس الفصل لأنها لم يتلقيا التعليم قبل الثورة، لم تتحمل أن تكون مع قلائل من الفتيات في مدرسة الأولاد وفضلت البقاء في البيت على أن يقوم بتدريسها كل ما كان يتعلمه ولم يتوان في ذلك طيلة العام لتؤدي معه الامتحانات وتكون نتائجها مذهلة.

كنت خامستهم، آخر العنقود كما تقول أمي بعد أن أصيبت بنزيف حاد بعد ولادتي استخدمت لإيقافه أعشاب الطب الشعبي والذي كان من أضراره إصابتها بالعقم المؤقت كما قيل لها لكنه أصبح دائماً، رغم محاولاتها المتعددة للتداوي. لم تكن لتقنع بخمسة أبناء في حين أن نساء قريتها يفكرن في

المحويت: مدينة قبل أن تكون محافظة تقع في شمال غرب العاصمة صنعاء.

التوقف عن الإنجاب بعد عشرة أبناء أصحاء، ناهيك عن الأموات، ويصل ببعضهن الحال إلى أثنى عشر أبناً، مؤمنات بالمقولة الشهيرة التي تقول (أن الولادات هي صابون المرأة) تحميها من الأمراض وتجدد شبابها. ولا اعرف أي شباب وهي تبدأ في معاناة طويلة مع الأمراض بعد انتهائها مباشرة من مشروع الإنجاب الخصب هذا، من هشاشة عظام إلى اقتلاع أضراس نتيجة نقص الكالسيوم إلى غيره من العلل التي تكون سببا في القضاء عليها ولو بعد حين!...

أحيا بعد زواج شقيقتيَّ وشقيقيَّ مع أمي في المنزل الذي تركه لنا أبي بعد أن بناه حجراً حجراً، ورغم أن البيت مبني في ثلث مساحته إلا انه يطل على حديقة جميلة لم يقصر أبي في الاعتناء بها وزرعها بثمار تعيد له ذكريات طفولته في المحويت قبل مغادرتها. كما استمريت أنا أيضا في الاعتناء بها وبثمارها وبأشجار الزينة فيها بعد وفاته. تطل عليها حجرتي واقضي في الاستمتاع بها وببهجة ألوانها أجمل اللحظات.

أنا حتى اللحظة لم أحدثكم عن الحادثة الطازجة التي أقلقت أمي وأصابتها بالهلع عليَّ. هذا الهلع الذي جعلني أتقبل منها ردة فعلها وخروجها عن السيطرة على أعصابها وهي نادراً ما تفعل حتى بعد موت والدي، أقنعت نفسها حتى لا تزيد من

هول الكارثة عليها أن الموت كان راحة له بعد أن ظل مقعدا ثلاثة أعوام نتيجة إصابته بجلطة دماغية نجى منها بأعجوبة فيما عدا إصابته بشلل نصفي منعه من الحركة وصعوبة في الكلام ونسيان يتناوب عليه بين فترة وأخرى.

ما لم أعذرها فيه لكني قبلته على مضض واعتبرته نتيجة خوفها عليَّ هو قولها المستفز(لو كنتِ في ذمة رجل لكنتُ ارتحت منكِ ومن همك!...) أصابتني عبارتها في الصميم ليس بسبب أنني لست على ذمة رجل، لكن كون هذا هو معيار حمايتي وخلاصها مني وكأني حمل وعبء ثقيل.

لم يشفع لي لديها رجاحة عقل الأربعين عاما كما يقولون، لم يشفع لي لديها أنني ومنذ اخترت عدم الزواج أصبحت مسئولة عن نفسي وعن تصرفاتي التي لم تكن يوما سببا لألم أو شعور بالخزي أو العار لكل المحيطين بي من أهل ومجتمع. لم يشفع لي لديها المدرسة الثانوية التي أديرها، ونحتي في الصخر لتكون بهذا المستوى بعد أن تدرجت في النهوض بها من روضة إلى مدرسة ابتدائية إلى ثانوية يتفاخر بها أولياء الأمور قبل أبنائهم بمستواها العلمي والتربوي. لم يشفع لي لديها أنني مستشارة ممتازة رغم كوني الصغرى، لأشقائي ولصديقاتي ولباقي أفراد العائلة ولا أتردد أبدا عن إغاثة كل من يلجأ لي.

نسيت أمي كل هذا وأصبحت في نظرها مجرد همٌ وغم،

مجرد عبء ثقيل تريد أن تُلقي به من على كاهلها لترتاح، عبئي الثقيل الذي أدركته للمرة الأولى وفضحته عبارتها البغيضة تلك، عبارتها التي جعلتني أتساءل هل أخطأ أبي العامل البسيط عندما زرع في أعماقي حب الاعتماد على النفس وعدم الحاجة للغير ما دام بإمكاني أن أقوم بذلك بنفسي؟ هل أخطأ عندما جعل لخمستنا وأمي سادستنا مشروع حياة لكل واحدةٍ منا مستقلاً عن الآخر، قائم على الاختيار الحر الذي يتحمل كل منا تبعاته؟

لماذا غيرت أمي قناعاتها الآن؟ هل هو شعورها بأني لم أكن في آمان وهي تتقدم في السن إلا وأنا على ذمة رجل ولدي أولاد؟ ماذا لو لم يكن ذلك من نصيبي، هل أموت؟ هل لا استحق الحياةً؟ هل أصبح إنسانة ناقصة؟ وما هو الكمال في نظر المجتمع بالنسبة للمرأة؟ هل هو الرجل الذي هي عقيلته؟ هل هو الأولاد، امتداد الحياة الطبيعي؟ هل العانس ناقصة وفق قوانينهم؟ هل الأرملة ناقصة وفق قوانينهم؟ هل المُطلقة ناقصة وفق قوانينهم؟

آه يا أمي كم كانت عبارتك قاسية وجارحة. كم كانت مخالفة لكل ما ربيتِنا عليه، ولكل ما علمتنا الحياة. تعلمين أكثر من غيرك أن التجارب التي من حولي وحولك ليست ناجحة مائة بالمائة! لكنها تحولت مع الزمن إلى قناعات يعيش عليها البشر، توفر لهم الراحة والهدوء والاستقرار وفق ما يريدونه.

طرف مسيطر ومتحكم وطرف آخر ضعيف وخانع!...

لستُ بحاجة لأن أقول لكِ من منهما الرجل ومن منهما المرأة!... التجارب من حولي وحولك تقول بان لا علاقات متكافئة قائمة على مبادئ إنسانية صحيحة، بعيدا عن التعاليم الدينية التي يُسخرها الرجل دائما لصالحه تاركا ما عداها لأنها لا تلائمه ولا تناسبه.

شقيقتاي رغم زواجهما بعد الانتهاء من الجامعة تنفيذا لرغبة والدي رحمة الله عليه وحصولهما على وظائف حكومية كمدرسات تابعها بنفسه حتى استخرجها لهن من وزارة الخدمة المدنية، إلا أن موضوع الوظيفة ظل محل صراع دائم بينهما وبين زوجيهما انتهى بشعورهما باليأس من تغيير ما في تفكيرهما، وآثرتا السلامة وعدم المشاكل التي بدأت تزداد بشكل كبير وأصبحت تؤثر على هدوءهما واستقرار صغارهما ورضختا لما أمرتا به تحت ذريعة سخيفة وهي أنهما ليستا بحاجة للمادة لكي تعملان!...

أشعر بالحسرة في وجهيهما كلما قامتا بزيارتنا يوم الجمعة مع أولادهما على قبولهما واستسلامهما لترك وظيفتيهما بتلك السهولة خاصة بعد أن أصبح أولادهن جميعا في سن المدارس. والمأساة أن قبولهن هذا أدى إلى المزيد من اللاءات في حياتهما جعلتهما حبيستا أربعة حوائط لأن الاختلاط بالنساء الأخريات من الصديقات يؤدي إلى مزيد من المشاكل!

والخروج للنزهة يجعلهن عرضة لنهش عيون الغرباء والمتطفلين! وسفرهن لقضاء الإجازة إهدار للأموال!...

وهكذا دفُن بالحياة، وأصبحن في قمة خوفهن من تفكير أزواجهن من الزواج بأخرى لا تجادل ولا تتفلسف كما فعل جارهن بعد أن شعر بالقرف من زوجته المتعلمة ليطلقها ويتزوج بأخرى من القرية، صغيرة وحلوة ولا تعرف في قاموسها اللغوي غير كلمة "حاااضر"!...

هل هذه هي الحماية التي تريدينها يا أمي بعد ما فعلته معي أنت وأبي من مجهود لمجابهة الحياة دون الحاجة لأحد؟ لا تقلقي عليَّ يا أمي فهو شيء بسيط وتافه مقارنة بما تعانيه النساء العقيلات في البيوت الخاضعات لرغبات ونزوات الرجل الفاقدات لحرية الاختيار في الحياة وهذا هو قمة الظلم في نظري، إن كان يمثل له آماناً وحماية!...

ها أنا أخرج مجددا عما أردت إخباركم به منذ البداية عن سبب قلق أمي وسبب ثورتها المفاجئة وقول عبارتها البغيضة تلك. أمي التي أبدو لها غير طبيعية بالمرة لاستمراري في الرفض وبإصرار عن قبول أي عريس يتقدم لي وأنا أشارف على دخول عامي الأربعين رغم كثرة خطابي في السابق بالطبع وقلة عددهم كلما تقدم بي العمر وتحول طلبهم إلى زوجة ثانية أم تعويض عن أرملة.

أتذكر في الخامسة عشرة ابن جارنا الذي كان يكبرني بثمانية أعوام وهو يفعل المستحيل لأقبل به زوجا، واضطر أمام رفضي إلى استخدام كافة المغريات المادية وكأني بضاعة سيشتريها. عرض على أبي "شوال" زبيب "بياض" هدية خطوبتي ناهيك عن متطلبات الخطوبة المتعارف عليها وأن مهري سيكون مزرعة عنب في "السِر" أشهر منطقة لزراعة العنب في منطقة "بني حشيش"... ولم يقتنع إلا بعد أن أقنعه أبي بصغر سني وعن رغبته ورغبتي في إنهاء تعليمي لأنه ضمان لمستقبلي!...

ما تلاه من خُطاب كانت شروطهم استفزازية وتسير بمنحى زوجي شقيقتيَّ في أن أكون عقيلة بمعنى الكلمة مربوطة في احد أركان المنزل. أدور حوله لكن من الداخل حيث لا هواء يجدد طاقتي ولا مناظر جميلة تؤنس وحشتي ولا سماء زرقاء تحتضن أمانيَّ حتى لو كانت هراء...

قبل أن احكي لكم ما اقلق أمي سأحكي لها ولكم عن نساء قادتني الصدفة لمعرفة حاكياهن وقادني حب الكتابة لتوثيقها، ربما لأني مُدرسة تحب رصد كل شيء للتوثيق بغرض العلم والمعرفة التي تساهم في تكويننا وفي إثراء تجاربنا حتى لا نقع في ذات الخطأ وفي تلك الظروف وان حدث ذلك رغما عنا

شوال: كيس كبير يزن ما يحويه خمسين كيلو
بياض: أجود أنواع الزبيب اليمني

فنستفيد مما كان ولا نفعل مثله على الأقل. ربما أنا ابحث عن ما يزيد قناعاتي واتجاهاتي في الحياة...

حالات متناقضة، متنافرة، مثيرة للتساؤل أحيانا، وللشفقة أحيانا أخرى، وللغيظ والحنق سائر الأوقات!... مرارة متجذرة في حياتهن وأصواتهن وملامحهن...

لم الحظ قبل الآن من أن أسمائهن جميعا تبدأ بحرف النون ! هل هو قدر أن تعاني نون في الحياة، أن تتجرع ألمها وبؤسها دون أن يكون لها ذنب في ذلك سوى عادات وتقاليد مجحفة بحقها، أو جهل في كيفية التعامل مع الحياة كفن يتطلب المزيد من التكتيك والتخطيط للحصول على السعادة، السعادة التي تتطلب تكاملاً في الحياة بعيداً عن السيطرة وعن ضرورة وجود طرف ضعيف وآخر قوي، بعيداً عن سيطرة احدهما على الآخر، وبعيدا عن التعامل بندية وكأنهما في معركة!...

تتحدث أمي عن علاقتها بابي فيشرق وجهها سعادة عن

نون لدى الفراعنة هو إله الماء والمحيطات والبحار التي سبقت خلق الكون ومن هذه المياه خرجت كل الكائنات. وله ألوان كثيرة: أسود ليلاً فضياً ظهراً دموياً غروباً. وكانت الإلهة نونت تساعده على إثارة الأمواج وإغراق السفن، وإن كانت تترفق بالغرقى فتنقذهم، ولكن تترك السفن تلعب بها الأمواج.
نون في اللغة العبرية القديمة، معناها الأسماك أو الحيتان
وفي القرآن الكريم يرى بعض المفسرون أن (نون) هو الحوت، فذو النون هو صاحب الحوت يونس u الذي التقمه الحوت.

مدى حبه لها وحبها له، عن زواجها في سن مبكر كعادة ذلك الزمان ، لم تكن تعرف شيئا عن العلاقة الزوجية غير ما أخبرتها أمها ليلة زفافها بأن كل ما عليها هو الاستسلام لزوجها وعدم الخوف حالما يطفئ "القزازة" . لم يتوقف قلبها عن الخفقان منذ سمعتْ هذه العبارة حتى وهو يدوس على قدمها ويمد يده ليمسك بجبينها ويقرأ فاتحة الكتاب للبركة وللبدء بحياة زوجية مباركة وسعيدة، حتى وهو يلاعبها ويلاطفها حتى تزول من قلبها رهبة الليلة الأولى وشعرت بذلك الوخز الخفيف لبكارتها لتبدأ معه حياة من السعادة والهناء والحنان والرحمة حتى فارقها! رغم دعائها طيلة حياتها أن يجعل الله يومها قبل يومه...

أمازحها دائما وأقول لها: من أين لي برجل مثل أبي وأنا أتزوجه في الحال يا أمي. يكفي انه يمسك بيدك وتسيران معا جنبا إلى جنب في كل مشاويركما في حين لم يقتد به حتى أولاده في هذا ويجعلون من زوجاتهم في مقام التابع دائما وكأنها عورة وهم المتعلمون والمثقفون وهو الأمي المتنور. الأمي، الغير متعلم الذي عاش حياته معك بهناء لأنه يدرك انك سكنه كما هو سكنك تماما، رحمة الله عليه يا أمي.

*****

القزازة: فتيل يشعل على القاز قبل دخول الكهرباء للبلاد

ولدت الأنثى بنتاً

وللتو اغتسلت

بتراب القبيلة

وضاق الفرح

واختلست البنت

ملاذاً لها

من الماء والعطر

كي تدفن جسدها في حضرة السؤال

لتقول: لماذا ولدت بنتاً

ليلى إلهان

(ن. ج)

كنا معا في ذات المدرسة، ربما لذلك نشعر بحميمية عندما نلتقي! نسلم على بعضنا البعض بحرارة الذكريات الرائعة التي عشناها في داخل الفصل وخارجه! في ساحة المدرسة وفي ممراتها!... نكاد نميز حجارة المدرسة حجراً حجراً، وكأن أيامنا فيها كانت حفرا عليها بنقوش أحلامنا وأمانينا التي عشناها في تلك الفترة والتي لا نمل من تكرارها وبلذة هائلة كأنها حدثت الأمس رغم مرور كل هذه السنين!...

عندما يأتي الحديث عن الحاضر يصبح صوتها محملا بمرارة لا يمكنني تفسيرها... لأنها لا تبدي تذمرا أو امتعاضا أو رغبة في التغيير في سير حياتها ولكن على العكس من ذلك استسلام لأمرٍ واقعٍ تعيشهُ ولا مناص منه إلا بمجاراته على عِلاته التي تقوضهاً بهدوء دون أن تعي ذلك!...

كانت تسبقني بعام دراسي، فصلها إما قبل فصلي أو بعده، لهذا تعلم كما أعلم أحداث ما يدور في فصل كل واحدة منا أولاً بأول، كالعقابِ الجماعي للطالبات بسبب عدم حل الواجبات مثلا أو رؤية مشاغبات يُطردن من الحصص بسببِ تعليقاتهن أثناء شرح الدروس، أو مرض بعضهن وإسعافهن للعيادة المدرسة!...

الحدث الذي لا يمكنني نسيانه ربما مثلها تماما هو دخول

الأخصائية الاجتماعية لفصلها في آخر المرحلة الابتدائية لتقوم بتوعية الطالبات عن الدورة الشهرية، موعدها، سببها، أهميتها، مدتها، كيفية التعامل معها، نظافة أجسادهن من وجهة نظر دينية وعلاقتها بصيام شهر رمضان!... إضافة إلى توعيتهن عن بدايات تكور الجسد وكيفية التعامل معه بعفة والمحافظة عليه وقول كل ما يحدث له من تغيرات للأم أو للأخت الكبرى أو حتى لها كأخصائية اجتماعية، وعن ما قد يتعرضن له من مضايقات بسبب الذكور في المنزل والشارع والمدرسة أيضا وكيف يدافعن عنها وإعلام المسئول عن حمايتهن كالأب أو الأخ أو احد الأقارب! وبشكل سريع تطرقت لغشاء البكارة وأهمية الحفاظ عليه حتى موعد الزواج بالابتعاد عن الأعمال التي قد تسبب في الإضرار به كممارسة أنواع من الرياضة التي لا تناسب البنات إضافة إلى ركوب دراجات الأخوة واللعب بها!...

كانت هذه هي الحصة اليتيمة التي تقول فيها الأخصائية كل شيء وهي مطأطئة رأسها في الأرض لشعورها بأنها تقول أشياء فاضحة، غير مسموح للطالبات أن يسألن أو يظهرن أنهن على دراية بهذه المواضيع من قبل!... ومع ذلك كانت مَدرستنا هي المدرسة الوحيدة ربما في بداية الثمانينيات التي تتبرع فيها الأخصائية بشرح أمور كهذه، لأن مديرتها تؤمن بضرورة التوعية

وعدم إخفاء حقائق مهمة كهذه، تعلم جيدا أن المجتمع لا يسمح بتداولها حتى بين اقرب المقربين كالأم وابنتها مثلا!!!...

بعد خروج الأخصائية من فصلهن هجم معظم طالبات فصلي على الفصل المجاور وهن يسألن صديقاتهن بشغف عما حدثتهن الأخصائية به. كانت هذه الحصة حلم طالبات المدرسة ومسار حديثهن المفضل ربما لشدة التكتم على هذه المواضيع بل تحريم الكلام فيها، إذا ما اعتبرن أن كل ممنوع مرغوب.

طالبات الصف بلا استثناء غزاهن شعور بالأنوثة وأنهن أصبحن نساء لمجرد حديث كهذا فيما بينهن، ومع الأخصائية الاجتماعية ومارسن علينا نحن الأصغر بعام دور الكبار، وان لا نستعجل لأننا سنعرف كل شيء في السنة القادمة فلا داعي لاستباق الأمور!

هذا بالطبع لم يمنعهن من التعليق الفوري على حديث الأخصائية الاجتماعية الموجه لأحدى الطالبات التي كانت حلمتاها نافرتين من خلف ملابسها وهي تقول لها: (يا بنتي قلي لأمك تشتري لك حمالة ضروع) كان تعليقهن المثير للضحك والاستهزاء ربما على ما سمعنه للمرة الأولى لكلمتي (حمالة ضروع) عوضا عن كلمة (ستيان) الفرنسية المتداولة والمعروفة.

انفردت مع صديقتي ن.ج في الاستراحة، لم تنتظر سؤالي لها عما

دار لكنها راحت تحدثني بشفافية عن حديث الأخصائية لأستفيد منه أيضا، وانه كلام مهم لم تسمعه من أمها ولم تحدثها عنه يوما، بل إنها كانت تحذر شقيقاتها الأكبر سنا من الخوض فيه لأنهن بنات مؤدبات وهذه مواضيع قليلة أدب!... لذلك عندما جاءتها الدورة الشهرية وبلغت مبلغ النساء (على قول كتب التراث) بعد شهرين شعرت بالراحة ولم ينتبها أي خوف أو جزع من رؤية الدم يلوث سروالها الداخلي، واكتفت بتلميح ذلك لأمها التي اكتفت هي أيضا بمناولتها للغيارات الخاصة بالدورة الشهرية وكيفية استخدامها.

ارتياحها لي ومصارحتها لي بكثير مما كان يحدث لها من تغيرات في جسدها وفي تفكيرها جعلني قريبة منها وهي قريبة مني، رغم عدم وجودنا معا لفترات طويلة، تدعوني لحضور احتفالات عيد ميلادها لأكون الوحيدة من خارج صديقات فصلها، كما أكون الوحيدة أيضا في أي مناسبة تحتفل بها العائلة كزواج شقيقاتها أو استقبال أو توديع صديقات والدتها وحتى مرافقتها في بعض النُزه العائلية. بعد انتهائها من مرحلة الثانوية العامة انهارت بسبب وفاة والدتها فجأة إثر دخولها في غيبوبة سكر، ولم تتمكن من إحراز المعدل الذي تطمح إليه لتعيد السنة الدراسية معي في ذات الفصل نتقاسم ذات المقعد، ونحلم بدخول كلية الطب لنصبح طبيبات ناجحات!...

ربما الحلم بالبالطو الأبيض كان أكثر من حلم تحقيق الأمنية! لذلك لم ندخل لا أنا ولا هي كلية الطب!...

خبر موافقتها على الزواج بعريس غني تقدم لها كان مفاجأة للجميع، خاصة وهو يطلب منها البقاء في البيت وعدم مواصلة الجامعة لأنها ليست بحاجة لها أمام غِناه الفاحش وهذا سيجعلها لا تحتاج شيء، بل إنها وافقت على كل شروطه من ارتداء اللثام الذي كانت تكرهه ولم يجبرها والدها أو أشقائها على وضعه يوما ما، إلى البقاء في البيت وعدم الخروج إلا للحالات الضرورية كزيارة الأهل أو الأقارب، أما الاختلاط بالصديقات وحضور الحفلات الكبيرة أو الأعراس فهذا غير ضروري أيضا.

وافقتْ وأذهلتني، بل أذهلتنا جميعا نحن صديقاتها المقربات إلى وجدانها، وتركتنا في حيرة لم نستطع تفسيرها، لماذا تخلت عن طموحها وعن مستقبلها والظروف كانت لصالحها؟ هل أغرتها عروض العريس الكثيرة في الحياة كأميرة في قصر فخم وضخم لديها من الخدم والحشم ما يكفي لتولى كل أمورها وأمور زوجها وأبنائها في المستقبل؟ هل كانت تختصر تعب وعناء سنوات قادمة ستؤدي بها لذات النتيجة وهي: " الزوج" لأنه آخر المطاف في مجتمعنا وطلباته أوامر وسارية المفعول دون نقاش أو جدل، وما حصلت عليه من عرض هو فرصة يجب أن لا تضيعها؟

لم أجد إجابة شافية لكل هذه التساؤلات حتى عندما رأيتها بعد خمس سنوات حال انتهائي من الدراسة الجامعية في عزاء وفاة أم لصديقة مشتركة بيننا... بدا كل شيءٍ فيها باهتا: جسدها النحيل الأقرب لهيئة هيكل عظمي متحرك، بشرة وجهها التي لم تخف كرمشاتها عن إرهاق وربما تعاسة لا حدود لها رغم صغر سنها، عيناها التي لم تستطع أن تبدد شرودهما بتجوالها في أرجاء المكان... رغم أنها حاولت أن تقول غير ذلك بالعباءة الحريرية التي ترتديها، وببريق الماس في خواتمها وهي تلوح بيديها إثناء الحديث، وفي ساعتها الباهظة الثمن أيضا.

أخبرتني أن معها ولدين وأنها سعيدة في زواجها وسعيدة أيضا لهذه الصدفة التي جعلتها تراني ولتكن بداية لتبادل زياراتنا. أخبرتها أيضا عن بدئي بمشروع المدرسة التي انوي تأسيسها لقناعتي أن الأساس لتغيير مساوئ المجتمعات هو التعليم. وعدتني أن يكون ولداها من الملتحقين بها إذا ما تحقق مشروعي!....

عندما جاءتني بالفعل بعد عامين لتسجيل ابنها الكبير الذي أصبح في سن الدراسة. كانت قد تدهورت حالتها بشكل واضح. فقدت الكثير من وزنها وبدا عليها الشحوب والتعب الأقرب إلى الإرهاق المزمن، لذلك لم تجبني وأنا اسألها عن السبب وذكرت أسباباً وأعذاراً واهية لا يمكن تصديقها

مقارنة بحالتها السيئة كانشغالها مع الأولاد وإفراطها في تناول القات بشكل يومي، وهذا يضعف شهيتها للأكل.

في المرة الثانية التي جاءت فيها لزيارتي في المدرسة وبعد اجتماع مجلس الآباء الذي كانت تحضره بالنيابة عن زوجها، انفجرت بالبكاء وهي تقول: إنها تريد أن تشعر بالراحة وأنها لو حكت لي ربما تشعر بهذه الراحة التي تنشدها لأني سأحافظ على سرها أولا وسأنصحها كما كنتُ دوما بمحبة وإخلاص!.

ما سمعته منها بعد ذلك هو آخر شيء يمكن أن يخطر على بالي أو حتى أفكر فيه!... أية قوة تمتلكها لتتحمل هذه الحياة بمرارتها ومنذ العام الأول لزواجها برجلٍ تزوج فقط لينفي تُهماً وعلامات استفهام حوله وحول سلوكه!... لم تستغرب هجرانه لها بعد الشهر الأول، ظنت أنه فعل ذلك مراعاة لشعورها بعد أن بدأت دلائل الحمل تظهر عليها. لكن الأمر استمر حتى بعد ولادتها بابنها البكر، يتحجج بأعذار واهية حتى لا ينام معها إلا فيما ندر، ربما ليلجم رغبتها كامرأة وتساؤلاتها في وقت واحد، تشعر خلالها انه يفعل ذلك وهو مكره ومغصوب على ممارسة هذا الفعل الذي تعتبره مقدساً. صارحته بشعورها أكثر من مرة إلا انه كان يتهرب من الإجابة ومن مواجهة ما يعتمل في داخلها بقوله: (فعلا النساء ناقصات عقل، مضاجعتهن بكثرة تثير التذمر وعدمها أيضا تثير التذمر!...)

يعلم أن ما يفكر في كونه سبب ضجرها، ليس في دائرة تفكيرها أو اهتمامها، ويعلم تماما ما يشغلها ويثير حيرتها وحنقها لذلك لم يواجهها يوما بحديثه وهو ينظر إليها، بل دائما فاراً من التقاءِ عينيها بعينيه! وكأنها ستقرأ فيهما ما يخفي عنها!...

عاد لذاكرتها بعض ما كان يتردد عن سلوكه وعن وجود علاقات غير مفهومة مع شباب صغار سن وسامتهم طاغية وحركاتهم مايعة، تزداد ضربات قلبها وتشعر بمرارة في حلقها كلما قاربت على تصديق ما يومض في ذهنها من تفسير ما تفكر به، بئر سحيقة مليئة بالثعابين التي ستتلقاها وهي تفكر في حياتها مع شخص سلوكه شاذ!... الصدفة وحدها هي التي جعلتها تكتشف ما يُخفي عنها، جعلها تكتشف ما كانت تخشاه وكان في أعماقها مجرد استيهامات وتحليلات تتمنى في اليوم ألف مرة أن تكون خاطئة، لكنها حدثت: سماعها لمكالمة تلفون مشتركة بينه وبين رجل آخر وإبرام موعد في مكان معهود غير جديد، مكان ليس بمكتب أو مطعم انه مكان صالح للعيش ولممارسة كل ما يريدون إخفاءه عن الأنظار.

لم تصارحه، ربما لتظل محتفظة بخيط رفيع في كونه والد طفليها التي ستتحمل من اجلهما كل شيء، وربما لأملها في عودته إلى ما تتمنى أن يكون عليه. لم تكن الصدمة سهلة بالنسبة لها خاصة وهو يراها شاردة وبعيدة عنه على عكس عادتها معه لكنه لم يسأل، كان لها

الوضع هكذا أفضل، سؤالها سيفتح مواضيع لا يريدها! وشحوبها: "أيام وتتعافي" هكذا يقول في نفسه، أما هي فاستسلامها وان حاولت أن تُظهر غير ذلك وهي تُقبل طفلها أمامي قبل دخوله لفصله، مؤشراً لثورة عارمة في أعماقها للاستمرار الذي لا يمكن لأي شخص أن يتوقع اتجاهه غيرها!...

ما لم تخبرني عنه وعرفته لاحقا عن طريق الصدفة نتيجة الإشاعات التي لا ترحم أحدا في البلاد عن اهتمامها المبالغ بسائقها الذي يلبي لها كافة احتياجاتها، وصل أمر اهتمامها به إلى بناء ملحق خاص به للسكن في حديقة منزلها بحجة أن يكون تحت طلبها في أي وقت. ولأن المنافع متبادلة كما عَلَّمَتْ زوجها الحياة العملية في مجال التجارة فقد غض الطرف عن ذلك السائق الشاب الوسيم الخاص بزوجته وعاشا بسلام.

الم اقل أن هناك من يحيا كما يريد وفق ما يريد في إطار مفاهيمه وقناعاته!...

لا أعرف إن كانت الرصاصة التي اخترقت زجاج نافذة غرفته ذات مساء لتستقر في مؤخرة رأسه وترديه قتيلا في الحال دون معرفة الجاني هي النهاية المناسبة له، لكن ما اعرفه جيدا أن ن.ج قررت عدم الزواج مرة أخرى والعيش بسلام مع ولديها في ظل الثروة التي تركها لهم المرحوم!ومع ذات السائق

*****

لبيك يا أبو أحمد ضميرك نام وأنا ساهرة،
ما بش معي مرقد ولا خيمة على ظهر الوطن
أنا أطلبك حقي إذا فيك خير ذانا صابرة،
من غيرك المسئول ومن هو غير أنت المؤتمن؟
يا دولتاه وينو علي لولاه ما أنا صابره،
نفسي أقله عار في وجهك يذلوني الهين
واللي بإسم الدين صنفني عويره كافره،
وإبليس وأبو إبليس لابط في العمايم والدقن
يا أحمد بحجر الله قل لأبوك يمسح صابره،
أصبحت وصمة عار في وجهه وفي وجه اليمن

فاطمة العشبي

(ن، خ)

أرسلت لي ن،خ إيميل يحتوي على ثلاث ملفات مرفقة به. لم تكتب شيئا فيه. تركت الملفات الثلاثة تتحدث عن نفسها. الملف الأول كان عبارة عن قصة لنادية الكوكباني اسمها (ألعاب نارية لاحتفال فض بكارة) كانت ن، خ قد قرأتها عبر الانترنت سابقا وأرسلت لي عنوان الرابط الالكتروني لقراءتها بالعربية والانجليزية والفرنسية. اعتقدتُ إنها قصة لكاتبة يمنية أعجبتها لأنها عبرت عن حال كثيرات في المجتمع اليمني، يتزوجن في سن مبكرة ويعانين الكثير من هذا الزواج المبكر صحياً ونفسياً ومن عادات وتقاليد ترغمهن على تحمل ما لا يطاق، لكن إرسالها الآن له معنى آخر يجب أن أفكر فيه. فتحت الملف وقرأتها مرة أخرى (("العاب نارية لاحتفال فض بكارة" حتى لو علم بأن ما قام به سيدمرها، سيقضي على مشاعرها، سيقتل أرقى إحساس يمكن أن تناله أو تحلم به امرأة، وسيحرمها من أنبل متعة مدى الحياة... لم يكن ليهتم، لأنها باختصار لم تكن ضمن حساباته، رغم أنها ابنته (التي لا يعرف رقم كم هي! ومن أي زوجة، لأنه لا يحفظ ذلك إلا بعد تكرار الأمر عليه، أو حسب غلاوة أمها في عينيه...) فهناك مشاغل عديدة يقوم بها الشيخ، مشاغل تهم القبيلة، والناس، والجوار!...أما شئون أولاده فلهم من يهتم بها من الخدم المتخصصين بالنظافة والأكل والتعليم.

الغريب أن هذا التعليم كان يهمّ الشيخ كثيرا. كان حريصا على أن يتلقاه جميع أبنائه، البنات قبل الأولاد، وعلى يد أفضل الشيوخ، ومدرسي البلاغة والنحو والصرف. لكن عندما يتعدى الأمر كل ذلك، وتقع بين يديه رسالة إعجاب بابنته من شاب رفضت الإفصاح عن اسمه أو عن شكله ولونه، لسبب بسيط أنها لا تعرف: تم قذف الورقة إلى غرفتها ب"قوس" مجهول المصدر!

لم يفكر ولو لحظة أنها صادقة، رغم أنها لا تخرج أو تدخل إلا بمرافقين. لم يفكر لحظة أن يسأل الخادمة، كيف وجدت تلك الورقة اللعينة، التي لم تقرأها بعد ابنته المسكينة!؟ كل ذنبها أن اسمها كان ظاهرا فيها رغم "كرمشتها" وعدم وضوح الخط فيها...

ثارت ثائرته، لابد أن الأمر تعدى ذلك بكثير. بحث عنها، ابنته المجرمة التي لم تتجاوز العاشرة من عمرها! هاهي تلعب مع صديقاتها أمام المنزل، في الجزء الخاص بالنساء. التقطها من رقبتها كما يلتقط حشرة. ألجمتها المفاجأة، لم تسأل! أو تتكلم! لم تجد الفرصة لتستيقظ من الكابوس الذي بدأ للتو...

تهاوى فوقها هذا الجبل العظيم، شيخ القبيلة وحامي حماها. قام بتفتيشها، بتجريدها من ملابسها الداخلية، ليتأكد

بنفسه من عذريتها، من ذلك الغشاء اللعين الذي لم تكن تعلم عنه شيئاً حتى اللحظة... (تلك البكارة الذي يتقن فضها، وبسهولة، مبرهنا على فحولته التي لم يمسسها الدهر بسؤ، أو يظفر منها الزمن بشيء، وبمعدل بكارتين كل عام... هو معدل زواجه السنوي من أجمل صغيرات القرية، والقرى المجاورة)

المسكينة، فاغرة الفاه، مبحلقة العينين، لم تستوعب بعد ما يحدث!!! سارع بطلب خبيرة أغشية بكارة "مزينة[1]" ليتأكد أكثر وأكثر من شرفه الذي لم تلطخه هذه الحقيرة التي بدأت تعشق، وتحب، وتأتيها رسائل غرام أيضا. ولو فعلت لقتلها دون أن يحاسبه على ذلك احد، أو حتى يسأله احد!... بما في ذلك أمها الواقعة في غرام الشيخ، حتى "شوشتها"، والمستعدّة لعمل أي شيء حتى تكون من ضمن الأربع الزوجات الدائمات في عصمته، حال زواجه... الأم التي "حجرت[2]"عندما زفت الخبيرة إلى الشيخ برآة ابنته، وطمأنته على غشائها المصون، وعلى بكارتها العظيمة.

١ - "المزينة": هي المرأة التي تذهب مع العروس إلى بيت زوجها، تنتظر أمام الباب حتى يتم تسليمها خرقة لتعود بها لأهل العروس ويتم بعدها احتفال الخرقه..

٢ -"محجرة": هي الزغاريد أو الزغرودة ولكن بلهجة المناطق الشمالية عموما.

رغم كل هذه التأكيدات إلا أن الشيخ لم يقتنع أبدا. (إقناع الشيوخ، بأي شيء تافهٍ صعب جدّاً، فما بالك بأم الأسرار والخفايا). قرر عندها أن يقطع الشك باليقين ويقوم بتزويج ابنته، وعلى وجه السرعة! أي اليوم التالي مباشرة!!! وبمن؟ بأحد أتباعه المخلصين، الذي يمكنه أن يخرس لسانه فيما لو كان قد اخطأ فحصه لبكارة ابنته شخصيا، وفيما لو كانت" المزينة" تكذب بسبب خوفها من عقاب الشيخ...

كانت القبيلة بأسرها تعرف ما يدور من أمور احتفال زواج بنت الشيخ... عداها، تم اقتيادها إلى غرفة نوم تم تجهيزها للعروس، التي لم تفق من صدمة الأب، لتقع في صدمة من نوع أخر. صدمة أن يقفل باب واحد عليها وعلى رجل لا تعرفه، تسمع اسمه، وبأنه خادم أمين للشيخ. صدمة أن يقترب منها، أن يلمسها، أن يعبث ببراءتها، أن يستقبل دموعها بشفقة!... قبل أن يقرِّر تأجيل ما ينتظره الشيخ خلف الباب إلى يوم آخر.

هل أنت مجنون؟...الآن يا مغفل!

هكذا هب في وجهه الشيخ، ركل الباب بقدمه، وأمر بإحضار حبل، للمتمردة، وبيده أوثقها من يديها وقدميها... تلذذ بسماع صراخها، استغاثتها التي لم تجد لها مُنقذاً، والوصول بجرحها إلى أقصى درجات الغور... أجبر خادمه على اغتصابها

أمامه، ليرى بأم عينيه دماً أحمراً يسيل أمامهـا! رآه أخـيراً، رآه كثيفاً دافقاً يخرج من أكثر أحشائها غورا...

بدت عليه علامات الابتهاج، السعادة، الرضا، الفخر! تم أخيرا فض ذلك الغشاء الذي أرهقه، وحيره معرفة وجوده من عدمه، وأثقله بهمٍّ منـذ يـوم ونـصف، منـذ وصـول الرسـالة المشئومة بين يديه تحديداً!!!

ها هو يقفز فرحا، يتجـه نحوهـا يقبلهـا، ابنتـه الـشريفة العفيفة، يعتذر لها عما بدر منه، كان يجب عليه أن يتأكد بأنها لن تخذله... أعتذر لها وجسدها ما زال ينتفض من الخوف، ودمها يبقبق ساخنا في كل أرجاء القبيلة. قرّر أن يحتفل بـذلك. أمـر بإحضار أكبر كميّة مـن الألعـاب الناريـة لتفجيرهـا في سـماء القرية، فوق رأس الجبل، على بعد خطوتين من السماء...

ارتفعت زغاريد النسوة لنصف يوم حتى وصلت القبائل البعيدة، وتعالى صوت الرصاص حتى صم الآذان، نظرت في وجهه ومرارة العالم مرتسمة على ملامحها. لم يكترث، أو يؤنبها على تلك النظرات التي تبصق في وجهه. كلّ شيء لا قيمة لـه أمام إنجاز بكارتها العظيم.

قرر الشيخ، وسـط الاحتفـالات الـصاخبة، تـلافي هـذه المعضلة بتزويج شقيقتها الصغرى في سـن الثامنـة عـلى أحـد

رجاله أيضا، على أن يتم الدخول بها في سن الثانية عـشرة. لا يريد أن يحيا هذا الهم من جديد.

لم يستطع صبرا الرجل الذي حمّله الشيخ كاهل الحفاظ عـلى بكارتها أربع سنوات. بمنتهى الهـدوء ذهبـت الـشقيقة إلى أبيهـا لتحكي له ببراءة أن رجُله قد ادخلها "محراس[٣]" المزرعة عندما ذهبت لتحضر له "غـواث[٤]" اليـوم، وسـبَّب لهـا جرحـاً بـين فخذيها، أسال دمها، بشيء لم تستطع تمييزه من شدة الظلام...

بحث عنه الشيخ طـويلا ذلـك الخـائن الـذي لم يـرَ وجهـه للأبد....))

فتحت الملف الثاني الـذي كـان عبـارة عـن صـورة لفتـاة يمنيـة أسمها "نجود" بملامح يمنية خالصة، عيـون بريئـة وجـسد هزيـل، وبشرة تشبه القهوة بلونها، وتحتها خبر صحفي يقول: زوَّجهـا والـدها في سن ثمان سنوات خوفا من تهديـدات تلقاهـا بخطفهـا إثـر مـشاكل عائلية برجل يكبرها باثنين وعشرين عاما، عانـت مـن معاملـة الـزوج السيئة وممارسته للجنس معها بطريقة مؤذية نفرتها منه ومـن قبولهـا لمـا

٣ - "المحراس": هو غرفة واحدة وسط مزارع القات خاصة، يتم فيها الحراسة، ليل نهار، يتناوب الحراس طوال اليوم، ويتم إيصال الطعام إليهم وفي الوقت المحدد...

٤ "غواث": هي الوجبة التي يتم تناولها وقت الضحى. نظرا لان أهل القرى يتناولون الإفطار باكرا، فالغواث بين الفطور والغداء.

يفعلـه. والـدها لم يـسمع شـكواها وفـيما عـدا خالهـا الـذي شـجعها للذهاب للمحكمة بنفسها لطلب الطلاق من القـاضي أو فـسخ عقـد زواجها. وفي سابقة أولى في اليمن طلقها القاضي بعد أن دافعـت عنهـا المحامية " شـذى نـاصر " ونالـت حكـماً بـالطلاق لـصالحها بخلعـه وإعطائه المهر الذي كان قد دفعه لها.

تم اختيار جود في عام ٢٠٠٨ لتكريمها ضمن عشر نساء في العالم أسهمن في إحداث تغيير في مجتمعـاتهن، في نيويـورك ومن ثم اختيارها من بين العشر كـ"امرأة للعام" تجمع أموالا لصندوق إنقاذ فتيات أخريات من الزواج المبكر...

صورة نجود تحكي طفولـة لم تـنعم بهـا كـسائر الفتيـات بولوجها عالماً مجهولاً لا تعرف عنه شيء لتخرج مـن تجربتهـا بمرارة قد لا يشعر بها غير من عانى منها كصديقتي ن، خ...

الملـف الثالـث كـان عبـارة عـن رسـالة موجهـة لي، تفـيض ألم ومرارة، إنها قصة أخرى تحكيها ن، خ عن نفسها وعن تجربتها تقول:

((أنا واقعة في المنطقة الوسط، بين قصة نادية الكوكبـاني وبين قصة نجود وهذا معناه أن الألم افترسني قـضمة قـضمة. كنت ما زلتُ العب أمام منزلنا مع أخوتي الذكور، كانوا أصغر مني ومع ذلك لهـم مطلـق الحريـة في منعـي مـن اللعـب مـع صديقاتي متى أرادو، ليس هـذا فحـسب بـل أمـري بـالعودة

للمنزل في أي ساعة يشاءون. أما إذا تجـاوزتُ سـاحة منزلنـا باتجاه منزل صديقتي فهذا يعني أن أضرب وأحرم من الخروج للعب لعدة أيام. كل هذا وأنا لم أتجاوز السادسة بعد...

لم يكـن أحـد يجيبنـي عـلى أسـئلتي المتزاحمـة في جمجمتـي الصغيرة: لماذا أنا أُحرم وأخوتي لا يحرمون من اللعب؟ ولماذا لهـما حق تأديبي وضربي سواء كان الأكبر مني بعـام أو الأصـغر منـي بعام؟ أمي لم تجبني على أسئلة كثيرة وتكتفي بالأوامر فقط. قالت معبرة وبصرامة عن أحد أوامرها "لا تـدعي أحـد مـن الرجـال يلمسك أو يزيل عنك سروالك" ولم تقل لي لماذا أيضاً!؟

عندما أخبرتها ما حدث لي عند زيارة أقاربها لنا من القرية الأخرى ضربتني بقوة وعنفتني رغم أن الرجل لم يزل سروالي كما حذرتني، بل استغل عـدم وجـود الأطفـال مـن حـولي في "الدهليز " والتقفني من الأرض ليلاعبنـي، وضـعني عـلى حِجره وبدأ في مداعبتي، قبلني وهو يبتسم على خدي الأيمـن والأيـسر، أحكـم قبـضته عـلى جـسدي بذراعيـه، اسـتمر في ملاعبتي بتحريك ساقيه وهدهدة جسدي عليها، شيءُ صلب استقر بين فخذي، لم يشعر بفزعـي ولم يـشعر بدهـشتي أثنـاء تماديه، ليصبح صـعودي وهبـوطي سريعـا، غـير قـادرة عـلى التملص من بين ذراعيه أو سؤاله عما يفعله بي!...

الدهليز: صالة استقبال

بدأ يصدر صوتا غريباً، أشبه بفحيح الثعبان أحكم قبضته عليَّ، ضمني بقوة أكثر حتى كدت اختنق، بعدها راح يلهث كالكلب ليستعيد أنفاسه التي لا اعرف فيما أرهقها.عاد لوجهه الهدوء والابتسامة وهو يقبل خديَّ مجددا وينزلني من على ركبتيه ويطلب مني الذهاب لمواصلة اللعب.

لم تفتقدني أمي في تلك الظهيرة بسبب انشغالها بضيوفها، وعندما جاء موعد نومي شعرتْ أنها لم تقم بغسلي طيلة اليوم. صرختُ من الألم حال ملامستها لأماكن في جسدي، اندهشت وسألتني هل وقعت على الأرض؟ أجبتها بالنفي، هل تشاجرتِ مع أحد؟ أجبتها بالنفي أيضا، إذا ما بك تتألمين؟ رحتُ أحكي لها ما حدث لي من أحد أقاربها في دهليز المنزل!!! لم تكمل غسلي، أخرجتني بسرعة من الحمام إلى الغرفة مباشرة، راحت تبحث في ملابسي عن أثار شيء معين لا أعرف ما هو! ولما لم تجده تنفستْ بعمق وهي تطلب مني إعادة سرد ما فعله بي...

فعلتُ، وفصلتُ لها ما حدث مع التمثيل بحركاتي البريئة والغير مدركة لكل ما فعله. رددتْ بعد أن انتهيت" الحمد لله، لا داعي لإثارة الفضائح" واكتفت باستدعاء جارتها وصديقتها المقربة لتضعني مجددا على الأرض وتطيل النظر والتدقيق بملامسة ناعمة لما بين فخذي، لتؤكد لأمي وتطمئنها

أن غشاء بكارتي بخير رغم أثار المحاولة، وحرص الرجل أن يقضي حاجته دون المساس بها.

لم أفهم ما يدور عندها ولم اسأل ولم تخبرني أمي أي شيء غير تحذيرات بأن لا يتكرر هذا ثانية وان اصرخ إذا فعل بي احد ذلك مجدداً لتدخل "لا!..." جديدة إلى "لا!..." السروال دون أن اعرف لماذا؟

لم أكن الوحيدة التي تخشى عليها أمي، ذات مساء تأخر أخي الذي يكبرني بعام بعد أن أدى صلاة العشاء في المسجد، راحت تؤنبه على ذلك وتفتش سرواله أيضا بل وتتفقد عضوه ومؤخرته. بعد أن حكى لها أنه هرب من بين يدي إمام المسجد رافضا أن يتأخر معه ليساعده في تنظيف المسجد بعد خروج المصلين. سمع بعض أصدقائه أن لعب الإمام معهم في الظلام مؤذي، يجعلهم لا ينامون من الألم الذي يصيب مؤخراتهم ومن الفزع الذي يغشاهم!...

شعرت بالسعادة أن يحدث له هو ما حدث لي من تفتيش! لم تعرف أمي أنني كنت أراقبها وهي تستمر في تأنيبه وتنبيهه عما يمكن أن يحدث له أكثر مني. فهم هو ما أرادت تنبيهه إليه، أما أنا فلم أفهم!...

بعد أقل من شهرين ذهب أخي إلى "المعلامة" وطلبتُ من أمي أن تسمح لي بالذهاب معه، لكنها رفضت وقالت أنتِ بنت! سألتها ماذا يعني بنت؟ وما يعني ولد؟ لم تجبني ولم يقم احدٌ بإفهامي ما جناية البنت لتظل في المنزل، وتحرم من الخروج ومن التعليم ومن اللعب؟ لماذا لم يخلقني الله ولداً إذا وأنا عبدته وهو ارحم بي من كل البشر من حولي كما تقول أمي؟ ولماذا جعلني كذلك وهو لا؟ عندما كررت سؤالي عليها صفعتني على وجهي وقالت: استغفري الله ولا تتحدثي في هذه المواضيع ثانية.

بعد عامين سألتني جارتها، ذاتها التي فتشتني، عن عمري فأجبتها لا اعرف! تطوعتْ أمي بالرد وقالت تسع سنوات، ردت: "ما شاء الله قد أنت مره " بعدها بأسبوع غَسَّلتني أمي جيدا وألبستني ثوبا جديدا، لونه أخضر وله تطريز كثيف يلمع بقوة في أماكن متفرقة منه، وقالت لي: اليوم زفافك، ستتزوجين ابن جارتنا. قلت لها: ما معنى ذلك؟ قالت: انك ستكونين مسئولة من رجل آخر غير والدك وشقيقيك هو "زوجش" ستعيشين معه في القرية المجاورة، لديه منزل كبير أجمل من منزلنا، وستأتي لزيارتنا إذا سمح لك بذلك بين فترة وأخرى!...

المعلامة: مكان ملحق بالمسجد أو منفصل يتلقى فيه الصغار تعليم القرآن الكريم.

قد أنت مره: أصبحتِ امرأة.

لا أريد الزواج يا أمي؟ صفعتني مجدداً وهي تقول: "المره ما لها إلا الزوج أو القبر"رحت أبكي بقوة وبدأتُ في الصراخ لا أريد، لا أريد الزواج! تجمعت النسوة في حجرتي وهن يحاولن تهدئتي. يلمن أمي أنها لم تخبرني قبل ذلك بتفاصيل كثيرة. استمريت في الصراخ والبكاء وأني لا أرغب في الذهاب إلى القرية المجاورة وترك بيتنا وقريتنا وأخوتي وأبي وأمي.

انزويت في ركن الغرفة دون أن أكلم أحدُ، غبتُ في نوم عميق. في المساء، علت الزغاريد، أيقظتني مفزوعة. أمي تقول: جاء رجال القرية المجاورة لأخذك هيا أنهضي! علا صوت الرصاص، صم أذنيَّ. أمي تبدل ملابسي، تردد أن أبي سيضربها وربما يطلقها إذا لم تفعل، دعت لي بالهداية، والحياة الهانئة مع زوجي في القرية الأخرى وهي تدسني في ذلك الثوب الكبير الذي أخفى تفاصيل جسدي الضئيل وجعلني مسخ امرأة!

في القرية المجاورة كان صوت الرصاص أشد. وضعوا سيفاً ذهبيا على عتبة المنزل وذبحوا خروف سال دمه الحار على ذات العتبة أنزلوني من على الجَمَّل لأمُر من عليها، بَرَّكة بيتي وبَرَّكة حياتي القادمة. أدخلوني غُرفة مظلمة إلا من ضوءٍ خفيفٍ

المره: المرأة.

لمسرجةٍ في ركنها البعيد. لحظات، دخل إليها رجل ضخم ربما لو وقفت إلى جواره لما وصلت إلى ركبتيه، امسك برأسي وراح يردد ما تيسر له من الفاتحة ومن أدعية لم افهم منها شيء.

دوت صيحتي بعد لحظات لتحدث جلبة في المنزل الذي ينتظر حدثا سعيدا لا اعرف ما هو. فتح الباب وراح يصرخ لأمه بأني قدُمت، لا حركة أو نفس يصدر مني؟ راحت تقلبني يمينا وشمالا دون حركة، استدعت إحدى النساء الخبيرات في هذه الأمور، طمأنتها وقالت أن لا خوف عليَّ. وأن أبني كان قاسيا ولم يراعي صغر حجمي أو يُهدأ من خوفي وربكتي. في ليلة زفافي.

صباحا طلب أبي أثناء زيارته لي مع إخوتي من زوجي أن لا يعاشرني لفترة زمنية حتى استعيد صحتي، المهم انه اطمئن على شرفه وشرف العائلة من الليلة الأولى. كنت ضيفة عمتي أم زوجي لليال كثيرة كانت تمنع ابنها من الاقتراب مني رغم إلحاحه وان هذا من حقه.

استعدت صحتي وأدركت أن لا مفر من هذه الحياة وان عليَّ أن ارضخ لها وأتقبلها. حال إغلاق الباب علينا مجددا فعل ما فعله سابقاً، كنت بين يديه كتلة لحم اخترقتها سكين حادة فقسمتها لنصفين، لم اشعر بنفسي إلا وأنا مسجاة في غرفة عمتي غير قادرة على الحركة، غير قادرة على الكلام....

مسرجة: نوع من الشموع بالطريقة المحلية

الجميع كان يؤنبه على فضاضة ما فعله بي، وكأنه السبب، متناسين صغر سني وضعف جسدي واعتبروني وعاء ضعيفا لشهوته مقابل فحولته الذي يفتخر بها. لم أتكلم من يومها، لم أكل أو اشرب، اعترضت بطريقتي، إذا كانت النتيجة في الحالتين موت محقق فلأمت بالطريقة التي أريدها أنا لا التي يريدها هو. جاءت أمي وأبي وأخوتي لزيارتي بعد شهرين من زواجي، رأوا خيال مآته أمامهم. انتحبت أمي من البكاء وهي تقول "ماذا فعلت بابنتي، أصبحت ضامرة، لم اعرفها؟" قرر أبي معالجتي في صنعاء لينقذ حياتي، لكن قبلها طلب منه تطليقي لأشعر بالأمان وبعد شفائي لكل حادث حديث.

في صنعاء وبعد أن زالت أثار جراحي الغائرة، لم اقو أيضا على الحركة أو الكلام. كان شفائي معناه أن أعود لحياتي السابقة أو لزوجي! لذلك رفضت الشفاء من أعماقي واستمريت في عدم الحركة وعدم الكلام راغبة في الموت لأنه الخلاص الوحيد لما أنا فيه.

انتقل أبي وأمي إلى المدينة وبقى شقيقيَّ في القرية لمراعاة الأرض. لم يقصرا في رعايتي رغم ضآلة جسدي وضموري يوما بعد يوم. وكأن الذنب قد فعل فيهما ما فعل. ما أثار اندهاشي هو أبي الذي أصبح حنونا ودودا أكثر من اللازم وكأني احد أولاده الذكور. كثيرا ماتمنيت أن يحتضنني ويقبلني كما يفعل معهم منذ كنت صغيرة!.وها هو يفعلها الآن لكن دون أن اشعر أنا بها أو بحنانه المفاجئ.

زار فريق طبي أمريكي في بداية السبعينات بعض المستشفيات التي كانت قليلة في العاصمة صنعاء، لمعالجة حالات كثيرة عضوية ونفسية وتم عمل تقرير خاص عن الحالات التي تستدعي سفرها معهم وعلى نفقتهم الخاصة لأمريكا لعلاجها ومن ثم عودتها. كانت حالتي واضحة للدكتور النفسي الذي تولى علاجي يعرف وضعي الصحي جيداً بعد أن شرح له مترجم ما مريت به من مأساة نتيجة زواجي في وقت مبكر، والعمليات التي أجروها لي لمعالجة أعضائي الداخلية التي اختلطت ببعضها البعض بسبب قسوة ممارسة زوجي للجنس! بدء يبحث عن وسيلة يجعل أبي يوافق على سفري مع الفريق لاستكمال العلاج.

وصلا أبي وأمي إلى حالة يأس من حالتي ومن أن لا أمل لي في الشفاء، لذلك وافقا على إرسالي مع الفريق الطبي دون مرافقتي.مع أن ذلك كان ممكناً لواحد منهما، وهذا ما قتلني وجعلني أموت قبل أن اذهب للتداوي في أمريكا. استسلمت لمصيري الذي لا اعرف عنه شيئا لكنه في النتيجة أفضل مما ينتظرني فيما لو شفيت دون سفر. طمأن البروفيسور النفسي أبي وأمي أنني سأعود لهما أحسن من قبل قادرة على الحركة وعلى الكلام وعلى الحياة.

حال وصولي أمريكا تم وضعي في مصحة نفسية، لم أكن أعرف اللغة الامريكية، لكن معاملتهم الحانية واهتمامهم بي

جعلني أتحسن بسرعة شديدة استغرب لها البروفيسور تماما كما استغرب عدم رد أو تفاعل أبي مع التقارير التي كان يرسلها ليطمئنه حتى فقد التواصل معه. غير عنوانه وعاد ربما إلى القرية. ها هو قد تخلص أخيرا مني ومن عبئي الذي يحمله على كاهله منذ ولادتي وحتى سفري، ها هو قد وجد مبررا لعدم سؤاله عني. وربما اخبرهم حال عودته للقرية أنني مت بعد أن استعصت حالتي على الأطباء.

وها أنا مقيمة في نيويورك منذ ذلك الوقت. تبناني البروفيسور وقام بتعليمي رغم سني المتأخرة ووجدت منه حنان العائلة الذي فقدته. كان مراعيا لوضعي الصحي والنفسي والديني أيضا. ولم يرغمني على شيء، كنت لديه إنسانه استحق الحياة. لذلك كان حريصا على أن أتزوج عربي ومسلم. دخل في صداقات مختلفة مع جاليات عدة حتى تم له ما أراد تزوجت يمني هاجر منذ زمن لأمريكا. صغاري الأربعة أصبحوا رجالا ونساء ولكل منهم حياته الخاصة في بلد الحرية والإنسانية. لم يطلبوا يوما العودة لليمن أو يشعروا يوما بالحنين إليها. أشاهد معهم الآن نجود وهي تحكي قصة زواجها واردد في نفسي هل آن الأوان لإخبارهم بما مضى من حياتي أم لا؟؟؟

حينما أسمح لنفسي
أن أكون نفسي
أتفاجأ:
بأن الورد على الشرفة
تبسم
والليل في واجهة المدينة
تأخر
أكثر من اللازم
والقمر في مائدتي
اقترب
أكثر من اللازم
لذلك قررت:
أن اسمح لنفسي
أن أكون نصف نفسي
حتى لا أحس الأشياء
أكثر من اللازم

سوسن العريقي

(ن. ق)

فكر مليا: هل يستحق الاحترام مجتمع يتحول بأسرة لعين كبيرة تتسلل النظر من ثقب حجرة نومك؟ لا اعتقد! عفوا، أعني: هي لا تعتقد! لذلك فعلت ما تريد هي لا هو!...

الصدفة وحدها هي التي جعلتني أكتشف ما حاولت جارتي العزيزة إخفاءه عني وعن كل الدنيا من حولها! اكتشفت في هذه الصدفة أيضا كم أنا فضولية لأني لم أتباطأ عن بذل أي جهد لمعرفة أدق تفاصيل اكتشافي هذا، ولم يهدأ لي بال حتى تمكنت من فك كل رموزه، ومعرفة سبب غموضه!...

هل أثارت هذه المقدمة فضولكم انتم أيضا؟ هل أنتم في غاية الشوق لمعرفة ما حدث؟ هل ستطلبون مني حكايتها لكم وبأسرع ما يمكن؟ لن أطيل عليكم، ها أنا أفعل:

ذات مساء بارد، لم أعرف فيه سببا لجفاء النوم لمآقي! رغم تعب اليوم! وأنا التي تعودت النوم باكرا فيما عدا حالات نادرة لعملٍ ما، أو قراءة ما...

تقلبت في فراشي قليلاً دون فائدة، قررت أن أشغل نفسي بشيءٍ ما حتى أشعر بالنعاس. غادرت غرفتي، وتوجهت إلى الطابق الثاني لمنزلنا، تحديدا إلى الحجرة المطلة على الشارع، والتي لم تكن يوما مسكونة لهذا السبب، وأصبحت أحيانا

للضيوف وأحيانا للمناسبات، لكنها في الغالب تنعم بهدوئها أمام ضجيج الشارع والمارة!...

أطفأت الأنوار وفتحت النافذة، لاستمتع بهدوء الشارع في تلك الساعة من الليل. لم تكن متأخرة، لكن ليل صنعاء هكذا، تخلو شوارعها مبكرا، كأن لا حياة فيها إلا من رتابة ضجيج المرور السريع للسيارات، وأنات ألم ساكني الأرصفة من قهر الحياة!...

أضواء المنازل تثير الفضول للتساؤل عما يحدث داخلها. هنالك أضواء قوية وأخرى خافته. أطلقت لخيالي العنان في تخيل ما يحدث داخل هذه المنازل وفق هذه الأضواء. لا ادري لماذا ارتجف كلما مر على عيني ذلك الضؤ الأحمر الخافت من بعض الغرف المتناثرة حولي، إلى أن أثار انتباهي وصول جارتي بسيارتها في تلك الساعة!!! تواريت عن الأنظار حتى لا تشعر بوجودي، ليس بغرض مراقبتها بل بغرض عدم إزعاجها بأن هناك من يرصد عودتها في تلك الساعة وبغرض عدم إفساد متعة تلك اللحظات التي انشدها...

نظراتي ليست مركزة باتجاهها لكن هناك ما جذب انتباهي في مقعدها المجاور ظل بلا ملامح بدا أكثر وضوحا ككيان حال انطفاء أضواء السيارة!!!... اتسعت حدقتا عيني دهشة

وأنا أرى شابا ينزل منها بخطى مسرعة بعد أن تناول منها المفتاح باتجاه الباب وهو يتلفت يمينا ويسارا قبل دخوله المذهل بتلك الخفة كما يفعل اللصوص!... تبعته بالسرعة نفسها وهي في قمة ارتباكها، بدا ذلك من تلفتها في كل الاتجاهات أكثر منه، قبل أن تدلف منزلها بحذر المحاربين لتكون في أمان تام...

صعقت من كل ما جرى أمامي منذ دقائق، لم استوعبه بسهولة في أول الأمر! بدا لي الأمر أشبه بمغامرات الأفلام، ربما لغرابته وربما لعدم توقعي له بالمرة، وربما لأنه كان آخر شيء يمكن حدوثه في حارتنا، وربما في المدينة بأسرها!...

ها أنا قد صعدت غرفة الدور الثاني لأغير من مزاجي حتى استطيع النوم، فحدث لي ما جعل النوم يصبح صعب المنال بل مستحيلاً الليلة...

استرجعت ما حدث في مخيلتي مجددا، لم اسمع عن جارتي شيئا بعد طلاقها الذي تم بعد أن عانت كثيرا (كما سمعت) من بخل زوجها، واعتماده على راتبها رغم دخله العالي، ليس هذا فحسب، بل تطاوله أيضا لضربها أمام أولادها من أدنى مشاجرة بينهما، متخذا ذلك وسيلة تفاهم لتأديبها كما كان يقول وبفخر!

ما لم تستطع أن تتحمله هو اللغط الدائر حوله عن علاقاته الكثيرة بالنساء وعن إشاعة شبه مؤكدة من قرار زواجه بأخرى، كان بإمكانها احتمال أي شيء إلا الخيانة كما تقول...

احتفظ بولديها بعد الطلاق، تنازلت له عن حضانتهم، أعتقد أنها لن تتخلى عنهم بسهولة ليرغمها على الاستمرار معه، لكنها في المقابل اقتنعت بأنه هذا أفضل لهم صحيا ونفسيا. عند زيارتهم لها في آخر الأسبوع لا تتأخر عن إسعادهم والترفيه عنهم، تعتذر عن أية مناسبة في هذا التوقيت، تعوضهم عن الفترة التي لا تراهم فيها بكل طاقتها.

ما زال عقلي مشغولاً بما حدث، رويدا رويدا وبعد زوال المفاجأة بدأت استوعب وافهم بشكل كامل لما فعلت ذلك، وأدرك رؤيتها لهذه العلاقة التي أعلم أنها شرعية، ويقيني هذا مرده سبب بسيط جدا في أنها لن تقبل بغير ذلك في ظروفها ووضعها فيما لو انكشف الأمر! حتى لو بالصدفة كما حدث معي اليوم!!!

إنها باختصار علاقة تناسب ظروفها، إشهارها ربما يعني لها مزيدا من المشاكل مع طليقها قد يؤدي لحرمانها من ولديها، إضافة إلى أنها بذلك تلبي احتياجاتها النفسية والجسدية معا، ستشبع عاطفتها بالحب الذي تحتاجه و يلاءمها حتى لوا تخذ صورة أخرى لا ترضي المجتمع!!!...

لم اسأل نفسي فيما إذا كان ما فعلته جارتي صحيحا أم خطأً لكنني احترمت قرارها واختيارها لحياتها كما تريد.

ومع ذلك لم يقف فضولي عند هذه النقطة، لكنني كنت أتسلل لياليَ كثيرة إلى حجرة الدور الثاني، أوفق أحيانا برؤيتهما معا، وأحيانا أراه يحوم في الحي مغتنما أية فرصة لخلوه من المارة حتى يدخل منزل الجارة العزيزة وهو مطمئن.

ربما لذلك أصبحت الجارة في الفترة الأخيرة: مقلة في علاقاتها الاجتماعية بنساء الحي، شديدة التجاهل لطرقاتهن على بابها رغم وجود سيارتها في الخارج. مدهشة في خلق الأعذار لعدم سماعها للجرس، الذي يعاني من ماس كهربائي أحيانا، ومن عدم سماعها له أثناء قيلولتها أحيانا أخرى...

كنت الوحيدة التي اسمعها بمنتهى اللذة وعلامات تصديقها بادية على وجهي، وفي أعماقي قهقهات عالية تتصارع لتخرج، لكنها تعود أدراجها وهي تردد: كاااااااااذبة!!!...

*****

إنها لم تبادر بالكلام، هكذا تعلمت!...
أقترب منها، بادرها باللمس، هكذا تعلم!...
جفلت...
ابتسم...
إنها غير معتادة على اللمس، هكذا تعلمت
هو معتاد على اللمس، هكذا تعلم
والأجمل أنه يلمس بحضارة...
لم يفترسها كالوحوش البرية
تمر الليالي...
هي تعتاد على اللمس، يتململ الجسد، يحاول التعبير لكنه بعد لم يفهم كل هذا الحوار الجديد...
هو يتنهد، يتنفس الصعداء، أخيراً بدأ الحوار يتناغم، إنه معلم صبور ومتحضر إذا ما قارن نفسه بآخرين لا يفهمون من فن الحوار إلا لغة الهجوم والانقضاض، لأنهم هكذا تعلموا!!!
تمر الأيام... ماذا بعد الجسد؟
كيف يعلمها تناغم الروح؟
هذا الصمت يخنق...
يتنهد...
جسدها مستلقٍ على الجانب الآخر، جميل
كلها جميلة، لماذا كل هذا الحزن الآن؟
عم ماذا كان يبحث

حنان الوادعي

(ن. ي)

عندما جاءتني ن.ي للمدرسة لم يكن لدي أية فكرة عن حياتها بعد زواجها حال انتهائها من المرحلة الإعدادية. لا تستغربوا ولا تفغروا أفواهكم دهشة لأن هذا حدث بالفعل حتى أنها لم تنهِ السنة. تغيبت عن المدرسة لمدة أسبوع وعندما سألناها بعد عودتها فاجأتنا جميعا بأنها تعد العدة لزواجها. عاد ابن عمها من أمريكا بعد أن أصبح مهندسا ويريد الزواج من ابنة عمه، هكذا درجت العادة في الأسرة (بناتها لعيالها) أي أن الزواج يتم فيما بين فتيات ورجال العائلة ولا يدخل على بناتهم رجل غريب أو على رجالها امرأة غريبة. لم يهتموا بالأمراض التي يتوارثونها وأصبحت تزداد يوما بعد يوم: ضعف نظر، هشاشة عظام، حَوَّل، عقم...

لم يهتموا أيضا بموافقة البنات أو رغبتهن في الزواج أولاً!!!

لم تعترض ن.ي على ابن عمها لأنها خطبت له منذ ولادتها، منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره. كبرت وهي تسمع خبر هذه الخطبة كأنها جزء من حياتها، من أكلها وشربها، من نومها وصحوها ومنامها، من خروجها ودخولها للشارع، للمدرسة، للنزهة، لزيارات الأهل والأقارب!...

لم تتخيل نفسها يوما لغيره أو حتى فكرت في شخص غيره. لم تسمع أن أحداً من شقيقاتها اعترضت أو اشترطت إكمال تعليمها لتفعل هي! لم تسمع أن إحدى بنات عمها تمردت على شيء أو طلبت شيئاً لتفعل هي!...

طُلب منها الانقطاع عن المدرسة والاستعداد للزواج خلال شهر، ففعلت! ابن عمها جاهز. عاد بشهادته في الهندسة من أمريكا. دفع لها مهرا كبيرا، أثث لها منزلا فخما، هو أولاً وأخيرا ابن عمها الذي سيقدرها ولن يتركها تحتاج إلى شيء، كما قد يفعل بها الغريب، ماذا تريد بعد هذا كله؟ لا شيء بالتأكيد!... أكيد من وجهة نظرهم لا شيء!. ذهابها للمدرسة كان تسلية حتى لا تشعر أنها مختلفة عن البنات في محيطها، من جيران وصديقات ومعارف!.

أصيب مدرس اللغة العربية المصري الجنسية بالدهشة وهو يسأل عن سبب غيابها...

ستتزوج يا أستاذ!!!

؟؟؟

دعت الفصل بأكمله على حفل زفافها!...

إيه! مين اللي حتتجوز؟

ن. ي يا أستاذ!

العيله دي؟ تتجوز؟ أزاي دي كانت بتتنطط في الفصل لغاية امبارح؟...

كانت قهقهات الطالبات العالية في أرجاء الفصل حال سماعهن لجملة الأستاذ هي آخر ما ربطني بـ ن.ي.

ها هي اليوم أمامي، لم يتغير وجهها كثيرا. أصبح أكثر نضجا، طالت قليلا عما كانت عليه وأصبح جسدها جسد أنثى مكتملة بانحناءاته المختلفة، عكس مغادرتها لنا كان كل شيء فيه بلا ملامح، كانت "عيله" على قول الأستاذ!

هي أمامي اليوم امرأة ناضجة، هادئة في كلامها منطقية في طرحها للموضوع الذي جاءتني من اجله بشكل أدهشني. حتى أنني سألتها فيما إذا كانت قد أنهت تعليمها! واندهشت أكثر بأنها لم تكمل تعليمها لكنها لم تتوقف عن القراءة في كل شيء ومتابعة كل جديد، عوضت بالقراءة عن قوانين الأسرة بعدم الاستمرار في التعليم بعد الزواج. لم يكن الأمر يتطلب سوى توفير الكتب التي تطلبها لتصلها في الحال ما دامت لن تخرج من بيتها.

إلى جوارها وهي تحدثني فتاة تشبهها وتقريبا في نفس السن الذي غادرتنا فيه لتتزوج. كانت أسرع مني وهي تجيب على سؤال لم أطرحه بعد، وعلامات استفهام كثيرة لزيارتها لي بعد انقضاء ما يقارب العشرين عاما...

إنها ابنتي "زال الهم"...

طلبتْ منها أن تسلم عليَّ وهي تقول لها: سلمي على خالة، لكن لا تنسي أنها المديرة، قبل أن تطلب منها الانتظار لدى السكرتارية خارج مكتبي.

كلمة "خالة" جعلتني أشعر بحميمية تجاهها لتَذَكُّرِ أجمل أيامنا معا. تظل علاقات الطفولة متجذرة في كياننا ومحركة لمشاعرنا كلما هبت نسائمها على خيالنا مهما كبرنا. توجهت لها وكلي رغبة صادقة وفضول أيضا لسماعها...

أطلقتْ زفيرا عالياً كمن يطرد عنه عبئا ثقيلا قبل أن تبدأ في سرد تفاصيل حكايتها: جئتك اليوم يا صديقتي لأحكي لك الكثير عن حياتي منذ غادرتكن في الفصل قبل عشرين عاماً تقريبا:

لم يكن لي خيار في رفض الزواج كما تعلمين من ابن عمي، أنا حتى لم أفكر مجرد التفكير في ذلك. سارت الأمور كما رغب الجميع من أفراد الأسرة في تزويجي من ابن عمي وأنا لم أتعد الرابعة عشرة بعد.

بدا لي كل شيء غريباً في البداية، لكني تعودت بعد ذلك الحياة مع رجل لا اعرف إن كنت أحبه أم لا؟ لكن ما كنت اعرفه جيداً انه ابن عمي وان خدمته وطاعته واجبه عليَّ في كل ما يريد أو يطلب!!!

تعامله الطيب معي كأب وحنانه واحتماله لعدم تقبلي له في البداية على الفراش جعلني اقدره، وزاد من تقديري واحترامي

له وهو يدور بي من طبيب إلى طبيب ومن مستشفى إلى آخر لمعرفة سبب تأخري في الحمل بعد سنتين من زواجنا.

لم يقتنع بكلام الأطباء من أن صلة القرابة التي تربطنا هي السبب وان الأمر في حالتنا هو مسالة وقت لأن لا موانع واضحة وصريحة لعدم الإنجاب وأن لا نقطع الأمل. جربنا الوصفات الشعبية التي استمرت أربع سنوات أخرى! حتى شعرت باليأس وبأن لا أمل لي في الإنجاب وان هذا حظي في الحياة وعندما بدأ الغمز واللمز عن حالتنا يزيد بين أفراد الأسرة وتلويحهم له بالزواج من أخرى لأن السنين تمضي دون أن يشعر.

هم لا يعلمون أن لا عيب لدي أو لديه لكن المرأة دائما هي السبب في عدم الإنجاب وتحميلها عبء ذلك حتى لو كان الرجل هو السبب! لأبدو أمامهم جميعا امرأة عاقر لا تنجب. بدا التفكير له في عروس جديدة من إحدى بنات العائلة دون أن يعتبروا من تجربتي وكأن ما قاله له الأطباء لا أساس له من الصحة.

شعرت بحيرته بين الموافقة على ما يدور في أركان الأسرة وبين المحافظة على مشاعري، ولم يجرؤ على قول ما يدور في أذهانهم واستمرت محاولاتنا من جديد لدى كل طبيب نسمع بمهارته. وبعد فشل التلقيح الصناعي لنا في لندن وموت الأجنة بعد شهر لذات الأسباب السالفة عدنا بنفسية سيئة

وإحباط لا حدود له لم اعد أطيق - مثله - الكلام في الموضـوع معه أو حتى معاشرته لذلك اندهش وأنا اطلـب منـه الـزواج بأخرى لكن لي شرطاً واحداً إن كان يريد بقائي معه وهو أن لا تكون من أفراد الأسرة حتى لا تتكرر المأساة.

رفض في البداية، اقتنع بأن هذا نصيبه، لكن مشاعر الأبوة ورغبته في الإنجاب كانت أقـوى. واجـه العائلـة بقـراره في الزواج من خارج الأسرة ومضى في تحقيق ذلك رغم المعارضة الشديدة إلا انه نفذ ما يريد.

لم اشعر أنني أحبه كل هذا الحب والى هذه الدرجة إلا في ليلة زفافه. شعرت أنني اختنق، أموت ببطء كلما تخيلت اللحظة التي سيغلق الباب علـيهما.شيءٌ يـشبه الجنـون والرغبـة الـشديدة في الصراخ والبكاء معاً... مر في مخيلتي بتدفق دافئ مشاعره الراقيـة تجاهي وحنانه الفياض طيلة هذه السنوات. كـم كانـت لحظـاتي السعيدة معه رائعة. حب عمري رجل عمري، حبيبي!...

رغم انه استقل معها في بيت آخر إلا انـه لم يقـصر معـي يوماً. قابل صراخي وحنقي من تأخره في زيارتي أو استعجاله للذهاب لها بصدر واسع، مبرراً لي كل تصرفاته ومؤكدا عـلى استمرار حبه لي وان هذا كان طلبي وهو كـان عـلى اسـتعداد الاستمرار والرضا بما كتب الله له والحياة دون أبناء.

ولأن القدر لا قدرة لنا على رده أو الاعتراض عليه حدث ما لم يكن في الحسبان، الوقت الذي أعلنت فيه ضرتي عن بداية حملها، أعلنت أنا وسط دهشة الجميع واستغرابهم عن أعراض حملي!!! لم يُصدق الأمر في البداية وبدا كأنـه خيـال أو شـعور بالغيَّرة من زوجته الثانية وأن الأمر لن يتعدى كونه حملاً كاذباً. لم اهتم لأن كل شيء بدأ يظهر سريعا، بدأت بطني وبطنهـا في الانتفاخ وأصبح زوجي حائرا بيني وبينهـا في توزيـع اهتمامـه وحنانه وإظهار حبه لنا بالتساوي. تمنيت لو أنجب أنـا الولـد وهي البنت لأُفرح قلبـه وأسـعده لأنـه سـيكون مـن صـلـب العائلة، لكن حدث العكس وأنجبت هي الولد وبعـده اثنـين آخَرَيْن وابنة أما أنا فلم تتكرر تجربتي بعد ابنتي "زال الهـم"، أسميتها كذلك لأنها أزالت هم سنين طويلة ومعاناة مؤلمة.

تفرغت لتربيتها وقضيت حياتي كلها من اجلها، وحمدت الله كثيرا انه أذاقني عظمة الشعور بالأمومة. لم احرمها مـن شيء، ولم تشعر أن أشقائها الذكور أحسن منها بـل عـلى العكـس. بـدأت تكبر وأصبحت في غاية الجمال والأنوثة، رفضتُ أن تخطب لابن عمها ورفضتُ أن يفتح هذا الموضوع حتى للمناقـشة حتـى لـو اتخذت مني الأسرة موقفا معاديا، لم أهتم له.

حدث لها موقـف أفزعنـي وأشـعرني بتناقـضات غريبـة

قاومتها من كل قلبي، كوني لم أوافق على زواجها في وقت مبكر وجعلها تعيش الحياة التي عشتها أنا بأمان لكن لم يعد الزمن كما كان في عهدنا سابقا.

كانت في طريق عودتها من المدرسة، ولأن مَدَرسَتها للبنات فقط تعوَّد الأولاد الوقوف أمام بابها حال خروج الطالبات ومعاكستهن حال خروجهن من المدرسة. وليت الأمر كان نظرة إعجاب أو كلمة حب أو رسالة غرامية، تعدى الأمر ذلك إلى مؤذاة بالألفاظ ومحاولة خطف بالسيارات.

الأدهى من ذلك هو ما حكته لي مؤخرا وهي لا تخفي عني شيئا عن اكتشاف مديرة المدرسة التي كانت في غاية الصرامة والحزم لعلاقات حدثت بين ست طالبات من المدرسة وبين صاحب المكتبة التي أمام المدرسة. شاب وسيم استغل فترة مراهقة الفتيات وكان يرمي حبال غزله على الجميع كلما حانت له الفرصة لذلك، والنتيجة زواج عرفي ولقاءات سرية وسريعة لا تتجاوز فترة ذهاب الفتاة للمدرسة ومن ثم تطليقها والبحث عن أخرى!... ولأن السر لابد له من أن يُكشف لحكمة لا يعرفها إلا الله، اعترفت إحدى الفتيات لأهلها بعد أن حملت بطفل منه وتم اكتشاف أمره وما زالت قضيته في النيابة حتى الآن.

ما يؤلم هو معاملة المديرة لطالباتها بتلك القسوة والحزم،

تشعر الفتاة من خلالها أنها بلا أدب أو تربية، تشعر بفداحة كونها أنثى وبشاعة ما قد تلاقيه إذا لم تسمع نصائح المديرة، ومع ذلك لم تكن تساعدهن في حل مشاكلهن، لم يكن دور المدرسة تكاملي مع البيت، لم تقف إلى جوار طالبة أبدا لإنصافها، بل على العكس تماما الطالبة هي المخطئة دائما، هي التي لا تسمع الكلام هي التي تقرأ قصص خليعة وتشاهد قنوات فضائية وتريد تطبيق ما كل ما تشاهده فيها على ارض الواقع!...

كل هذا اعتقد أن سببه الكبت والقمع للبنت والتفرقة بين تربيتها وتربية الولد. ولو تم استيعاب أن مشاعر الميول بين الولد والبنت هي الحياة الطبيعية التي يجب أن تخرج من أعماقهما ليعيشا بشكل طبيعي وفطري، غريزي في ذات الوقت، ومواجهة ذلك بالحرص والتوعية على أن تكون علاقات لا تحكمها الشهوة أو الوقوع في المحرمات...

قاطعتها للتأكيد على كلامها ومشاركتها وجهة نظرها: فعلا لديك كل الحق. هل تذكرين أن مدرستنا كانت مختلطة حتى المرحلة الإعدادية، وأن حكايات الإعجاب كانت متبادلة بين البنات والأولاد ومع ذلك كانت بريئة ولم تؤثر على واجباتنا في المدرسة أو إخلالنا بمبادئ تربيتنا. استمرت بعض العلاقات وأثمرت زيجات ناجحة بعد الانتهاء من المرحلة

الثانوية يفتخر أصحابها بها ويعلمون مبادئها لصغارهم لأنها مثال ناجح لكل ما يريدون تعليمه لهم.

واصلت وقد اكتسحت نبرة صوتها مرارة جعلتني أخمن حجم ما قد تقوله:

في أحد الأيام وأثناء خروج الطالبات بعد انتهاء دوامهن المدرسي، حدث شجار بين شقيق أحدى الطالبات وشاب كان يتحرش بها بألفاظ جارحة ومؤذية، لن تصدقي أن الشجار انتهى بينهما بالموت نعم الموت، وجَّه شقيق الفتاة كلامه للآخر بان يتوقف عن فعل ذلك ويحترم نفسه، وبدأ في وعظه دينيا، إلا أن الفتى لم يعجبه أن تداس كرامته أمام جمع من الفتيات فأخرج مسدسه من مخبئة ورغم صغر سنه إلا انه يحمل هذا المسدس الذي اتضح أن أباه احد المسئولين في الدولة وقد كان يحمله ليحمي نفسه لا نعرف مما. المهم انه أطلق رصاصة على الشاب المسكين الذي حاول مراجعته قبل أن يطلق عليه النار بعدم التهور حتى لا يضيع مستقبله.

هرب بعدها ولم يحبس ليوم واحد بفضل مركز أبيه وقبلت عائلة الشاب المقتول الدية كحل لا بديل له من ضياع حقوق ابنها، أما الفتاة المسكينة التي لم يكن لها حول ولا قوة فقد حرمت من التعليم وبقيت في البيت.

ومنذ هذه الحادثة و"زال الهم" اعماقها غير مستقرة، تشرد كثيرا، تتذكر ما حدث فتغمض عينيها وتصم أذنيها بيديها، ينتفض جسدها بشكل لا إرادي، تبدي أعذاراً كثيرة حتى لا تذهب للمدرسة. فاجأتني قبل أيام بحديثها عن الحادث بمنتهى الألم وبمنتهى الحكمة والمنطق أيضا: تخيلت يا أمي لو أن المدرسة كانت مختلطة، هل كان سيحدث ما حدث؟ كان أقصى شيء سيعمله الشاب هو النظر للفتاة التي انجذب نحوها وإذا بادلته الإعجاب فكان سيرسل لها رسالة إعجاب وهذا أمر طبيعي وفطري وغريزي! أليس العالم كله مبنى على هذا الأساس يا أمي كما علَّمتِني: رجل وامرأة؟...

أذهلتني بكلامها الذي أدرك انه بريء لأنه بالنسبة لها كان حلا لمشكلة حدثت ولجريمة بشعة ولا إنسانية حدثت أمام عينها أنهت حياة إنسان لا ذنب له في حين كرم الله حياة الإنسان وجعل سلبها عن سابق إصرار وترصد ذنبا لا يغتفر في الدنيا والآخرة. أجبت على كل أسئلتها وتحاورنا كثيرا في مواضيع تدركها هي عن طبيعة النفس البشرية وأفضت في شرحها لها حتى تستوعبها جيدا. وعندما كنت أخلو لنفسي أفكر في كلامها وأفكر في حال معظم المدارس في صنعاء حيث التفاهم معدوم بين المدرسة والبيت، وبين المُدرسات والطالبات، ونادرا ما يحدث ارتياح لأحدى المُدرسات

وتكسب ثقة الطالبات وبالتالي يكون أمر توعيتهن سهلاً وتأثرهن بكلامها عن قناعة تامة. أفكر أيضا في الحادث البشع الذي حدث ومدى تأثيره على نفسيتها مستقبلا، أصبحت خائفة على ابنتي بشكل كبير، فأبناؤنا في زمن غير زماننا، وليس أمامنا غير المزيد من الكلام في كل شيء والتنبيه على كل شيء يحدث أمامهم في التلفزيون وفي المحطات الفضائية.

إنه العالم الذي أصبح في متناول أيديهم بضغطة زر!...

انتهت أم "زال الهم" من حكايتها، نظرت إليَّ كمن يبحث عن تعليق أو إجابات لكل ما قالته، تمنيت لو أن كثيرات من الأمهات تفكر بهذا المنطق وتلك الطريقة في الحياة أخبرتها أنني أحاول جاهدة في مدرستي أن تكون العلاقات الإنسانية واضحة لدى الجميع من أولياء أمور ومن طلاب، لا اشعر بالخجل وأنا أناقش مشاكل الجميع بشفافية عاليه مع أعضاء هيئة التدريس ومع الطلبة والطالبات ورغم أنها مدرسة خاصة ورفضت الوزارة أن يبقى الأولاد والبنات معا في ذات الفصل بعد المرحلة الإعدادية إلا أنني وجدت لهم حصصا يتشاركون فيها معا من النشاطات المختلفة كالرياضة والموسيقى ومع ذلك فهناك أولياء أمور يقومون بإخراج بناتهم من المدرسة بسبب هذا النظام...

اشعر أن معظم طلابي معتدلون، طبيعيون في تصرفاتهم تجاه

بعضهم بعضاً دون تمييز بين الذكور والإناث من قبل الإدارة. أتذكر احد أولياء الأمور الذي جاءني وهو في قمة غضبه لأن زميل ابنته في الفصل أرسل لها رسالة إعجاب وألقى بها في شنطتها دون أن تعرف. صعق ولي الأمر من ردي وأنا أقول له وماذا في ذلك، أليس هذا التجاذب فطرياً وطبيعياً ويظهر مشاعر على السطح بدل الكبت والمنع الذي يزيد من فضول الولد والبنت والبحث بأنفسهم عن كل ما يشغلهم بعيدا عن الأهل. أليس من الأفضل أن يتم كل شيء أمامنا دون خوف أو غموض. أليس من الأفضل أن نوجه ونعلم ونوعي على المبادئ الصحيحة وحرية الاختيار في الحياة وتحمل المسئولية؟!

اقتنع ولي الأمر بكلامي الذي كنت متأكدة من انه سيفكر فيه كثيرا، غادر وهو شبه راضٍ عن ما قلته. وهكذا حالات كثيرة كنت أحاول التعامل معها على أنها من الحياة التي نتوقع فيها كل شيء، نقول فيها كل شيء على ثقة بأنه سيأتي اليوم الذي سيفهم فيه أبنائنا ما كنا نقوله وسيستوعبونه وسيعملون به في حياتهم.

يزورني الكثير منهم وهم في قمة تألقهم في مراكز ووظائف مرموقة، سائرين على ما تربوا عليه أو على الأقل لم يكونوا يوما مصدر أذية لغيرهم أو جزاءً سلبياً في مجتمعهم لذلك أرحب بابنتك في مدرستنا واعدك أن نصلح ما فعله بها الحادث البشع!...

عجباً!... انظري، أليس هذا هو الذي ما ترك
امرأة إلا وهامزها وغامزها؟
ما به اليوم غدا مستقيم الخطوة غاضاً طرفه!!!
صه يا حمقاء، صه فقد أحب

عفاف البشيري

(ن، ص)

انتحرتْ، لم تكن هذه هي النهاية المتوقعة لها ابداً ابداً، لكنها أرادت أن تكون نهايتها هكذا مثل نهاية معظم عباقرة العالم: الموت أو الجنون!!! لا أدري إن كانت القصيدة التي كتبتها بيدها وعلقتها على واجهة مرآتها طيلة بقائها في بلغاريا للشاعر اليمني أحمد العواضي توقعاً مسبقا لمصيرها الذي اختارته!...

إنه الموت مختبئٌ خلف باب القصيدة
رتب هيأته وتبسم منتظراً للدخول
إنه الموت مختبئٌ خلف نافذتي،
يتخفى ويمسح لحيته القاحلة،
ليس بيني وبين أصابعه غير لوح الزجاج الحنون
إنه الموت متكئٌ قاب قوسين
قوسٌ لنا وعلينا وقوسٌ لما سيكون
إنه الموت فاجأني في كلامي
ولامسني من ذراعي
وألقى بذاكرتي في رياح الجنون
فتح القلب نافذة في فضاء التأمل مرتبكاً خائفاً
وتمنى قليلاً من الوقت
حتى يفتش عن أي شيء يقول:

أيها الموت إني عرفتك من قبل
هيا تقدم
لست سوى لحظةٍ في الذهول

حصلت على منحة دراسية بعد حصولها على المركز الأول في الثانوية العامة إلى بلغاريا. كانت فرحة بها جدا رغم نظرات الحَسد البادية على وجوه صديقاتها حال معرفتهن بخبر حصولها على المنحة. كيف لا وهي الفتاة البسيطة في ملبسها. الفتاة التي تحيا مع جدتها بعد طلاق والديها لتعيش ظروف سيئة ماديا ومعنويا، ومع ذلك ستسافر لتكمل تعليمها في أوربا، وهن فتيات ينعمن بالعز المادي والمعنوي في آنٍ، يسكُنَّ في بيوت فارهة ويرتدين ملابس لها ماركات عالمية من باريس وأمريكا ولندن ومع ذلك سيبقين في اليمن ولن يسافرن أو ينعمن بما ستنعم به ن. ص! بل سيتجرعن الويلات من الدراسة في إحدى جامعات اليمن التي يتدنى مستوى التعليم فيها يوما عن يوم دون تخطيط حقيقي للنهوض بالتعليم باعتباره أساسٍ لنهضةِ الشعوب!...

كانت متقدة الذكاء، لماحة، سريعة البديهة. أنهت برنامج اللغة البلغارية في ثلاثة أشهر في حين ينهيها الآخرون فيما لا يقل عن ستة أشهر. انخرطت في التهام كل ما أمامها من معارف وعلوم في الجامعة وفي الحياة المختلفة عن ما عاشته في حياتها في اليمن.

لفتت انتباه زملائها في الجامعة وكسبت ثقتهم ومحبتهم بشكل كبير. لم تتوان يوما عن مساندة كل من طلب منها ذلك خاصة الطلبة اليمنيون الموفدون لتلك الدول والتي غالبا ما يعود معظمهم خائبين لاختلاف نمط الحياة وانخراطهم بشكل اكبر فيها و التمتع بها وبمباهجها دون وعي بالمسئولية تجاه ما جاؤا من اجله. "الكحول والنساء" تصبح هي اهتماماتهم الأولى ومن ثم الدراسة، لذلك يعود الأغلب منهم فاشلا إلا من كان لديه هدف قوي وإرادة أقوى في التغلب على الفارق الثقافي والحياتي بين البيئة اليمنية المحافظة وبين الحرية التي يراها ويعيشها كل من حوله بوعي والتزام، لذلك يجب عليه أن يأخذ ما يناسبه ولا يؤثر على سير حياته ودراسته!

في هذا كله كان هناك من يرقب تحركات ن. ص وتصرفاتها ويقيِّمها من وجهة نظرة في مدى ملائمة هذه الفتاة له كزوجة، دون أن تشعر بذلك أو تدركه هي. كان اهتمامها بالتحصيل العلمي والعودة ناجحة ومنتصرة هو الهدف الأوحد أمامها من هذه التفاهات كما كانت تقول عنها.

خضعت له ووافقت على طلبه في الارتباط بها وإعلان خطوبتهم في أجازة العطلة الصيفية حال عودتهم لليمن. فكرت أن ذلك سيساعدها على التفرغ التام لدروسها بعد أن

تستقر عاطفيا في بلدٍ يتمتع فيه الناس بالحرية والتعبير عنها وممارستها في حدودهم الخاصة وفي كل مكان.

أقنعها كما أقنعتها جدتها أن الزواج أفضل ومن ثم عودتها للدراسة بجدٍ بعد شعورهما بالاستقرار. وهكذا فعلت، تزوجا بعد مضي سنتين من دراستها للطب. كان هو في السنة النهائية بعد تعثره لعدة سنوات وبزواجه منها وجد مبررا للبقاء برفقتها والعمل بشكل رسمي في بلغاريا. برر لها تعثره لعدة سنوات انه كان يضطر للعمل وإرسال مبلغ من المال لأهله شهريا لعدم كفاية ما يتقاضاه من راتب المنحة. احترمت مشاعره تلك والتزامه تجاه عائلته.

سارت الأمور كما أراد لها أن تسير واطمئن على بقائه واستقراره، لذلك انكشف لها سريعا وهو يزيل القناع عن وجهه يوما بعد يوم بابتعاده عنها وتخليه عن كل ما وعدها به من الحب والحنان والوقوف إلى جانبها حتى تنتهي من دراستها. لم تكترث لتصرفاته ربما لتتقدم في دراستها دون الخوض في مهاترات لا فائدة منها وعند عودتها بالشهادة ستحل كل أمورها معه.

لم تكن تسأله عن تأخره الليلي بشكل دائم أو عن الرائحة المنبعثة من ثيابه ومن فمه، رغم انه اخبرها بعدم تناول الكحول فما الذي تغير الآن؟ يبرر لها دائما أن الأعمال الليلية هي المتوفرة

للأجانب وأجرها مُغرٍ وأن عليها أن لا تقلق ولا تضايقه بمراقبتها الدائمة له ولما يفعله.

صدقت كل أعذاره واقتنعت رغم أن ما كان يقوله لا ينطلي على أحد، حتى وجدت ما يثبت لها عكس كلامه: يخونها! نعم يخونها وإلا ما سبب وجود تلك الواقيات الذكرية التي يخبئها في جيبه و نسى أن يتخلص منها قبل عودته.

بسهولة أقنعها أنها ليست له بل لصديق طلب منه شراءها له.

كان له أسلوبه الخاص في المراوغة بذكاء، وقدرة أيضا على الإقناع في تبرير كل السلبيات التي يمارسها كفشله في الدراسة لعامين متتاليين ونبل ما يفعله من أجل أهله وهو في الغربة من أعمال على حساب صحته ودراسته. كانت تصدقه دون نقاش وتتحدث معه عن مشاريعها الحالية حتى حصولها على الدكتوراه ومشاريعها المستقبلية عند عودتها لليمن. ستفتح عيادة وهو مختبر وبذلك سيكملان بعضهما البعض وسينجبان أربعة أطفال هي تريد ولدين وبنتين و... و...و...

يسمعها بصمت ووجوم يثيران دهشتها وحيرتها وكأنه في عالم آخر وكأن كل ما تقوله أو تخطط له لا يعنيه. باختصار كأنه ليس زوجها وشريكها في المستقبل!!! كيف لم تستطع أن تكشف طبائعه قبل الزواج. كيف انخدعت بكلام أصدقائه وهم يمدحونه، حتى أصدقائه الأجانب أيضا فعلو ذلك.

مر العام الأول وهما على نفس الوتيرة في الحياة. العام التالي بدا لها غريبا بعض الشيء، شاردا معظم الوقت، واهنا قليلاً ورافضا في ذات الوقت فكرة عرض نفسه على طبيب أو عمل فحوصات طبية. زاد في حيرتها أنه أنهى علاقته الجسدية بها تماما، عللت أن مرضه السبب، لكن بعد تعمده ذلك رغم ما تبديه له من رغبة في معاشرته أثار تساؤلها واندهاشها أكثر وأكثر. لم تمر فترة بسيطة حتى أصابتها ذات الأعراض التي فاجأته وأصابته بالهلع عليها وإرغامها على عمل الفحوصات اللازمة. وأمام إصراره وافقت على أن تكون لكليهما إلا انه رفض مما جعلها تصر وتلح على ذلك بشكل كبير.

رفضه جعلها محتارة في تصرفاته ووهنها أيضا بشكل سريع أجج في داخلها الرغبة في البحث عن إجابات لما هما فيه. بدأت بأصدقائه تسألهم عنه وعن ما يجري له الآن دون أن تخبره بذلك. تسألهم عن عمله وعن مشاركتهم له في السهرات التي كان يُحدثها عنها؟ دون فائدة. لم يتكلم أحدٌ منهم عن شيء غير ما تعرفه. يبدو واضحا إخفائهم لأمرٍ ما، ولا يريدون الإفصاح عنه، ليس كلهم بل بعض منهم، المقربون منه.

لم تتوقع بعد أن أنهكها البحث أن تأتيها الإجابة من زوجة احد أصدقائه. شعرت أن من واجبها الإفصاح عن كل ما تعرفه حتى لا

تزداد الأمور سوءا لذلك طلبت من ن.ص تحديد موعد للقائها وإخبارها بكل ما تعرف حتى لو غضب منها زوجها شريطة أن تستوعب كل ما ستقوله لها لأنه قدرها الذي لا مهرب منه!!!

وبالفعل استوعبت كل ما قالته لها للدرجة التي جعلتها تفكر في حل واحد ووحيد وهو "الانتحار" حال انتهاء زوجه صديق زوجها من قول الحقيقة لها كاملة وأنه بالفعل قدرها الذي لا مهرب منه!

بعدها كتبت لزوجها رسالة قالت فيها: انتحرتُ لأن هذا كان الحل الوحيد لما فعلته بي دون أي ذنب ارتكبته في حقك غير حبك. "الايدز" الذي نقلته لي نتيجة المهنة الحقيرة التي لم تخبرني عنها يوما وكنت تمارسها ليلا وتجني منها المال الوفير هي السبب ولا اعرف ما الذي جعلك تستمر فيها حتى بعد زواجنا. لقد وفرت لك السيدات المُسنات المال مقابل إمتاعهن بجسدك المفتول ووسامتك التي لا تقاوم، لكنهن الآن سحبن منك حياتك وحياتي معك، الله لا سامحك.

لا تنس أن تخبر جدتي إذا فكرت أن تموت في اليمن أنني أحبها وأنها أجمل شيء في حياتي وان وفاتي كانت طبيعية حتى لا تقضي بقية حياتها تتحسر على ما فعلته بي عندما وافقت على زواجي منك.

لن أروي بسهولة، طعم الأسى والحسرة والقهر والغيظ يتقاذفني مع كل كلمة أخطها أو عبارة انتهي منها.

لا غرابة هنا لحدث ما... لا غرابة هنا لمكان ما... لا غرابة هنا لامرأة ما... هنا حياة تضج بالحياة، الحياة أمراة، أفلا يفهمون!...

الراوية

(٥)

ذهبت لحجرة أمي وأنا منتشية بما أنجزته حتى الآن من كتابة الرواية، أحمل في يدي مسودة أولى لما كتبته طالبةً منها الرأي والنصيحة، فهي قارئة جيدة واستطاعت أن تزرع في نفسي أنا وشقيقاتي حب القراءة الأمر الذي قضى على شعورنا بالملل أمام قوانين أبي الصارمة في عدم خروجنا من المنزل إلا للمدرسة فقط.

شيءٌ واحدٌ لم استطع إقناع أمي أن تتعلمه وتبدي معارضة لا اعرف لها سببا وهو تعلمها لاستخدام الكمبيوتر الذي تقول عنه لا يناسب ميولها أبدا ولا تحتاجه في هذا السن! لكني لم أيأس منها بعد، ومحاولاتي لن تتوقف!.

أخذت مني المسودة بحماس وهي تقبلني وتقول: استمري لابد أن ما أنجزتهِ رائع، يكفي ما ينضح به وجهك من سعادة وشعور بالرضا لتخرجي مما كنت فيه، أنا سعيدة لأجلك يا ابنتي.

أرسلت نسخة كملف مرفق لما أنجزته على ايميل جود الالكتروني. لا اعتقد أن بإمكاني زيارتها هذه الفترة، حتى انتهائي من الكتابة وبإمكانها إرسال مقترحاتها بذات الطريقة. أبنتي سارة أيضا قارئة وناقدة جيدة لذلك أرسلت أيضا على ايميلها ما أنجزت. عدت لمواصلة ما بدأتهُ وأنا اشعر بالقلق

من ردود فعل أمي وجود وابنتي على ما كتبت! لكن لا يهم سأستمر لحين وصول ردودهن. شعوري بالسعادة بما أنجزت لا حدود له. كم هي الكتابة رائعة وممتعة، تجلي عن النفس كل ضيق وهم تواجهه، لذلك اشعر بإرهاق لذيذ يتقاذفني، ربما من الأفضل أن أنام الآن...

بدا لي صباحي رائقاً، هادئاً، ململماً لشتاتي بعد طول عذاب. توجهت وأنا أتناول قهوتي لفتح الكمبيوتر، كان لدي شعور بأن جود وسارة قد بعثتا ايميل رد على ما أرسلته لهما إن وجدتا وقتاً لقراءته. وبالفعل كان ايميل سارة يفتح النفس على الحياة ويحث على السير قدما:

("رائعة أنت يا أمي، رائع ما كتبت والأروع مشروعك الجديد في الحياة..."

احبك

سارة)

بعثت لي جود أيضا ايميل، لكن لإخباري فقط عن استقبالها بسعادة غامرة لما أرسلته لها، وأنها ستجد وقتا اليوم بالتأكيد لقراءته والرد فوراً...

فاجأتني أمي بعد لحظات وهي مبتسمة كعادتها وهادئة كعادتها أيضا وهو تقول: كان لدينا روائية ونحن لا نعرف!

أسعدتني شهادتها وشهادة سارة. احتضنتها وأنا غير مصدقة ما حدث في أعماقي من تغيير، ما حدث فيها من سعادة وشعور بالرضا، ما حدث فيها من انقلاب باتجاه الحياة للأمام لا للخلف، للأمل لا لليأس، للحب لا للكره.

غادرتني أمي وكلي شعلة حماس ورغبة في إحراز الأفضل والأروع، واصلتُ في الحال كتابة حكاية ن. ح...

*****

امرأة وحيدة ترتدي حزناً ومعطفاً من شقاق
امرأة لا تمسك الخطوات
محاولة أن تهمي بالتفاؤل...
تنسق باقتها
ترتب التماثيل التي تملكها
تضع اللوحات فوق حوائطها
وعندما تقف في زاوية لتصنع رؤيتها الأخيرة على
المنظر
تكتشف غياب مفتاح الضؤ

هدى العطاس

(ن.ح)

لو علمتْ بأن هذا سيحدث لها لكانت اتخذت مساراً آخر لحياتها! لكن من منا يعرف ما يخبؤه له القدر!...

كان زفافها أسطوريا بكل ما تعنيه هذه الكلمة عكسَ شخصيتها بشكل كامل، هي منظمة، أنيقة،لا يهمها إذا ما تأخرت عن حفل زفاف أو عيد ميلاد بقدر ما يهمها أن تذهب بكامل أناقتها، رغم أنها تقول إنها تجهز ملابسها بشكل مبكر يبدأ من الظهيرة، إلا أن متطلبات خروجها كثيرة أيضا، شعرها ومكياجها وأضافرها!...

شعرها يُقص حسب الموضة ، وتتم تسريحته أيضاً بشكل مذهل، ألوان مكياجها مع طلاء أضافرها مع ألوان ثيابها... تقابل تعليقاتنا على تأخرها عن الحضور بابتسامة هادئة وتقول (ما افعل لكن، ما اقدرش أخرج إلا وأنا واثقة من نفسي ومن جمالي...) كل هذا ساعدها على أن تكون جميلة لأن ملامحها بدون كل ذلك، باهتة وتعكس إرهاقاً دائماً يبدو من السواد المستقر تحت جفني عينيها.

لم نستغرب أن يكون حفل زفافها بذلك التنظيم الدقيق.وربما من زفاف ن.ح بدأت العائلات تهتم بتنظيم

مااقدرش: لا استطيع

حفلاتها بشكل جيد ليشعر حضورهم بالارتياح والمشاركة الفعالة بشكل ايجابي. كانت آية في الجمال، فستانها الأبيض تصميمه مختلفاً ومغايراً لما عهدناه وهي تضيف عليه لمسات شخصيتها الهادئة الأنيقة. في منتصف الحفل حدثت مفاجأة حيث أطفأت أضواء صالة الاحتفال وعلت في الأجواء مكبرات الصوت بأغنية عيد الميلاد (سنة حلوة يا جميل، سنة حلوة يا ن.ح) اخترق ذلك كله كيكة عيد ميلاد شموعها العشرين مضاءة عبرت أرجاء القاعة وحلقت فيها أصداء تصفيق عارم من الحاضرات.

إذا احتفالها بعيد ميلادها وزفافها، قالت إن معظم الحاضرات حسدنها على توافق المناسبتين، شعرت بأن أعينهن تقافزت من الغيرة وهن منبهرات بجمالها وهي تدور على الطاولات في القاعة للترحيب بهن تسبقها ابتسامة صادقة معبرة عن فرح عارم كان طاغياً على كامل ملامحها، وان هذا كان سبباً في حصولها على الطلاق بعد معاناة.

(حسدوا بنتي من ليلة زفافها) كانت أمها وعماتها وخالاتها ومعارفها أيضا يرددون هذه العبارة، كمبرر وسبب لطلاقها بعد عام بالضبط من زواجها. عام عانت فيه الكثير الكثير من زيجتها تلك.

لم تستطع إخفاء قهرها وشعورها بالغبن في اجتماعٍ لنا نحن صديقاتها المقربات لقلبها من أيام المدرسة الابتدائية، حال سؤالنا لها عن حالها الغريب في تلك الفترة حتى انفجرت بالبكاء، واختنقت في حلقها الكلمات. شعرت بان الحديث مهم لحالتها وراحت تحكي لنا عن تجربتها:

كان بإمكاني أن أتحمل بُخله الشديد، عليَّ وعلى متطلبات المنزل وصل حد تجويعي، وشعوري بالمهانة في مواقف كثيرة، انتظر فيها أن يجود عليَّ بما أكُلهُ وأشربهُ. اخضع لرغباته في نوع الوجبات حتى لو لم أكن أفضلها. أخشى الوقت الذي ستنتهي فيه أنبوبة الغاز وهو غير موجود وأنا لم انته بعد من مهام إعداد الغداء، سيحملني المسئولة عن التبذير في استخدام أنبوبة الغاز التي انتهت سريعا، وإهمالي بعدم شعوري بتعبه في عمله ليوفر لي متطلباتي ومع ذلك يعود إلى البيت دون أن يجد غداءه جاهزاً!...

لكن ما لم استطع تحمله هو شكه الدائم بي وتفسير كلامي وتصرفاتي كلها على هواه! تأويلات غير محترمة أبدو في محيطها انتهازية إذا ما ذكرت طريقة عيش جيراننا وتمتعهم بالحياة، لأني الح أن نكون مثلهم مبذرين! أبدو أيضاً قليلة أدب وأنا اعبر عن رغبتي فيه ونحن على السرير، لأن المرأة خلقت لمتعة الرجل وإبداء رغبتها

عيب في حقها! وان هذا مؤشر على احتمال خيانتها لأنها تتبع رغباتها!... الشيء المقزز هو تشبيه تصرفاتي معه على السرير إذا ما حاولت الانتشاء بأنها تشبه تصرفات بنات الليل رغم انه هو الذي يطلب مني فعل كل ما يريده والتجاوب معه، ومع ذلك لم اسأله كيف عرف تصرفات بنات الليل إن لم يكن قد جربهن بالفعل!...

تعتريني الحيرة طوال الوقت! كيف يمكنني أن أعامل هذا الرجل!!! الاستسلام الكلي له: هو برود وعدم أحساس وانه يعيش لحظاته الحميمة مع كوم من الثلج. والتفاعل معه عن رغبة صادقة في المشاركة وفي تقاسم الحقوق معا بشكل متكافئ معناه أن أكون بنتاً من بنات الليل! الأدهى هي كلماته التي تصم أذني "من علمكِ هذا؟" أو "أين رأيتِ ذلك لتمارسيه؟" متناسيا كافة حقوقي كأنني أداة لمتعته وتوفير كافة متطلباته ليس إلا!.

الرجل عموما يا صديقاتي لا يهمه إن استمتعت المرأة معه أم لا. لا يهتم باحتياجاتها التي يجب أن تتكافأ معه لأنها مثله من لحم ودم ورغبة. ثالوث مقدس لم يفكر في احترامه إلا بما يرضيه هو فقط. وحالة معظم النساء مع رجالهن من هذا النوع الذي قد يدهشكن فعندما ينتهي من قذف عفنه في أغوارها ويرتمي على جانب السرير بالكاد يلتقط أنفاسه، تسرع هي باتجاه الحمام تغلق بابه عليها تمارس بسرية المهمة التي لم ينفذها هو تحاول أن تكتم

صوت انتشائها حتى لا يشعر بها وهي بذلك ترضي رغبتها وترضي شعوره بأن له زوجة جسدها بارد، لن يفكر في خيانته يوما، جسد لا يهمه الجنس ولا يطلبه أيضا. هو بذلك يحافظ عليها من إبداء الرغبة. الرغبة شيطانية وعواقبها وخيمة!.

هل هناك ظلم أكثر من ذلك يا صديقاتي؟؟؟

لم أكن أغادر البيت كما أمرني إلا برفقته، لزيارة أمي وشقيقاتي المتزوجات يوم الجمعة ومع ذلك حرمني من مشاركات اجتماعية كثيرة كنت أقوم بها من قبل زواجي كما تعلمن. ومع ذلك لا اسمع منه غير هذا الكلام المهين والمقزز!...

كنت أصاب بحالة شدوه تام من ألفاظه. لا اعرف بما أرد أو كيف أتصرف! أبدو متبلدة وأشبه البلهاء في ردود فعلي!!! بدأت أفقد الرغبة في كل شيء، بل افقد الرغبة في الحياة ذاتها حتى أصبت بحالة غريبة من فقدان الشهية للطعام فقدت بسببها بعض وزني دون أن يعير ذلك أي اهتمام وهذا أدى إلى انخفاض حاد في الدورة الدموية وتم نقلي إلى المستشفى التي كانت بالنسبة له كارثة بمصاريفها والأدوية التي احتجتها!

انكشف أمره سريعا أمام والدتي وأخوتي، وبدءوا جميعاً في سؤالي عن كل ما كان يثير فضولهم ولم يجرؤا على سؤالي فيما مضى، احتراما لرغبتي في عدم الحديث، ولأني لم أكن أبدي

تذمرا من أي شيء. انهارت صحتي أكثر وأنا أرى حزنهم عليَّ ولومهم الهادئ لي على سكوتي وعلى تحملي كل هذا الغبن دون سبب وعدم إشراكهم في محنتي!...

كل ما فعلته هو التضحية المطلوبة في بداية الحياة الزوجية نتيجة اختلاف الطباع بين الزوجين على أمل أن يسير مركب تجربتي التي ستكون هي كل حياتي واستقراري بأمان وان أكوّن أسرة وأولاداً. خلال هذا كله توقعت أن يقدر ما أفعله ويغير من طباعة السيئة تلك دون فائدة. تمادى في غيه دون أن اعرف سبباً لهذا كله. لذلك بدا منكمشا في المستشفى وقد افتضح أمره رافضا فتح الحديث أو النقاش إلا بعد الخروج من المستشفى.

غادرت المستشفى لمنزل أهلي. اعتقد أنها فترة نقاهة أعود بعدها لمنزل الزوجية. صدمه طلبي للطلاق. رفض بشكل قاطع أن يناقش حتى الموضوع معي أو مع احد من أهلي. تمسك بي أكثر. هدد بطلبي في بيت الطاعة وأنه سيجرني من شعري من منزلنا إلى منزله رغماً عني. استخدم مع محاميه أساليب حقيرة ودنيئة لأبدو فيها في أقبح صورة. صورة المرأة العاصية لزوجها، الناشز التي تطلب الطلاق لوجود رجل آخر في حياتها ولكن أن تتخيلن حالتي وأنا أرى واسمع هذا بعد ما فعلته من اجله طيلة عامين كاملين.

قررت بعدها خلعه، ساعدني أهلي في ذلك ووقفوا إلى جواري. كنت أول حالة طلب لخلع في اليمن الحديث لذلك كتبت عنها الصحف. استثاره الأمر أكثر. شعر أنني أهين رجولته في عقر دارها وهو المعتز بها أكثر من أي شيء آخر. اضطررت خلالها للدفاع عن نفسي باستماتة لم أعهدها من نفسي. لم اخجل من فضح ممارساته الشاذة معي، لم اخجل من الاستشهاد بجيراننا الذي كان يمنعني من زيارتهم وهم يسمعون صراخه الدائم في وجهي ورؤية آثار كدمات ضربه لي وجروحه التي كنت أبدى أسباباً مختلفة لحدوثها: مثل وقعت في الحمام، جرحت يدي وأنا اقطع الخضرة، سقطتْ على رجلي أنبوبة الغاز وغيرها وغيرها من تلك الأعذار التي تحفظ له ماء الوجه على حساب كرامتي وصحتي.

لم يتوقف عن الاستمرار في القضية إلا بعد أن طلبت جلسة سرية أمام القاضي لي وله، فقط لأبرر له استحالة الحياة بيننا من تصرفاته المهينة لي على الفراش... عندها وافق على طلاقي شريطة أن أعيد له كل ما أعطاني إياه من مهر وشرط وهدايا.

لم أندهش كما اندهش أهلي من القائمة التي أبداها لهم بكل ريال صرفه عليَّ من يوم الخطوبة حتى اللحظة التي

شرط: مصاريف الزفاف التي يدفعها الزوج.

خرجت منها من المستشفى. ولم ينس أن يضيف أتعاب المحامي الذي وكله في القضية!...

أروع ما في ن.ح هو أنها تجاوزت كل ذلك وعادت لاستئناف حياتها بعد حصولها على الطلاق. عادت لعملها الذي حرمها منه ولاهتمامها بنفسها وبجمالها وبخاصة طلاء أضافرها. عادت لعلاقاتها الاجتماعية المتعددة في انتظار فرصة أخرى مناسبة لها لإعادة التجربة لأنها تتمنى الإنجاب والعمر يمر بها...

بعد أربعة أعوام من طلاقها قبلت الزواج من رجل متزوج، ليس هذا فقط بل ويكبرها في السن وعندما سألتها عن ذلك قالت: هذا هو المتوفر للمطلقات، لن يأتيك رجل كما تحبين إلا فيما ندر وأنت امرأة مطلقة. خيارات المطلقة قليلة في مجتمعنا خاصة إذا كانت تواقة لبناء أسرة وأولاد مثلي.

تجربتها السابقة التي كانت فيها سلبية حتى النخاع جعلها لا تتساهل في حقوقها في التجربة الثانية وأصرت أن تكون كاملة دون نقصان. لم ترضخ لتحرشات زوجته الأولى وأبناءه لها في إثارة المشاكل ومحاولة التحقير من شأنها ومن حقوقها. لم تقدم استقالتها من عملها طالما هي غير مقصرة في واجباتها المنزلية والزوجية معا، وهذا أضاف نقاط تقاطع كثيرة لإثارة المشاكل مع زوجها ومع عائلته الأولى.

اقتنعت بأن التنازل عن الحقوق المكتسبة في مجتمعنا عن طيب خاطر ومحبة يتم تفسيرها على أنها ضعف ومذلة وهي لن تكون ضعيفة مجددا، ولن تتنازل عن حقوقها مرة أخرى حتى لو كان الثمن طلاقها مجددا وعودتها لمنزل أهلها لكن هذه المرة مع ابنتها التي سيغنيها وجودها إلى جوارها والتفرغ التام لتربيتها وتعليمها عن التفكير في أي كلب آخر، لأن الرجال أصبحوا في نظرها هكذا كما تقول...

*****

من منا لم يجهش بالذهول!...
لم ينثر فتات اليقين فوق فوضى الشك...
وصقيع اللاشيء
تتربص به حالات تتكئ على القلق
وترتشف الغضب...

لمياء الارياني

(ن.س)

((الأمان الذي تشعر به المرأة مع الرجل هو أمان اللحظة الحلوة، أمان اللذة التي تجعلها تصل أقصاها دون شعور بخوف أو خجل أو مهانة، أمان اللحظة التي هي من حقها، تكتمل به وتكتمل معه وتكون لهما خالصة. لذلك: لا يوجد امرأة خائنة!!! هناك امرأة موغلة في لذة البحث عما فقدته، فقط ما فقدته!... عشت معه خمسة عشر عاماً، لم يسمعني يوما كلام حب، لم يتغزل فيَّ رغم جمالي ومحاولاتي الدائمة للتغيير في مظهري وفي تسريحة شعري حتى لا يصاب بالملل. أن يفعل ذلك معناه أن أصاب بالغرور الذي لا اعرف على من سيكون على زوجي أبو صغاري.

أقف كثيرا حال قراءتي لأي رواية أمام أشياء كهذه، أتسمر أمام منظر في فيلم تلفزيوني يقول فيه البطل للبطلة كل هذا الكلام الجميل، أذوب وتنتابني رعشة لذيذة أتمنى أن لا تنتهي أبدا... أقف أحيانا أمام المرآة أتأمل جسدي أتلمسه أحيانا بشهوة رجل يمر على كامل تفاصيله الحميمة، ويكتشف أسراره. كم لهذا الجسد من أسرار وأسرار... اكتشفها تباعا، يقودني إليها منظر جميل أو صدفة مرور أو كلمة. كم كان ذلك ممتعا لو تم اكتشافه من كلينا، نتشارك فيه معا، نستمتع به معا... كم هو رائع هذا الشعور كم هو رائع...))

نـاولتني ن، س هـذه القـصاصة وهـي تطلـب رأيـي في أسلوبها في الكتابة وإذا ما كان لدي أي نصيحة لتطويرها. ربما شعرت بانكشاف أمرها وبتقاطعي معها فيما أرادت أن تخفيـه عن الجميع، ربما ربما!...

لا أعرف ما الذي كان ينقـصها لتفعـل هـذا. كـل شيء متوفر لها بما فيه الكفاية. البيت الفاره ذو الحديقة الأكثر رفاهية منه بأزهارها النادرة التي جلبتها معها من أوربا وبتـصميمها الحديث ذو المـساحات الخـضراء وأمـاكن الجلـوس المختـارة بعناية لتطل على واجهة المنزل الذي تفننت في اختيار حجارته الخضراء ونقوشه الخارجية، حتى بدا مميزا في الحي السياسي في شارع حده. أشهر شوارع مدينة صنعاء.

لا فقر في هذا الشارع، هنا غنى فاحش ينـضح مـن أرجـاء الأسوار العاليـة التـي تخفـي منـازل مكـسوة أسـقفها بالـذهب وحيطانها بالفضة وسـاكنوها بالمـاس!. أمـاكن الفقـر المـدقع في العاصمة بعيدة عنها. هناك أرصفة تحتضن أجسادا هزيلة تبحث عن لقمة العيش لتحيا. هناك عشوائيات مليئة بالفقر والمرض، لا تكاد تجد ما تسد به رمقها غير بقايا مخلفات تلك القصور!...

مسبح بيتها المغطى، الملحق مساحته بـالمنزل مـن أوائـل المسابح التي نشأت في المدينـة، لتـصبح المـسابح موضـة منـذ

التسعينيات في منازل الأغنياء وبعضها تحول لمشاريع استثمارية ناجحة ومربحة ومميزة لاستقبال القرن الواحـد والعـشرين في عاصمة مهددة بالجفاف لندرة وجود المياه فيها. ومع ذلـك لا يجد هؤلاء الأغنياء صعوبة في ملء مسابحهم بالمياه حتى لو لم يستخدموه. شكلت هـذه المـسابح التجاريـة لغالبيـة النـساء متنفساً لصعوبة ذهابهن للفنادق أو السباحة فيها لندرة المسابح المغطاة المخصصة للسيدات.

زوجها رجل أعمال ناجح، يحبها ولو طلبت لبن العصفور لأحضره لها ليعبر عن حبه وإخلاصه لها. تسافر في العام أكثر من مرة لتجلب فساتينها ومتطلبات التجميل الخاصة بها وآخر ما نزل في الأسواق من صيحات للملابس "السترينغ"، أكثر من استمتاعها بالسياحة، أو بفترات الاسترخاء والنقاهـة. تـترك كل ذلك لرحلة طويلة في الصيف إلى عواصم عالمية. تتحدث كثيرا عن عزمها القيام بالهجرة لكندا لـشدة إعجابهـا بطبيعـة البلاد وقوانين الهجرة العادلة المختلفـة عـن بـاقي دول العـالم وكأنها تعاني من ظلـم أو قهـر وهـي في نعمـة لا يـدركها إلا المقهورون والمستورون في منازلهم مـن شـدة الحاجـة لأبـسط متطلبات الحياة وفي قلب العاصمة.

إذا لا عذر لها كـما يبـدو في الظـاهر للجميـع لتفعـل مـا

تفعله!!! لا عذر لها لتبحث عن رجل آخر تفكر فيه وتتمناه! أو عن رجل تلفت انتباهه بشتى الطرق وتقول أنا موجودة! لكن البيوت أسرار كما يقولون. لا أحد يعرف ما هي احتياجات هذه السيدة أكثر مما هي عليه وأكثر من النعمة التي تحيا في ظلها. تعلم جيدا اللغط الدائر حول سلوكها لكنها لا تهتم. لديها ما يجعل الناس لا تتحدث إلا في الخفاء عن ذلك. لديها الزوج الذي لا يشكك في كل ذلك التناقض لسلوكها، ولديها المال الذي لا يمكن لأحد أن يستغني عنه. لديها ما تسكِت به كل صديقاتها بدعوتهن لحضور مقيلها المميز عن غيرها بما يقدم فيه من مرطبات وحلويات من أفخم فنادق مدينة صنعاء. ليس هذا فحسب بل إنها تقوم بتصميم عروض مميزة من الرقص والتمثيل والغناء والنكات الشهية.

ربما تقاطعت مع أحد غيري. ربما يعرف حكايتها غيري، لكن لن يتوقف احدٌ أمامها كما فعلت من الاستغراب ومن التساؤل حول ما تفعله. تقاطعت معها ذات يوم وهي تطارد احدهم بسيارتها دون أن تقول كلمة غير إثارة انتباهه وهو يدخل حديقة المطعم ومن ثم السلام بحرارة على زوجته الذي

مقيل: يطلق على التجمعات النسائية والرجالية التي يتم فيها تناول القات بالمقيل المرادف لكلمة حفلة.

اتضح لي أنها صديقتها. وفي تقاطع آخر وهي معه في سيارته وفي تقاطع ثالث وهما يدخلان معا احد الفنادق الفخمة في العاصمة. وفي هذا كله لا اعرف حدود تلك العلاقات ومدى ما وصلت إليه لأن اللغط قائم وعلاقاتها بصديقاتها وبأزواجهن قائمة دون أن اعرف تماما مصدر قوتها! ربما أزواج بناتها التي حرصت على أن يكونوا أبناء شيوخ لشدة جمالهن رغم تلقيهن تعليماً عالياً وإجادتهن للغة الانجليزية بطلاقة. وربما أزواج صديقاتها المسئولين عن مناصب مهمة في الدولة. وربما علاقاتها برجال أعمال يقومون بتسهيل أعمال زوجها وتدير صفقات تتقاضى فيها عمولة مربحة بشكل خرافي، ربما في هذا كله هي تبحث عمن يهتم بها ويشغل وقت فراغها ويرضي غرورها في أنها ما زالت جميلة ومرغوبة في هذا السن!...

هل الحياة بهذا البذخ وزوج بهذه المواصفات السحرية غير كاف على أن تشعر بالسعادة، وما السعادة التي تبحث عنها؟

البارحة عُرض برنامج خاص عن ذلك الجزء من العـالم الـذي احتلتـه ضـحكات شريـرة لقلـمٍ كتـب الضحكات علانية ورسم الإنـسان بـشفافية. عـرض البرنامج وثائق سرية فضحت مـدناً وهياكـلَ محـشوةً حقداً وكراهية، وأماطت اللثام عن وجوه تدَّعي الجمال والحنان، وأسدلت الستار على مسرح يتيم، لكنه خبيث ولئيم!...

ريا أحمد

(ن. ر)

امرأة تحطم امرأة. لم يعـرف أحـدٌ الـسبب حتـى بعـد أن حدث ما حدث. هي التي خطبتها لابنهـا مثـل أي أم تتمنـى لابنها زوجة مثالية، وهي التي حرصت على أن يكـون حفـل الزفاف مميزا لتتفاخر به في محيطهـا الاجتماعـي، وهـي في ذات الوقت السبب في أن تكون حياة زوجة أبنها جحيماً لا يطاق.

ربما لذلك لم تستطع ن، ر أن تحكي مآساتها لي وجهاً لوجه وفضلت الكتابة عنها بعد أن اختفت فجأة عن زيارة صغيريها في المدرسة. وربما لتوضح لي سبب شرودهما فيما مضى وسبب شحوب وجهها وتـدهور صـحتها وسـؤالي الـدائم لهـا عـن ضرورة إجراء فحوصات طبية لها من اجـل صـغارها الـذين يحتاجون إلى رعايتها.

جاءت رسالتها عبر البريد شارحة لي كل ما خفي عني في محاولة منها لفهم نفسها كما تقول:

((أكتـب لـك الآن مـن كنـدا وأنـا في قمـة اسـترخائي وهدوئي رغم الألم الذي لا زلت أشعر به، ورغم وجود ابنتي أمل التي لم تتجاوز الشهرين إلى جواري. بعد زواجي من رجل قدر ظروفي الصعبة التي مررت بها واصطحبني معه إلى مكان عمله في كندا. زواجي كان الطريقة الوحيدة للخروج من دائرة

مغلقة كنت أتلقى فيها صنوف العذاب اليـومي الفظيـع دون ذنب ارتكبته غير أنني وافقت على الزواج من رجـل لم ينقطـع حبله السري بأمه بعد، رغم تجاوزه الثلاثين عاما.

هذه الأم التي حيرتني كثيرا قبل أن تبدأ في التلذذ بتعذيبي دون أن اعرف الـسبب. هـل هـي شـدة حبهـا لأبنهـا وعـدم تصورها أن تشاركه فيها امرأة أخرى حتى لو كانت زوجته. أم أنني لم أكن بالمواصفات التي تريدها له ولذلك سعت جاهدة لتفصلني عنه وبشتى الطرق. وإن كان كذلك فلـماذا لم تفعـل ذلك منذ البداية قبل أن أنجب طفليَّ اللذين لا ذنب لهما في كل هذه المشاكل.

فعلت ما بوسعي لإرضائها رغم عـدم قناعـاتي. تركـت عملي لأنها أقنعـت زوجـي أن العمـل في شركـة أجنبيـة مـع "الكفار" حرام وأنني ارتكب إثما وما اجنيه من مال هو حرام. فعلت ذلك وأنا لم أكـن مقـصرة في أعـمال المنـزل وفي شـئون صغاري. واستبدلت الوظيفة بالتدريس فإذا به يفاجئني بالمنع من التدريس أيضا بحجة أن الطلبة سيرون "فنيجي" وأنـا اكتب على السبورة وهذا لا يروقه.

ما أذهلني في طلبه هذا هو هذا التفكير في الجنس بـشكلٍ

فنيجي: اردافي

مخجلٍ وكأن جسدي رذيلة حتى وأنا أؤدي عملاً مقدساً، وانه المالك الوحيد له.

لا ادري لماذا كنت أصر على العمل رغم هـذه المـشاكل، ربما لأنه كان شرطي الوحيد وأنا أوفق على الزواج منه لأثبت ذاتي وأعيش الحياة بطريقة مختلفة عن بـاقي بعـض اليمنيـات اللاتي تتحول حياتهن إلى روتين ممل من أعمال المنزل صباحا إلى مقايل القات عصرا وإهدار الوقت في اللا شيء عـلى حـساب استقرارهن ورعايـة شـئون بيـوتهن وأولادهـن. ومـع ذلـك توقفت عن كل ذلك ولو إلى حين كما كنت أقنع نفسي.

ما فعلته أم زوجي من مماحكات بعـد ذلـك لا يـصدق، تلميحات جارحة عن أدائي في أعمال المنزل وصلت حد إهانة والدتي التي لم تعلمني شؤون النظافة في جسدي وفي منزلي كما يجب. أما حديثها عن زوجات أبناء صديقاتها ومقارنات أبدو فيها قبيحة وغبية ولا استحق البقاء معـه وأنهـا مـستعدة لان تزوجه بأخرى أذا وافق.

ما فاجأني في احد الأيام بل أذهلني هو خروجي مـن غرفـة نومي بعد منتصف الليل للذهاب للحمام وإذا بها نائمة إلى جـوار الباب وهي في وضعية الجلوس، تساءلت عندها عن غرضها من هذا التصنت علينا؟ هل تحب ابنها إلى هذا الحد؟ هل سمعت مـا

دار بيني وبينه؟ هل استطاعت أن تميز كلماته النابية في أذني والتي تسعدني بشكل خاص؟ هل عرفت لماذا نستخدم كميات كثيرة من الشمع نستلذ بإحراق جسدينا ولو بشكل طفيف ونمارس ساديتنا معا بمتعة هائلة دون أن يؤذي أحدنا الأخر؟ هل عرفت كل ذلك؟ لا اعرف كانت نائمة، بل تبدو أنها مستغرقة في النوم! أم أنها تتناوم؟ هل أوقظها؟ وان فعلت فماذا اخبرها وكيف لها أن تفسر وجودها نائمة أمام باب غرفة نومنا الحميمة، التي اشتعلت منها منذ دقائق تأوهات بحجم اللذة التي كانت!!!

هذا ما كان يحيرني في زوجي أنني افعل معه وله الكثير داخل حوائطنا الأربعة! ومع ذلك لم يكن أمامها كما أريده أن يكون: مُحِقاً لا يخشى غضبها الغير مسبب وكرهها لي الغير مقنع ودون سبب. كان يسمعها ساكتا دون أن يدافع عني أو يصحح لها معلوماتها أو يراجعها. كان يتحدث عن امتنانه لها في تربيته وترملها عليه بعد وفاة والده وأنها رفضت الاستمتاع بحياتها رغم صغر سنها من اجله وفضلت عدم الزواج مرة أخرى.

حاولت مرارا أن أسرب له أن هذا واجبها ولا تحتاج منه إلى كل هذا الخنوع على حساب سعادته وعلى حساب تعذيبي دون فائدة. يرضيني ويعتذر لي في غرفة النوم كلما أراد الاستمتاع معي فقط، عدا ذلك هو معها حتى النخاع.

جعلني صغاري أتحمل كل ذلك، كان تبريري الوحيد لأسئلتهم كلما شاهدوا جدتهم تتلذذ في اهانتي: أنها كبيرة وطاعتها واجبة وتحمل عصبيتها.على أمل أن تكف عن ذلك أو تخفف على الأقل منه أمام الصغار وأمام زوارنا. كانت كلمة مطلقة ترعبني ولا أتخيل نفسي مطلقة خاصة بعد أن شعرت بمعاناة صديقاتي المطلقات في المجتمع وبين أهلهن. لذلك قررت الاستمرار في الاحتمال ما دمت قادرة على ذلك.

نصحتني إحدى صديقاتي على اخذ حبوب مهدئة لأنسى كل ذلك الألم والشجار الدائم معها ومعه أيضا وكان ذلك. طلبت منها إعطائي منها لأنها تستعملها و تريحها بشكل رائع رغم أنها تحيا حياة خالية من المشاكل. وفعلا أعطتني كمية من هذه الحبوب، كانت تجعلني اشعر أن كل ما يتفوه به كل المحيطين بي مجرد سخافات وتراهات بلا معنى.

أثار برودي وعدم ردي استغرابها لكنه لم يثنها عن الاستمرار في كل ما تفعله. أصبحت أوقاتي الخاصة مع الحبوب هي أجمل ما في حياتي إلى أن اكتشف زوجي ذلك ومنعني من تناولها ووافقته بشرط أن تكف أمه عن تدمير حياتي. وعندما اخبرها بذلك أقامت الدنيا ولم تقعدها وقالت أنني أصبحت مدمنة مخدرات وعليه تطليقي ورغم استماتته في إفهامها إنها كانت مجرد حبوب مهدئة وليست مخدرة، لكنها رفضت أن تسمع وأصرت على ما طلبته منه.

عدت إلى منزل العائلة وأنا مدمرة لأنها شنعت عليَّ كثيرا وأصبحت أمامهم كما قالت هي بالضبط: "مدمنة مخدرات" منعت من الخروج ومن العمل ومن ومن... باختصار حرمت من الحياة. وما كان يعذبني هو بعدي عن صغاري لذلك كنت أزورهما في مدرستك وأنا غير راضية عن حالتهما.

شعرت بالقهر والظلم مما أصابني. كان عدم مشاركتهما لحظات نموهما قاتلة بالنسبة لي. أردت أن أكون مع ابنتي وهي تبلغ مبلغ البنات. أردت أن اسمع تغير صوت صغيري وهو يبلغ مبلغ الرجال، أردت عيش تجربة مراهقتهما ونضجهما. مجرد مرور عدم تحقيق ذلك يصيبني بالجنون. لكن ما بيدي حيلة غير العجز. لقد أحكمتْ قبضتها عليَّ وأصبح من المستحيل عودتي لأبنها خاصة بعد أن اتضح لي أن الحبوب فعلا كانت تحتوي على مادة مخدرة. وان السجاير التي كانت تحضرها لي هي عبارة عن لفائف من الحشيش لذلك كنت أبدو في حالة انتشاء وتطنيش لكل أفعالها الجائرة وعدائها الغريب، وأفعاله أيضا. وجدتني أتقطع من الألم في مواعيدها وأصبحت حاجتي لها ضرورية لأنسى ما أنا فيه لذلك اتصلت بها وطلبت منها إمدادي بالمزيد من الحبوب ومن السجاير دون أن يعرف احد بذلك.

منعه لي من رؤية صغاري جعلني أُغيِّب نفسي عن هذا العالم بإرادتي إلى أن سقطت فجأة واكتشف الجميع ما كنت

افعله. تم وضعي في مصحة لعلاجي من الإدمان الذي لم أكن أتخيل أنني وصلته ولم أتخيل أيضا أنني كنت بهذا الضعف. عدت للمنزل محطمة لكن الجميل أن أهلي قد استوعبوا الدرس جيدا وأنهم ساهموا في ذلك المصير الذي وصلت إليه بعدم تصديقهم لي عندما كنت اشكو لهم بما تفعله بي أم زوجي، وإعادتي منصاعة ذليلة في كل مرة احنق فيها بحجة أنهم لن يصرفوا أموالهم على عيال الناس لذلك كانت حنقاتي بعد ذلك بدون صغاري.ندم أبي وأمي وأخي على تقصيرهم نحوي واعترفوا بأن تفهمهم لي كان سيحل الكثير من مشاكلي.

قررت بعدها أن لا أشرك أحداً في مشاكلي واصريت على العودة لعملي السابق. وتحت إلحاحي وافقوا فهذا أفضل من شيء آخر أدمنه. بعد شهرين جئتك للمدرسة لأرى صغاري أو بالأصح أودعهم لأني قررت المغادرة دون أن يعرف أحد مع رئيس الشركة الكندي الذي طلب مني الزواج بعد إشهار إسلامه. وكان له ما أراد وها أنا اكتب لك وكلي شعور بالراحة بعد ما عانيته طيلة عشر سنوات دون أن اعرف لماذا!!! أنظر في عيني صغيرتي أمل واشعر بنبض الحياة يدب في عروقي من جديد....

وأصل الحكاية أن أماً ككل الأمهات أرسلت ابنتها لزيارة جدتها المريضة وحملتها سلة مليئة بالهدايا للجدة، وفيما الفتاة سائرة في الغابة خرج لها فجأة من بين الأحراش ذئب أغبر، وحاول التودد إليها. فما كان من الفتاة إلا أن اقتربت من الذئب وقاسمته الهدايا التي في السلة، وفجأة هجمت عليه ونهشت عنقه فمات. أكملت طريقها بهدوء...

هند هيثم

(ن، ز)

حلمت به كما حلم بها. فعلت الذي عليها وأنهت دراستها الثانوية وتحججت كثيرا أمام خطابها حتى ينتهي من دراسة الجامعة ويحصل على وظيفة ليتقدم لخطبتها. وسامته وعائلته المشهورة صورت له أن بإمكان أي فتاة القبول به. خذلها بفشله ولم تجد ما تدافع به عنه أمام عائلتها. رضخت لهم وقبلت الدكتور الذي تقدم لها. لا مجال للمقارنة بين عاطل وسيم ودكتور حتى لو كان قبيحا نوعا ما ولا يرضي أحلامها أبدا.

بدا واضحا عدم انسجامها معه من ليلة زفافهما. كانت عكسه تماما في فرحه وفي احتفائه بها وبجمالها الفاتن أمام ضيوفهما. لم يكن يرى غيرها في حين انشغالها بصديقاتها وفي السؤال الدائم عن جمالها وجمال فستانها والخدمات التي طلبتها ليكون حفل زفاف مميز.

تركته حائرا لا يعرف كيف يتصرف معها وهي تغير ثيابها وتستلقي على جانب السرير وتغط في نوم عميق وكأنها ليلة عادية. ومع ذلك راعى كل ظروفها التي بررها بالخوف والاضطراب في هذه الليلة بالذات، وانتظر حتى تسترخي من ذاتها بعد أن بدأ أهلها وأهله يطالبونهما بما يدل على بدأ حياتهما الزوجية السعيدة المعمدة بالدم.

لم يهتم أيضا بالتلميحات التي كانت تشير إلى احتمال ضعف في قدرته الجنسية على أن يصيبها أي بوادر اتهام تشكيك

في عذريتها التي كان فقدها لها آخر توقعاته. أخبرته أو كذبت عليه بأنها لم تخبر أمها عن تلك القطرات من الدم في ملابسها الداخلية وهي تسوق دراجة شقيقها بعد أن انقلبت بها. لم تتجرأ أن تخبره عن ما فعله جارها أو حبيبها معها وعن تخليه عنها بمنتهى الدناءة. تفهم كل ذلك وسارت حياتها كما يجب دون أن يذكر هذا الموضوع مجددا فليس للناس غير تلك الخرقة التي تساوى حياة وسمعة البنت دون أن يعرفوا أن قطرات من أي جرح في الجسد قادرة على أن تقوم بذات المهمة.

لم يرفع تصرفه النبيل معها من قدره في حياتها وظلت على فظاظتها في التعامل معه وفي الحديث رغما عنها، لم يكن من السهل نسيان حبها الأول رغم ما بدر منه من دناءة وتخلٍّ عن واجبه نحوها. أنجبت ابنها الأول ومن ثم ابنتها وأخيرا ابنتها الثالثة في أربع سنوات متتالية وهو يبدي لها في كل عام حبا وتعاملا راقيا يليق بحبه لها.

في بداية سنتها الخامسة معه لم تتوقع أن ينقل لها خبر وفاته فجأة وهو يفض اشتباكاً بين اثنين في سوق القات الذي تكثر شجاراته حيث تلقى طعنة من احد المتشاجرين سقط ميتا على أثرها في الحال بعد أن اخترقت قلبه.

تم نقلها للمستشفى حيث دخلت في حالة سيئة وهي تردد: (كنت سأبدأ معك حياة أخرى اكتشفت خطأي وشعرت كم

كنت نبيلا معي! كنت سأجعلك تعيش في جنة دائمة بعد ما عانيته مني طيلة أربع سنوات وأنا اجري وراء وهم تمسكت به رغم كل الدلائل أمامي. كنت سأعوضك الليالي التي حاولت فيها أن تجعلنا متكاملين ومتحدين وشريكين في المتعة وأنا بمنتهى الأنانية أقهرك بل وأذلك دون رحمة، أجلدك بسياط أنوثتي وحاجتك الروحية لها، لم تكن تطلب جسدي، أعلم ذلك جيدا، ومع ذلك كنت أدعي غباءً مفرطاً لأبتعد عنك! كنت وكنت وكنت فلماذا تركتني ورحلت؟...)

شعورها بالذنب كان واضحا بعد ذلك في اهتمامها المبالغ بأولادها وفي لبسها للسواد لأعوام طويلة، حتى أدوات التجميل والعطور تجنبتها.

لم تتوقع مغادرته كما لم تتوقع أن تقضي بقية حياتها في تربية صغارها وهي تعض على أصابعها من الندم.

تأتي لأخذ صغارها من المدرسة بسيارتها رغم توفر الباص وارى وجهها وقد كسته التجاعيد رغم أنها في منتصف العقد الرابع أي لم تتجاوز الخامسة والثلاثين بعد. ارثي لحالها واقدر شعورها تماما وأدرك أن مهمتها صعبة في تربية صغارها الثلاثة دون رجل فيما عدا شقيقها الأكبر الذي لم يبخل عليهم بالمال والوقت ليعوضهم ولو قليلا عن فقدان أبيهم. كما أدرك تماماً أن شعورها بالذنب مما فعلته لن يغادرها مهما فعلت!...

كل مساء تفقِّس آلامي
تبصق وجعها
دموعاً خداج،
ثمة ما يهزمنا...
يظلل وجودنا
سخطاً
نشيخ، وتهرم
أفكارنا الأنيقات
كل مساء
تغدو محض تخاريف مخجلة،
ولم نقل بعد شيئاً...

نادية مرعي

(ن، ف)

الموت والحياة يجتمعان معا في أحيان كثيرة وفي أماكن متفرقة في العالم ومع كثير من الناس، لكن أن يجتمعا في يوم واحد لإنسان واحد هذا هو الغريب وهذا هو المفزع في الأمر. عند حدوث شيء كهذا يلزمك أن تسأل نفسك لماذا حدث لي أنا بالذات؟ وهل لله حكمة في حدوثه؟ هل يلزمني أن أقف برهة أمام ما فعلته لألقى هذا العقاب؟ وهل حقا يعاقب الله عبده في الدنيا؟ وربما يمتحنه عن ذنب اقترفه في حياته؟

أعرف انه سبحانه أعلى من ذلك ليعاقب العبد الضعيف الذي يبتهل له كثيراً في كل أيامه، في صبحه ومساه، في سرائه وفي ضرائه. لكن لماذا فعلت بي هذا يا رب؟ لماذا قدرك قاسي عليَّ إلى هذه الدرجة؟ لما حرمتني من نعمك دفعةً واحدة؟ أن اشعر بمتعة كوني أم وزوجة وأمامي الحياة والمستقبل؟ لماذا كان قدرك أن تأخذ زوجي إليك في ذات اليوم بل في ذات اللحظة التي ولدت فيها ابنتي؟

سألتهم نعم سألتهم متى توفي بعد أن خرجت السيارة عن مسارها في ذلك الحادث الأليم، وانقلبت عليه لتودي بحياته في الحال؟ لماذا جعلت موعد ولادتي يتقدم أسبوعا، لذلك قام برحلته تلك التي كانت ضرورية لعمله.؟؟ استغفر الله

العظيم، يبدو ن الإنسان يفقد أعصابه في المصائب وينسى حكمته سبحانه وتعالى في تسيير شؤون عباده. اغفر لي يا رب. فأنا في اضعف لحظات عمري وأقساها. فقدت زوجي في ذات اليوم الذي أنجبت فيه ابنتي. هل افرح بها أم انتحب من البكاء عليه؟ أكاد المس الشعورين في ذات اللحظة!... كلاهما مُر.

الفرح يتحول إلى مرارة إذا لم يأت في وقته رغم شوقك له وانتشاءك بتحقيقه. الفرح الذي يجعلك كائنا هلاميا في الفضاء تنظر للعالم بعيون مخضلة بالدموع ينعكس فيها كل ماضيك وكل ما فعلته لتكون في هذا الموقف القاسي بل والمؤلم الذي لا يمكن لمن يراك فيه إلا أن يشفق عليك.

تتحول الشفقة أحيانا إلى أمل تتشبث به في عيون الآخرين. الشفقة تؤازر ضعفنا في تلك اللحظات كم هي قاسية لحظات ضعفنا علينا وعلى الآخرين من الذين يحبوننا.

هل تلك القوية التي سعت لأن تفعل كل ما تريد وبمنتهى الأنانية هي أنا في لحظات الضعف هذه؟ تلك التي أصرت على الزواج من رجل متزوج كان مستقرا في حياته بعد أن لاحقته طويلا وشغلت باله بأفعال وتصرفات لم يستطع أمامها المقاومة ورضخ لها منذ الجولة الأولى.

صحفية تحت التمرين وهو رئيس التحرير ذو المبادئ التي

لا يحيد عنها. مبادئه السياسية ورغبته في إصلاح ما يمكن إصلاحه في اليمن. شعوره بالمسئولية تجاه مجتمعه كان طاغيا على ما عداه، ملامحه البريئة وتعامله الإنساني مع كل المحيطين به. مساعدته أيضا لكل من حوله، كل هذه الصفات كيف كان لي أن ادعها تذهب لامرأة أخرى فرضتها عليه الظروف. امرأة من القرية، غير متعلمة، غير مثقفة، تزوجها فقط ليرضي والده ويصبح رجلا متزوجاً، تركها بعد أول سنة ليكمل تعليمه في القاهرة وعند عودته كان إلى جوارها ابنهما البكر. عاش معها الحياة هكذا، أمر واقع! أنجب منها أربعة أبناء وعاشوا في سعادة إلى أن ظهرت في حياته.

عندما بدأت أشاغله عن تعمد لم يصمد طويلا. أنا وهو كان لدينا استعداداً لأن نعيش قصة حب رائعة، إلى أن نتماهى في العشق لنصل ذروته، لذلك لم يكن بإمكاني أن اتركه لامرأة أخرى لأن حبي له كان يفوق أي حباً آخر في حياته.

شهدت صنعاء قصة حبنا المجنونة بتفاصيلها الصغيرة، لم نهتم بأحد من حولنا. كنت الصحفية تحت التمرين وهو رئيس التحرير دون أن يعرف أحد حقيقة العلاقة التي بيننا. عشق لا حدود له وجذوة حب ملتهبة. كلانا لم نعش هذه المشاعر من قبل. كلانا انساق لها دون وعي بمخاطرها أو بظروفه وظروفي.

كيف يعمي الحب كل ما عداه؟ كيف يجعلنا عالم مستقل بذاته منفصل عما حوله؟

لم أفكر يوم زفافي في زوجته وفي مشاعرها وأنا أخطف منها زوجها وأتزوجه. لم احترم حتى رغبته في أن نُخفي موضوع زواجنا لفترة من الزمن وهو سَيُعلمها وسَيُعلم أولاده بهدوء. كنت قاسية جدا معها. وهو في قاعة الاحتفال وقبل أن تبدأ زفتنا، زفيت إليها الخبر الذي لن تجد في حياتها القادمة أسوء منه.

"إنها ليلة زفافي على زوجك، عند عودتي من شهر العسل لا أريد مشاكل" بادرتها بهذه العبارة حال رفعها لسماعة الهاتف، أتذكر ما فعلته فيها اشعر بالذنب واحتقر نفسي.

واجه مشاكل كثيرة عند عودتنا وحتى وفاته. لم أفكر فيها، أنا في حقيقة الأمر لم أفكر فيه وفيها أيضا منذ بداية تآمري عليه والاستيلاء على عواطفه ومشاعره كلها، لذلك لن يفكر احد فيَّ في هذه اللحظات التي احتضن فيها ابنتي واستقبل عزاء وفاة والدها في ذات الوقت.

أن افقده بهذه السرعة فهذا يعني أنني فقدت حياتي أيضا وسعادتي وعمري الذي تمنيته وحلمت به معه. فكرت في الانتحار كثيرا لارتاح لأن لا حياة لي بدونه لكني أيضا فكرت بابنتي وابنته وان قدومها هو الرحمة المهداة من الله لي لاستمر... ربما

لو أنا مزقت أكفان احتضاري
وخلعت الخوف من نفسي
وأثار انكساري
لو أنا دافعت
عن حقي وعن رد اعتباري
لو أتيتك ذات يوم
كي اعبر عن مراري
أو تحول طول صمتي واصطباري
ثورة تغلي براكيناً
وتنذر بانفجاري
ورأيتني أهذي
واخرج عن وقاري
لا تعاتبني

أمة الرحمن الشرفي

(ن، ط)

جبانة، هذا هو الوصف الذي يليق بي واردده دائما بيني وبيني. لماذا؟ لأني لم اثأر لكرامتي منذ البداية واعتبرت أن احتمالي لكل ما عانيت سأجد له نتيجة ايجابية ولو بعد حين. لكن هذا لم يحدث وأصبحت مُهانة أكثر من السابق من رجل لم يقدرني يوما ولم يرع النعمة التي منحه الله إياها، نعمة الزوجة الصالحة والأولاد الأصحاء.

احتملت ضيق حالته المادية بل عسرها في بداية زواجنا وتحملت الكثير من المشاكل الأسرية التي كانت تنشب بين أفراد البيت الواحد، مع أشقائه ومع نساء إخوته ومع أمه. مشاكل أقنعت نفسي أن حدوثها ضرورة لاختلاف الطبائع البشرية في أن تجد لها وسائل للحياة بشكل جماعي. فما بالك بذلك الكم من العائلة في إطار البيت الواحد باختلاف أعمارهم وطبائعهم وبيئات قدومهم. لذلك تحملت كما لم يفعل أي فرد فيها وكنت بشهادة الجميع "حمالة أسية" على قول المثل المصري.

احتملت كل شيء لحين ميسرة. حجرتان لي ولصغاري كانتا كافيتين لتكون مملكتي التي افعل فيها ما أريد، وما خارجها من مماحكات: في أعمال المنزل، في تحوير الكلام، في مشاكل أشقائه المراهقين وشقيقاته، لم يكن يهمني رغم الضغط

الشديد على أعصابي. وفي آخر اليوم كنت مطالبة بعدم الشكوى أو إبداء الاستياء من وضع كهذا حيث لا مفر منه. وعليَّ أن ابتسم واضحك وأكون في كامل أناقتي، تفوح مني رائحة "البخور العدني" المثير، ليدغدغ شهوته وينتشي معي طيلة الليلة ينسى فيها تعب يومه وكده.

لا يهم إن قضى الليلة بطولها رابضا عليَّ، المهم أن استيقظ أنا باكرا للقيام بمهامي وهو يستيقظ متى ما أراد...

كافأني بعد أن تمكن من الحصول على توكيلات لأجهزة الكترونية وأصبح وضعه المادي ممتازاً بأن تزوج امرأة أخرى. والدتي تقول دائما لا يفعل هذه الفعلة أي الزواج على أم أولاده إلا "كثير المال" أو "قليل الحياء" وهو كما اعتقد كان فيه الصفتان. كَثُّر ماله وأصبح يتحدث بصفاقة عن حاجة عضوه المنتصب باستمرار لامرأة أخرى واني غير قادرة على إرضائه.

كانت عودتي لمنزل أهلي بعد ما فعله هي الحل والبحث عن وظيفة ملائمة لي بمؤهلي الجامعي ومع ذلك لم افعل. لم أتصور هذه العودة بأطفالي الأربعة ولم أتخيل تعليقات أهلي خاصة وهو لم يتمسك بي ولا عذر لي في طلب الطلاق وأن ما فعله من حقه. انتشت العاصمة بأسرها بخبر كهذا، كنت حديث المقايل التي احضرها كيف تزوج زوجي عليَّ وأنا كنت

نعم الزوجة الوفية التي تحملت ظروفه وهو فقير ونكث بعهده لي وهو غني. والأدهى أنني غاية في الجمال ومواصفاتي الجسدية لا غبار عليها أو عيب ظاهر يشوهها، ومن تزوجها لا تكافئني في شيء، لا علم ولا ثقافة ولا أصل.

إذا ماذا يريد هذا الرجل أكثر من ذلك.

إذاً أنا استاهل كل ما يجري لي، أنا التي لم تتخذ موقفا رادعا منذ البداية لذلك لم يهمه أن يكررها للمرة الثالثة. يعود إليَّ بعد كل زيجة وهو يردد "ما الحب إلا للحبيب الأول!..." جرحي كان اكبر من تصديقه. اهانتي بهذه الطريقة واعتباري مجرد جسد لإفراغ رغبته كانت تثيرني بالتقزز. ومع ذلك لم أحرك ساكناً غير الاستمرار في تربية الصغار وإضافة طفلين آخرين.

أصبحت الأولى أم الأولاد التي يعود إليها في أي قرار من قراراته خاصة بعد أن أصبحت ثروته تزداد يوما بعد يوم وأصبح الحفاظ على حق أولادي في قائمة مهامي. ومع ازدياد ثروته كانت مشاعري تضمحل بالنسبة له. صرت اشعر بالقرف عند معاشرته لي وأنا اعرف انه في الغد سيذهب للأخرى وبعده للثالثة. لم يكن هذا يهمه وأصبح كل واحداً منا متعوداً على الآخر ليس إلا. لا يتخيل حياته بدوني كما لا أتخيل حياتي بدونه. وكل ما استطيع أن أقوله الآن أنني أصبحت

حارسة لأمواله من اجل صغاري وممتنة من تفكيره في عدم الإنجاب من الأخريات حتى لا يجرحني. ماذا عنهن ولماذا وافقن على شرط كهذا يمنعهن من الأمومة، أقدس وأسمى شعور يمكن أن تصله المرأة. كانت موافقتهن على ذلك كافية لأن تجعله يشعر أنهن يردنه من اجل المال، المال فقط. لكنه إضافة إلى كل الصفات السابقة، غبي!!!

قررت أن أحيا الحياة التي أرادها دون التفكير فيه. استمتع بماله وأمتع صغاري أيضا الذين أصبحوا كبارا بما يلزم ليشقوا طريقهم في الحياة. وهذا ما جنيته من صبري على ما فعله بي والدهم من اهانة بتعدد زيجاته. لم احرمهم من شيء. بيت فاره، سفر بمعدل مرتين في العام والبحث عن زيجات تليق بهم في مجتمع سينسيه المال كل شيء، كل شيء...

*****

لا يهم الموت جوعا ما دمنا محتجبات من العيـون النهمة. كان هذا الكيان الذي أحبه يردد على مسامعنا أن المرأة مكانها دارها، تتقرفص فيه إلى أن يأتيهـا ابـن الحلال، التعليم مقصور على القرآن والصلاة وما عـدا ذلك ممنوع بحكم العيب. لكن يا والدي العزيز عالمنا المنقطع عن كـل شيء، كيـف بـه سـيعرف أن لـديك عانسات بحاجة لقليل من الحرية واستنشاق الذات...

منى عوض باشراحيل

(ن، ش)

عاملة النظافة في المدرسة، هل تصدقون أن مشاكل البسطاء هي ذاتها مشاكل الأغنياء؟ ليست نظرة دونية بالتأكيـد، لكـن لا تعقيد في حياتهم لتصبح لديهم مشاكل، هكذا أعتقد

كانت واجمة على غير عادتها وعندما سألتها عن السبب لم تجب واكتفت بقول: لا شيء. في نهايـة الـدوام اسـتدعيتها إلى مكتبي. الفترة التي قضتها وهي تعمل في المدرسـة والاحـترام المتبادل بيننا سمحت لي بسؤالها بشكل مباشر عـن مـشكلتها. أشفقت عليها وهي تنتحب من البكاء حال انتهائي من سؤالها. أشفقت عليها وهي في هـذا الـسن الـذي يفـترض أن تكـون معززة مكرمة في منزلها أو على الأقل منزل احد أبنائها لكن لا هذا ولا ذاك.

تأتي في السادسة صباحا لتنظف الفصول والساحات قبل حضور الطلبة وتغادر في منتصف النهار لتعمـل واجباتهـا في المنزل، تعوَّد زوجها أن يأكـل "لقمـة دافيـة " منـذ كـان في القرية، ولم تتغيب يوما أو تتذمر من عدم اهتمام الطلبة بنظافـة فصولهم، رغم وجود براميل القمامة في كل ركـن في المدرسـة. تتعاون المدرسات من حـين لآخـر في تجميـع مبلـغ مـن المـال

دافية: دافئة

وإعطائه لها خاصة في شهر رمضان كجزء من الزكاة، وأيضا إعطائها بعض الملابس المستخدمة لصغارها. تعودنا عليها هكذا: هادئة، متعاونة، مخلصة في عملها.

بعد أن هدأت شكت لي مشكلتها التي لم تكن تخطر لها على بال أو تفكر يوما في أنها ستمر بها: (لم يكن يوما هكذا منذ زواجي به قبل ثماني وعشرين عاما. كأنه شخص آخر لا اعرفه. تكالبت علينا أمور الحياة منذ قررنا مغادرة قريتنا والعيش في صنعاء بحثا عن الرزق، كما فعل معظم من في القرية، هجروا الزراعة وفضلوا العاصمة بمغريات العيش فيها بأقل مجهود وأكثر منفعة مادية. لم يكن معنا غير بعض الآلاف من الريالات هي كل ما نملك بعد أن باع أرضه. وبالكاد ساعدنا المبلغ لشراء قطعة ارض في منطقة "مذبح" خارج صنعاء في ذلك الوقت قبل أن يتحول الآن إلى جزء منها في مكان يدعى "مدينة الليل " وبنينا بيتنا وهو كل ما نملك.

كان حنونا ومحبا وودودا لي، تعاونا على الحياة هو بالعربة التي كان يسرح بها طيلة النهار بعد أن يختار فاكهة الموسم لبيعها بسعر الجملة وأنا بالتنقل في العمل من بيت إلى بيت ومن

مدينة الليل: منطقة انتشر فيها البناء بشكل عشوائي دون تخطيط رسمي وكان يتم بناء المنازل ليلاً.

مكتب إلى مكتب حتى استقر بي الحال في مدرستك يا أستاذة جود وبقيت فيها كل هذه الفترة بفضل معاملتك الإنسانية لي ومساعدة المدرسات.

تمكنا من تربية أولادنا وتعليمهم على حساب عيشنا برخاء ولو بسيط. خمسة أبناء وبنتين لم يبق منهم الآن احد في المنزل. شقوا طريقهم بعد أن نقلناهم إلى بر الأمان وانتهوا من الدراسة الجامعية فيما عدا البنتين، أصر على تزويجهما من أول خاطب لكل واحدة منهما ليلقي بحملهما ويرتاح وهو يردد: "زوج بنت الثمان وعليَّ الضمان"...

يشعر أولادي الآن بالخجل من مهنتي ومن مهنة أبيهم وكأنا اخترنا حياتنا ليعاملونا بهذه القسوة رغم ما فعلناه من أجلهم. لا يزورونا إلا فيما ندر! وإذا أرادوا التعبير عن طاعتهم لنا جاءوا لأخذنا من منزلنا الذي لم يعد يليق بهم إلى منازلهم الأفضل منه ولو بشكل بسيط. فيما عدا البنات يعاملننا بحنان بالغ، ويسألن علينا ويزرننا بشكل منتظم وأتمتع باحتضان ورؤية أحفادي منهما واشعر بسعادة لا حدود لها.

منذ ما يزيد عن عام تغيرت حالة زوجي وأصبح أكثر عصبية وهو نادرا ما كان يفقد أعصابه!... يقطع عمله ويعود للمنزل في أوقات متفاوتة وبشكل فجائي ولا يتركني إلا وقد

سأل عن كل صغيرة وكبيرة حدثت في غيابه: من زارني؟ متى عدت من المدرسة؟ ماذا فعلت منذ عودتي؟ مـن اسـتقبلت في غيابه؟ ومؤخرا بدأ في منعي مـن الخـروج مـن المنـزل دون أن يخبرني لماذا؟ رغم محدودية زياراتي لبعض جاراتي لتمضية وقت العصر وعودتي قبل المغرب للمنزل، ومع ذلك منعني ووافقت على البقاء رهينة أربعة حوائط حتى يهدأ وأتمكـن مـن معرفـة السبب وراء تغيره هذا؟

تمادى أكثر نتيجة عدم رفضي لأوامره! وبدأ يتلفظ بألفاظ لا تليق به حتى بدأ يشتمني بها وهو لم يفعلها مـن قبـل أبـدا! وأصبح يوجه لي كلاماً عن النساء وتـصرفاتهن الغـير محترمـة لأنهن مخلوقات قذرة ونجسة، ويسهب في وصف المرأة الخائنة بأقذع الشتائم التـي لم أتخيـل أن اسـمعها منـه يومـا! دون أن يوضح أو يشرح لي شيئا!

ضقت ذرعا بهذا كله وانفجـرت في وجهـه مطالبـة إيـاه بإيجاد تفسير لذلك دون فائدة!!! هددته بترك المنـزل والعـودة للقرية إذا لم يحك لي أسباب تغيره المفاجئ لأن الحياة أصبحت معـه جحـيماً لا يطـاق، دون فائـدة: لـن تـصدقي انـه قـال (ماعتسيري تفعلي ، تشتغلي قحبة!...)

ماعتسيري تفعلي: ماذا ستعملين؟

أنا زوجته أم أولاده يقول لي هذه الكلمة المهينة! لم يفعلها أبدا! لم يكن يوما هكذا! ما الذي حدث له؟ إنها لوثة بالتأكيد أصابت عقله لذلك صرت أخشى عليه من الجنون لكثـرة مـا يشرد ولا يتكلم إلا مع نفسه!...

سمعه جارنا ذات مساء وهو فاقد لأعصابه وبـدأ يـشتم ويصرخ دون سبب، وعندما اقترب منـي ليـضربني صرخـت واستنجدت وبدأت أدافع عن نفسي حتى أغاثوني وراح جارنا يوجه له كلاما قاسيا وكأنه يعرف سر تحولـه قـائلا: (أعقـل، مش كل النساء سـوا ومـش كلهـن خاينـات، حالـة أخيـك خاصة، وأخت زوجته اللي هربـت معـه وتـسببت في تـشريد أولاد أختها وجنونها ليست حالة سـائدة. أعقـل لان مرتـك جوهرة كما كنت تقول عنها دائما، ماذا تريد أن تفعل، أعقل ولا تتكلم في هذا الموضوع وأنساه للأبد.)

لم يزد عن ذلك لكن ذلك كان كافيا لأن اعرف سبب مـا حدث له. لم يتخيل أن يفعل أخوه ذلك، وان تكون امرأة سبب هذه المصائب التي حلت بالعائلة كلها. أصبحوا حديث كـل من في القرية وأصبحت الحكاية أسطورية زادوا عليها أكثر من حكاية نظراً لعيش أخت زوجته معهم منذ زمـن، وانـه كـان يعاشرها دون أن تعرف زوجته. لكن إن كان كذلك فما الذي

جعله يهرب معها الآن مادام هذا هو حالهم منذ زمن. أنا الآن محتارة كيف يمكنني أن أعامله وأحيا معه بعد أن فعل ما فعله. لم أتخيل الشتائم والضرب أيضا.

يمكث عند جارنا بعد فعلته ليلة البارحة. وأنا لا اعرف كيف يمكنني العودة والعيش معه من جديد.هل اذهب لمنزل إحدى بناتي أم أعود للقرية؟ لا هذا ينفع حتى لا أحرجها مع زوجها، ولا ذاك لان لا احد لي في القرية. كنا نمكث عند احد أخوته في الفترات القليلة التي كنا نزورهم فيها.

سمعتها وأنا واجمة بل مشدوهة من تصرف زوجها، وكيف يفكر هؤلاء بأخذ من يحبون بجرائم الغير. ما ذنبها هي فيما فعلته أخت زوجة أخيه؟ ما ذنبها هي ليعاملها بهذه القسوة لعام كامل دون أن تجني ذنب أو تسيء معاملته؟ ومع ذلك لم أشجعها على أي حل غير استيعاب ما حدث لزوجها من لوثة كما قالت وأنها مؤقتة ويجب أن لا تتركه يعاني منها، واثبات عكس كل ظنونه. لم يكن سهلا ما واجهه من كلام جراء ما فعله أخوه. خاصة إذا كان هناك من لمح له بشيءٍ عنه هو شخصيا وهذا ما سبب له هذه اللوثة كما يبدو.

*****

بي امرأة هجرتها القصيدة
وحلم توارث
جرح توارث
ثأر سيبقى بأطلال نفسي
ينبتني امرأة من دفاتر
بي امرأة هاجرت من عروقي
لتلقى سماءً ودودا
وغيماً ولودا
وترجع بي شهرزاد جديدة
واسألها أن تعودَ
فكل الرسالات والأنبياء
عند وأد الحقيقة كانوا شهودا
ليس إلا - شهودا

نبيلة الزبير

(ن، ث)

أكره ذلك الغياب الذي يصيب الجسد ويفصله تماما عما حوله، غياب ليس بموتٍ وليس حياة. شعرت بذلك الغياب حد التوحد منذ مشاهدتي لفيلم الفنان أحمد زكي" "امرأة واحدة لا تكفي" جسده مسجي على ذلك السرير دون حراك أو دلائل للحياة، يلتف حوله جماعة من الأطباء يحاولون إعادته للحياة في الوقت الذي يدير هو مع ذاته حوارا داخليا منفصلا عما حوله، ليشكل أحداث الفيلم! يشعر بهم وهم لا يشعرون به، تخترقه أعينهم في حين يخترق هو أغوار ذاته، يغرق فيها يتداعى أمامه كل شيء أوصله إلى هذه النقطة بالذات.

اكره ذلك، نعم أكرهه رغم أني الآن في ذات الموقف، في ذات الوضعية، جسدي مسجى على سريرٍ ابيضٍ، يموج في داخله كل شيء دون حراك، تشتعل ذاكرته بكل ما مر به طيلة خمسة وأربعين عاما من تناقضات. جسدٌ عاجزٌ عن الحركة أو الاحتجاج، عن القبول أو الرفض لكل ما يدخله أو يخرج منه من أجهزة لا يعرفها، أجهزة تحاول انتشاله من الغرق بل من الموت!... في الوقت الذي يتشبث هو بالغرق حد الموت!

تمنيت ذلك الموت منذ تلقى رأسي تلك الضربة القوية، الغادرة من الخلف، منذ استدار جسدي وهو يترنح من شدتها

ليستنجد من ذات الشخص الذي ناوله تلك الضربة!... لحظة لا يمكن وصفها أو التعبير عنها بالكلمات، لكن يمكن إدراكها. تماما. لحظة ليست مؤلمة لشدة قوتها لكنها قاتلة في معنى حدوثها.

جسدي يتشظى من الذهول، مرارة اللحظة، ضعفها، رعبها، قسوتها، كان أكثر من احتمالي. هويت على الأرض، فقدت الرغبة في الدفاع عن نفسي. تلقيت الضربة تلو الأخرى، في كل أنحاء جسدي، انهار كل جزء فيه، دماغي يفور، يبقبق الدم منه بغزارة على كامل ضعفي وهزيمتي. دائرة دم، بركة تتسع كل لحظة. بعض أعضائي أصبحت عجينة ترفض الانصياع للدفاع عن انتصابها بالحركة، يداي، ساقاي، أصابعي... أنا لا اشعر بشيء غير تلك الكلمات التي نطقت بها "لماذا الموت، اتركني ارحل"

فعلها وتركني، غسل الدماء من على جسدي، حملني للسيارة وجاء بي للمستشفى...

لماذا طلبت منه تركي؟ ألم يكن الموت أفضل لي من كل ما أنا فيه الآن؟ لماذا تمسكت بالحياة وهي لو نجيت ستكون بلا لون أو طعم معه أو بدونه؟

لماذا يكون معنى ظهور امرأة أخرى في حياة الرجل موت

الأولى أيّن كان علاقتها به، زوجة أو عشيقة أو حتى علاقة متعة عابرة؟ لماذا ينسى ماضي تلك المرأة معه؟ ينسى اللحظات الجميلة التي عاشها معها، ينسى القُبلة الأولى التي سرقاها من الزمن ومن العالم من حولهما، ينسى الغرفة التي أغلق هو بابه عليهما واندفع نحوها بكل ما أوتي من حب وشوق ولهفة لضمها والذوبان في ملكوتها! لماذا ينسى كل ذلك وتتحول إلى عدو لدود يجب التخلص منه بسبب ظهور الأخرى؟

لو فهم بان الأخرى ستصبح أيضا أخري لقادمة غيرها لما فعل! بل لو عرفت هي أنها ستتحول إلى أخرى لما طلبت منه أن يفعل بالأخرى الأولى ما فعل!...

قاسمته كل شيء، الخبز والسرير، أنجبنا الأولاد والبنات، لذلك كان يجب أن يكون الآتي أفضل وأجمل وأروع. الآتي الذي لم يعد لي غيره بعد أن مضى الأبناء كلا لحال سبيله. ولم يعد له غيري أيضا.

لماذا بحث عنها؟ لماذا بحث عن غيري؟ ربما هي التي بحثت عنه! لا يهم النتيجة واحدة وهي وضعي الآن على ذلك السرير الأبيض بين الحياة والموت.

هل سأعيش أم سأموت؟ كيف لي أن أُفهم من حولي أن الموت هو خياري المفضل الآن! كيف لي أن أُقبل يد الطبيب

الذي يجيد استخدام كل تلك المشارط على جسدي ويتفنن في جمجمتي التي شقها بكل ما أوتي من قوة حال تلقيها للضربة الأولى، وأقول له أن لا يفعل، أن يريحني بأفضل الطرق وأسهلها وليس هناك أفضل من الموت؟ كيف لي أن افعل كل ذلك وأنا غير قادرة على الحركة أو الكلام. غير قادرة حتى على رؤية من حولي أو إدراك أصواتهم؟...

ترى، هل هب أولادي عندما عرفوا بسقوطي المدوي من أعلى الدرج كما قال لي والدهم أن أقول إذا ما تم استجوابي قبل أن افقد الحركة؟ هل هب لنجدتي أخوتي وشقيقاتي؟! هل هناك احد من صديقاتي المقربات؟ هل افتقدنني زميلاتي في العمل وجئن حال سماعهن الخبر أم أنهن في انتظار أن يجمعن تبرعات لشراء باقة ورد تليق بزيارة الزوجة المغدورة؟

نعم الزوجة المغدورة، لكن دون أن يعرف أحدُ من غدر بي ولماذا! أنا الوحيدة التي اعرف وأنا الوحيدة التي يجب أن لا تصدق ما حدث لها. أن تخفيه حتى بينها وبينها لتعيش وتستمر. الحقيقة ستدهش كل المحيطين بي، لا خلافات ولا مشاكل بيننا ليفعل ذلك، ليقول أنني السبب في بحثه عن امرأة أخرى تعوض ابتعادي عنه وانشغالي بتربية أبنائه ونظافة منزله وصون عرضه أمام تحرشات زملاء العمل ومدير القسم الذي اعمل فيه.

هكذا تتحول المرأة في مجتمعنا إلى جافة وخشنة في معاملتها مع كل المحيطين بها من الرجال وإلا ضنوا أنها فريسة سهلة يمكن النيل منها. هكذا كان يقول لي لكنه لم يقل لنفسه شيء. وسمح لنفسه أيضا أن يعرف امرأة أخرى جعلت من عشرين عاما قضيتها معه لا تساوي شي. عشرين عاما كافأني عن روعة أيامها بعصا غليظة هوى بها على رأسي من الخلف بهدف قتلي، لينعم بحب امرأة أخرى يريد لها أن تسكن منزلي ذاته بعد أن بنيته حجرا حجر، بل وأن تنام على سريري ذاته بعد أن هدهدت عليه أحلامي وروضت عليه نشوته.

كل من حولي الآن يتمنون لي الحياة ولو بعاهات كثيرة، لكنه يتمنى لي الموت، يريد أن يسلبني حتى هذا الحق في أن أكون بخير.. أنا مثله تماما لا أتمنى إلا أن استمر في الغياب.

*****

كان الشارع صديقي...

فيه أجد سلوتي وضحكاتي...

أُخذت منه على حين غفلة وأنا ألعب بهدوء

كالعادة...

لأرتدي نصيحة لم تكن مفصلة على مقاسي...

" كلنا تزوجنا صغاراً، لننجب أطفالاً كثر...

يحملوننا عندما نكبر"

تزوجت...

وأنجبت...

وانحفرت حياتهم أخاديد طمست ملامحي

وطفولتي...

وعندما كبرت...

وعجزت...

وحده الشارع ظل رفيقي...

وملاذي...

سماء الصباحي

(ن، ب)

يقول: "هي أمك أما أنا فلست أبوكِ..." لذلك سمح لنفسه أن يفعل بي ما يفعل منذ أن بلغت مبلغ النساء بتلك الدورة الشهرية التي معناها في بلادي أنني أصبحت امرأة وقابلة للوطء حسب رأي أحد أئمة المساجد الذي صرح برأيه في أحد الجرائد معترضاً على قرار مجلس النواب بتحديد سن الزواج بـ١٧ عاما... لا حقوق لي بل حقوق عليَّ وهي أن أكون قابلة للوطء لمتعة الرجل الذي يريد الزواج. ماذا عني، عن رغبتي، عن آدميتي عن إنسانيتي، لا أحد يعرف!!!

هل هناك ظلم أكثر من ذلك؟

من رغب في وطئي هذه المرة هو أبي، والدي الذي كان سبب وجودي في الدنيا. ربما فعل ذلك بسبب فتوى من أحد أئمة الدين، بأن من كان لديه شك في نسب ابنته فعليه بوطئها! لو يعرف هؤلاء ما تسبب فتاويهم من دمار في مجتمع تنهشه الأمية ويؤدي أفعالاً شائنة في حياته باسم الدين. عرفت بعد ذلك عند متابعتي لأحد البرامج التلفزيونية عبر احد الفضائيات التي لم يعد لي غير متابعتها بعد أن توقفت عن المدرسة.أن ما فعله بي أبي هو ما يسمونه "انتهاك المحارم" وان هناك حالات كثيرة لنساء يتم انتهاكهن عن طريق اقرب المقربين لهن كالآباء والأخوة..

ابكي من أعماقي على حالي الذي وصلت إليه، بعد أن انعزلت في المنزل خوفاً من الفضيحة وأنا في المرحلة الإعدادية، منذ المرة الأولى التي إندس فيها أبي إلى جواري وأنا نائمة وبدأ يتحسس جسدي وهو يمسك عضوه. لم أستوعب الأمر، صعقت من المفاجأة، ارتجفت وقفزت إلى ركن الغرفة لأتأكد من ذلك الذي يشتهي جسدي، ربما أكون في حلم أو في كابوس يجب الاستيقاظ منه حالاً. لكنه كان حقيقة وما فعله كان يريد فعله عن قرار مسبق، ترجيته وأنا أبكي أن لا يقترب مني، لكنني لم يسمع، استنجدت بأبوته، فلطمني على وجهي حتى أرداني أرضا وكتم على أنفاسي بجسده المترهل وهو يقول أنت لست ابنتي، أنت ابنة أمك الفاجرة التي حملت بك لا اعرف ممن، لذلك سأتزوجك أنا لأني أولى بما أنفقته عليك من مال حتى هذا العمر!

صرخت من أحشائي، استنجدت لكل من هبوا لثني أبي عن فعلته البشعة، جدتي، عمتيَّ، أمي، دون فائدة، أوصد الباب على كلينا. كانت أمي تصرخ وهي توجه كلامها له أن ما فيه الآن هو نتيجة إفراطه في شرب الكحول وان شكه الذي بدأ في الازدياد من كل من حوله لا أساس له من الصحة. أقسمتْ له أنني أبنته البكر وأن شقيقيَّ أيضا ولديه من صلبه وأن يعوذ بالله من الشيطان ويفتح الباب قبل أن يغضب الله بفعلته تلك...

حلفته جدتي برحمة والده وأن لا يفضحها بين الجيران، بهذه الجريمة التي لم تسمع عنها أو تمر بها طيلة حياتها، حتى عمتيَّ رجتاه بأن لا يكون سببا في ضياع مستقبلهن، لن يتقدم لخطبتهن أحد بعد سماع ما سيفعله الآن من اعتداء على ابنته الوحيدة بعد أن شكك في نسبها...

لم يسمعهن جميعا واستمر في فعلته دون رحمة أو شفقة...

استيقظت وكأني غبت عن الوعي، راعني نصف جسدي العاري وثيابي المقطعة. كان أبي إلى جواري يغط في نوم عميق من شدة ما تناول من كحول. بقيت إلى جواره حتى يستيقظ ليعرف ما فعله بي، ربما شعر بالندم ويعتذر عن فعلته! وعن كونها غلطة حالة سُكر ليس إلا.

لم يفعل، استيقظ، رمقني بنظرات يتطاير منها الشر وشرايين عينيه تكادان تنفجران من شدة احمرارهما حال عيون كل المدمنين للكحول، قبل أن يطلب مني بصوت عال صم أذنيَّ مغادرة الغرفة وتركه في حاله.

خرجت كانت أمي على الباب تنتظر خروجي منذ البارحة، احتضنتني وأجهشت بالبكاء وهي تقول: "احتملت كل هذه السنين من أجلك، أما وقد فعل ما فعله فلا عيش لي معه وأنت أيضا، سيتمادى معك في الرذيلة لأن من يعرف طريق الشيطان والخمر لا يعود إلى الله أبدا. هيا سنذهب لبيت جدك عند أخوالك وليختار لنا الله ما فيه الخير"

كلامها كان منطقيا ومعقولاً لكني رفضت الذهاب معها، خشية أن لا يتزوجني أحد، عند أخوالي بعد حالي هذا! وخشية أن يتسبب ذهابي معها في غضب أبي الذي لن يفعل ما فعله مجددا بالتأكيد.

فاجأها رأيي بل كانت صدمة بالنسبة لها. لم استوعب إنها كانت تريد لي الحياة النظيفة بعيداً عنه لأنها تعرفه جيدا وما كان بقائها إلا من أجلي كما قالت. حتى اللحظة أعظ أصابعي ندماً على أنني لم اذهب مع أمي وأنجو بنفسي من أب سكران طيلة اليوم، أب أصبح لا يعي ليله من نهاره. شعرتُ بما كانت تفعله من أجلي وأجل شقيقيَّ حتى لا نشعر بالمرارة التي تشعر بها في محاولات لإصلاحه دون فائدة.

لم يؤثر رحيلها على أبي لكنه طلقها، قال "مقلع، تروح تتشرمط في قريتها بعيدا عني، عند أخوتها اللي كانوا يسمعوا كلامها لما تشتكي لهم مني وبلغت بهم الوقاحة ضربي أكثر من مرة دفاعاً على شرف أختهم وكرامتها" لم يؤثر عليه لأنه اعتبرني بديلا لها، زوجة يمارس معها الجنس متى أراد، وعاء لقذارته وعفنه. كرهت نفسي وكرهت كل من حولي، تعودوا على رؤيته في أي وقت يسحبني من يدي ويدخلني غرفته، يمارس معي الجنس مثل زوجته وعشيقته معا!

تعودت جدتي وعمتيَّ ذلك، المهم أن لا يخرج السر إلى خارج المنزل ولا إلى شقيقيَّ وإلا ستذبحني هي وعمتيَّ، لا

يريدون فضيحة بين الجيران، رغم أنها كانت تغضب مني إذا قصرت في أعمال المنزل وتعايرني بذنب لم ارتكبه أو أكون سبباً فيه: " يا مركبة أبوها نظفي البيت مثل الناس..."

هكذا يتحول المنكر إلى مجرد أمر عادي، يتحول اللا أخلاقي إلى أخلاقي مادام بعيداً عن الناس وعن كلامهم. الكل يخشى الفضيحة، لم يفكر في حياتي وفي مستقبلي احدٌ من كل المحيطين بي غير أمي التي خذلتها وتركتها ترحل بسبب انتظاري لزوج لا اعرف إن كان سيأتي أم لا.

تزوجت عمتيَّ وشقيقيَّ أيضا وأنا لا زلت في المنزل لا أغادره أبدا، غارقة في التفاهات من حولي لأستمر، في انتظار المجهول. لا زلت في المنزل انتظر عودة أمي يوماً ما لتخلصني مما أنا فيه لأني أصبحت عاجزة عن التفكير من شدة خوفي وتهديدات والدي إذا ما فكرت في الهرب مثل أمي. ما زلت حبيسة المنزل اسمع كلام الجيران يتردد عن أدبي وأخلاقي وقلة نصيبي في الزواج رغم خطابي الذي يرفضهم أبي واحدا تلو الآخر بسبب رغبته المجنونة في الانتقام لشرفه الذي فرطته أمي....مازلت في المنزل اسمع كلام جدتي كل صباح وهي تقول: هيا استيقظي يا مركبة أبوها..."

اللحظةُ... هذي اللحظة حيرى، واجمة وثوانيها تنحر!
اللحظة ليست إلا امرأة ثكلى، سلبوا منها كل المستقبل
وأنا في جدبِ اللحظة أبحر - لا غيمي فيها أمطر، لا
طيف الأمس معي، لا طفل غدي أقبل -
في غير أوان أدخر التذكار
في غمرة حاضرنا كنت أخبئ لوناً للماضي
لوناً يشبه زرقة أوهامي، لونا...
خابت كل ظنوني
لا الآتي جاء وضاعت كل اللحظات هباء
غامت أضواء اللحظة في ظلام ثرثار
واحترق الماضي - الحاضر، لم يبقَ من زمني إلا شبحُ دام
ذاك الشيء المتبقي النازف من قلب الأسود كان...
أنا من دون ستار

ابتسام المتوكل

(ن، ت)

((شيء ما يأكلني من الداخل لا اعرف ما هو. ربما قهري وعدم تعبيري عما يحدث لي هو السبب. شيءُ ما سيظهر ولو بعد حين. لا يمكن أن يكون ما أمر به هو الطبيعي لا يمكن أن أتقبل ما حدث لي بتلك السهولة، لكني فعلت وجعلت المرض يأكلني حتى قضى عليَّ...))

هكذا كانت تبادر بالقول لصديقاتها المقربات بعد ما حدث.

ما حدث لها ولا يمكنني نسيانه هو حالتها عند سماعها لخبر زواج أبي... جرت باتجاه "شماعة" الملابس أخذت الجاكت الذي كان معلقا عليه. احتضنته بين ذراعيها وجثت على الأرض وراحت تجهش بالبكاء.

قالت بدموعها ما لم تقله بلسانها. ظلت على هذا الحال نصف يوم، حتى تعبت كطفلة ونامت. لم أشاهد أمي تبكي بعد ذلك مطلقا كما لم أشاهدها تواجه أبي أيضا. حتى في وفاته. استقبلت العزاء فقط دون أن تبكي. ما لم تتوقف عنه هو احتضانها للجاكت كلما شعرت أنها تفتقده. وتعيده إلى مكانه في ظلام دولابها الخاص.

كنت أنا، شقيقتي وشقيقي أول المتضررين من الحالة التي أصابتها، حالة قيامها بالواجب والواجب فقط تجاهنا. بعد سماعها

خبر زواج أبي. لا اذكر أنها قامت باحتضاني وتقبيلي منذ تلك الحادثة. لا اذكر أنها تحدثت معي بشكل حميمي وعاطفي كما تفعل بقية الأمهات مع بناتهن وتحكي لي بعض صديقاتي عنه... لم تقصر أبدا في مسئوليتها نحونا أبدا. تعليمنا، نظافتنا، علاقاتنا الاجتماعية بما فيها علاقتنا مع أبي وزوجته وأشقائنا الجدد ليس إلا.

انعزلتْ بعض الشيء في علاقاتها الاجتماعية. اقتصرت على بعض الصديقات اللاتي تتناول معهن القات وتدخن المداعة لمدة ثلاث ساعات في اليوم. روتينها اليومي لا يتغير منذ زمن طويل.

بعد زواجي وزواج شقيقتي وشقيقي انعزلت أكثر. عواطفها بعد ذلك تجاه أحفادها كانت بذات الطريقة التي عاملتنا بها الواجب، والواجب فقط. عدا ذلك احتفظت به لذاتها. ما فعلته بعد وفاة أبي بسبب مرض السرطان الذي عانى منه طويلا كان شيئا غريباً، في المساء كنت إلى جوارها مع شقيقتي عندما غادرتنا فجأة وتوجهت لدولابها، أخذت الجاكت وصبت عليه كمية من الجاز وأحرقته. وبمنتهى الصلابة والقوة قضت وقتا ليس قليلا وهي ترى النار تلتهمه حتى أصبح رماداً.

المداعة: الأرجيلة

أخذت الرماد بيدها وهو ساخن، اعتصرته بقوة، سبب لها ذلك حرقا غائرا في بطن يديها اليمنى واليسرى ومع ذلك لم تصدر صوتاً أو تعبيراً عن شعورها بأي ألم. ترى ما كان يشغلها في تلك اللحظة؟ ما الذي جعلها تفعل ذلك وما الذي تذكرته وهي تمسك بالرماد الساخن؟ هل مر عليها أيامنا الجميلة مع أبي قبل أن يتزوج بأخرى، سفرنا معا لدول عربية وأوربية، سعادتنا الغامرة بكل تفاصيل حياتنا معا. إخلاصها الشديد له وتوفير كل ما يريده في الحياة؟

ما الذي جعله يضعف أمام سكرتيرته ويقلب حياته وحياتنا رأسا على عقب. ما الذي جعله يُلقي بكل سعادته السابقة خلف ظهره؟ ما الذي جعله يفعل بها ذلك؟ هل هناك ما نجهله بينهما؟ ولماذا لم تدافع عن بيتها بعد سماعها خبر زواجه؟ لماذا لم تقبل بنصف رجل لو كانت تحبه؟

نعم نصف رجل! ربما لذلك رفضت الاستمرار معه وفضلت الحياة كما أرادت. لماذا لم نعد نعني لها شيئاً بعد ما حدث لها؟ هل طغى حبها له وعاطفتها تجاهه عن شعور الأمومة؟ هل يمكن أن تتساوى مشاعر الحب بمشاعر الأمومة؟

ما فعلتُهُ أنا مع أولادي كان عكس ما فعلته أمي معنا. مئات القبل في اليوم الواحد وعشرات الإحتضانات لصغاري. الحديث

معهم بشكل دائم في القيِّم وفي التافه، مشاركتهم كامل تفاصيل حياتهم الصغيرة والكبيرة التي يحبونها والتي يكرهونها أيضا.

بعد أن حدث لي ما حدث من غدر زوجي يشبه تماما ما حدث لأمي، بدأت اشعر بكل ما مر بأمي من ألم عبرت عنه بطريقتها. لا يوجد الم لامرأة يشبه الأخرى، ألمي كان مختلفا وتعبيري عما فعله بي زوجي مختلف...

لماذا يفعل الرجل ذلك بالمرأة؟ لماذا يخونها وهي غير مقصرة نهائيا في واجباتها نحوه وهما يتشاركان ذات السرير ويقتسمان ذات اللقمة؟ لماذا لا يكون الصدق أساس علاقتهما في الحياة؟ أبي خدع أمي كما خدعني زوجي. فجأة بين ليلة وضحاها وجدتني مغدورة اسمع همس خبر زواجه من كل المحيطين بي، عداي.

لم افعل كما فعلت أمي. لم احتفظ بشيء من أشيائه كما فعلت، بل ألقيتها جميعاً في وجهه. صدمتي كبيرة فيه لأني حتى لو لم اشهد لذاتي فأن المحيطين بي يشهدون على حبي له وعلى تفاني من أجل صغاري وبناء مستقبلهم.

تصرفه معي عكس تصرف أبي، تعامل أبي بمنتهى التحضر، أعطى أمي بيتا ومصروفاً شهرياً لأنها لم تكن متعلمة ولم تكن تعمل. لم يقصر يوما في واجباته نحونا ماديا ومعنويا.

يحرص على أن نكون معه ومع أشقائنا من زوجته الثانية في أيام الإجازات وفي أيام الجمعة واستطاع أن يدمجنا معهم لأنَّنا أشقاء كما كان يقول. لكن ما فعله زوجي لا يمكن لأي بشر أن يتخيله. رفع دعوى بضم صغاري لحضانته نظرا لسوء أخلاقي مما جعلني أتنازل له عن صغاري حتى لا يدخلون في متاهات هم في غنى عنها، متاهات ستؤثر على تفكيرهم وستزيد من تساؤلاتهم عن الطلاق والخيانة والمحكمة وهم في سن حرجة.

أفهمتهم كل ذلك بالتدريج، وتغاضيت عن ما يحدثهم عنه أبوهم من حبه لهم وتفانيه في خدمتهم وتحقيره وتبكيته لي أمامهم. لم انفعل أيضا تجاه كل ما اسمعه منهم في اليوم الذي يزوروني فيه. حتى مبيتهم عندي لم يقبل به.

صغاري الثلاثة هم كل حياتي رغم ما مر بي. كان من حقي أن لا اقبل خيانته وان اختار حياتي! من حقي رجل كامل أحيا معه وأشاركه كامل حياة وكامل تفاصيل وكامل متعة. يبدو انه اندهش من ردة فعلي! يبدو انه اعتقد أنني سأكون مثل أمي! الحياة على ذكرى رجلٍ خان...

بعد زواجي من رجلٍ آخر، زادت حملته الشرسة نحوي، رفض أن أرى صغاري نهائيا وأصبحت الشتائم التي يكيلها لي والاتهامات أمامهم أكثر. اعتبَرَ أن زواجي إهانة له بعد أن رفضت عودتي إلى

عصمته. صمتي وعدم دفاعي أو ردي على ما يقول أمام الصغار جعلهم يتلمسون الكذب والافتراءات في كلامه، جعلتهم المشاكل كباراً قبل أوانهم، لذلك كان سؤالي لكل من يراهم أو يتحدث معهم: هل هم طبيعيون؟ هل هناك عقدة ما مسيطرة على حياتهم نتيجة مشاكلي المستمرة مع والدهم والتي يختلقها ويؤجج نارها هو ذاته حفاظاً على كرامته التي أهنتها برفضه؟

صديقاتي يجبن إن صغاري رائعون وطبيعيون. دائما ما اسأل هل ما فعلته كان صحيحاً أم أن هناك ما كان يجب عليَّ فعله من أجلهم؟ لا اعرف، حقا لا اعرف! لكني دائمة التفكير في أمي التي احترم قرارها أبي وابتعد عنها وتركها تعيش بسلام، فلماذا لم يفعل ذلك طليقي ويتركني بسلام أو على الأقل نعيش بسلام من اجل الصغار...

الشيء الذي كان يأكل أمي وشعرت به قبل الآخرين كان سرطاناً استقر في رئتها لسنوات عانت منه فجأة قبل أن يقضي عليها بعد وفاة والدي بأشهر قليلة وبذات مرضها.

أما أنا فلا شيء يأكلني يا أمي، طردت من جسدي كل ما حاول ذلك الرجل أن يفعله بي باتهاماته وبشتائمه وبحصاره، انه انتصار من نوع آخر يا أمي، رحمك الله ورحم والدي! الذي علمني أن الخيانة يجب أن تكون بشرف!...

كان الجو غائما، السماء مكتظة بالبكاء!

انهمر المطر في ساعة مبكرة من صباح آب، فغسل

الشوارع والمنازل والأسواق والأزقة المتعرجة

بدأت السيول تجرف كل شيء: القوارير الفارغة،

النفايات الملونة، حفائظ الأطفال، علب الشوكولاته

رديئة الصنع، أوراق القات اليابسة، وأعقاب

السجائر...

كل شيءٍ نالهُ غضب السماء السخي!...

لم أعد أتذكر متى بدأت تمطر!...

لكنه وقتاً طويلا مر وأنا في هذه الشرفة، أرقب

الكائنات والأشياء وهي تغتسل وتنتشي ثم تحتضر

وتذوب...

بشرى المقطري

(ن، هـ)

ما حدث لجود ولم تخبرنا عنه حتى الآن وسبب لأمها ذلك القلق الشديد كان بسبب عقيلة أيضا. ربما هي العقيلة الأكثر غرابة بين كل عقيلاتها. عقيلة تريد أن تكون سيدة مجتمع راقية وتريد أن تكون مثقفة رصينة وتريد أن تكون داعية وواعظة إسلامية، وكلها تبدلات وربما تحولات مرت بها وشهد حدوثها الجميع من حولها. لذلك ربما فقدت مصداقيتها أمام المجتمع الذي فشلت في أن تكون إحدى سيداته الراقيات بشعورها الداخلي. مجتمع لا تحكمه مكانة العائلة واصلها بقدر ما يهمها المال الذي تملكه والقصر الذي تسكنه فقط. وهذه هي كومة من مال بلا معنى.

هي إحدى السيدات الجديدات في المجتمع من اللواتي جئن من بيئة فقيرة، لكن الحظ خدمها ووفر لها ما لم تكن تحلم به.

لم يكن سهلا على ن،هـ أن تعيش في مدينة تعيش فيها أمها ومع ذلك لا تراها بسبب انفصالها عن والدها وزواجها بآخر. والدها أيضا تزوج وتركها مع شقيقيها عند أخته لترعاهم وتنتبه لهم مع أولادها وبناتها. ورغم حنان العمة إلا أنها لم تقف معهن في مواقف عادلة أمام أولادها وما كانوا يسببونه من معاكسات لها ولشقيقتها. تتهمهن فيها بأنها سبب ذلك بتصرفاتها الغير لائقة

لأنهما لم يجدا التربية اللازمة من قبل أمهما التي كانت مشغولة بعشيقها وكثيرا ما كانت تقول لهما المثل القائل " اقلب الجرة على فمها تطلع البنت لأمها". كلفتهما أيضا القيام بأعمال المنزل المضنية بعد عودتهن من المدرسة بينما بناتها ينعمن بالكسل.

عندما تقدم لخطبة ن،هـ ابن الجيران الغني ولم يتقدم لأحد بنات العمة شعرت بنوع من الثقة بالنفس في ذاتها وفي إمكاناتها من السيطرة على أي رجل، بإظهار ضعفها وظلم الزمن لها بما حدث لها من تشتت في عائلتها، رغم أنها لا تملك من مقومات الجمال شيئاً. جسدها مكتنز، وقصرها شكَّله بطريقة مثيرة للضحك، إردافها للخلف ونهداها للأمام دون فاصل يذكر بينهما عدا كرش متدلٍّ يثير الاشمئزاز. استغربت العمة من إصرار جارهم الغني على طلب الزواج منها ولم تجد مفراً من تنفيذ طلبه.

بعد زواجها وعيشها في القصر الفخم أصبح الكل يطلب ودها من أهلٍ ومعارفٍ، كونت لها صديقات أو بالأصح فصلت لها صديقات كما تريد، تمارس عليهن شعورها بالنقص من حياتها السابقة، تغمرهن بالهدايا مما يجعلهن أكثر تملقاً لها ومجاملة في كل المقايل التي تحضرها. الخارجة منهن عن طاعتها معناها أن تجعل حياتها سعيراً من المشاكل والبحث عن نشر كلام وتشويه سمعتها بالكذب والافتراء.

أصبح مالها هو وسيلتها للوصول إلى علية القوم في المجتمع وتجارة زوجها منفذا لتقديم الخدمات لهم. صفقات مشبوهة يستغل فيها السياسي مكانته ويأخذ عمولته التي تقدر بالملايين.من زوجها التاجر الذائع الصيت ذي العائلة المعروفة بتاريخها في التجارة من زمن طويل.

يشكلان ثنائياً متكاملاً هي وزوجها في نقل الأخبار من المقايل التي يحضرونها لكل من يريد من هؤلاء، أصحاب المناصب السياسية المهمة المكلفة بحماية البلاد والعباد.

جاسوسية مجتمعية مختلفة أكثر دناءة من الطرق السياسية المتعارف عليها لأنها تجعل الكلمة تصل كلمات وتحور وفي مصالحها ليس إلا... ربما لذلك سببت لجود تلك المشكلة التي أقلقت أمها وكانت سببا لجود في التفكير بكتابة رواية عن "عقيلات" وفضلت أن لا تذكر ما فعلته بها ن، هـ لأنها لا تستحق حتى الاهتمام وإعطائها أكثر من حجمها التافه كما تقول جود.

*****

لم أعرف أنه شاسع هكذا، ركبته في خيالي مثل أفلام
الكارتون، لونته بقطعه طباشير زرقاء وتركت السحب
نقية بلون الصفحة، وعندما لم أجد لوناً أصفر ألون
الشمس به، قصصت خصلة من جديلتي، ألصقتها
في قلب الصفحة، وتركتها تنزل لتغتسل في البحر.
حين حلمت بالبحر، لم أفكر باليابسة كثيراً،
لم أرسم مشاجب للمعاطف المبللة كيما تجف.
حين حلمت بالبحر، حررت جدائلي ومضيت
باتجاه الغرق.

مها ناجي صلاح

(ن،...)

...، ...، ...، ...، ...، ... ...

...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...،...!...

(ن،...)

... ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...،

...، ...، ...، ...، ...، ...، ...! ...!...

(ن،...)

...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...،

...، ...، ...، ...، ...، ...، ...!...

(ن،...)

...، ...، ...، ...، ...، ...، ...

...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...

...!...

(ن،...)

...، ...، ...، ...، ...، ...، ...

...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...، ...

...!...

(ن، ...)

... ...!...

أيها الألم لِمَ تنفلت من كل البشر وتتشبث بي؟ آن الأوان لأقهرك بحروفي، سأنجو منك!...

الراوية

(٦)

كنتُ منهمكة بشكل واضح في الكتابة أنستني حتى تناول الطعام فيما عدا فناجين من القهوة والشاي، لا استغني عنها. لم أتوقع زيارة أمي قبل المغرب، أخبرتها أن كل امرأة في العالم هي حالة خاصة لنفسها.

لا تشبه امرأة امرأة أخرى، أخبرتها أن ما تبقي لي في الكتابة عن ن،... التي اكتشفت أنها تعمل عاهرة في احد الفنادق الكبيرة ومحمية من مسئولين في السلطة وان هناك ن،... الأنثى نعم الأنثى لأنها لا تجيد غير هذه المهنة. أنثى تتلوى وتتغنج أمام وتحت أي رجل. أما ن، ... يا أمي فلن تصدقي ما...!...

لم الحظ أن وجه أمي كان على غير عادته، سألتها إن كانت تشعر بالتعب أو تشعر بوعكة صحية لكنها أجابت بأنها بخير وترغب في دعوتي لتناول القهوة خارج البيت. ذهبتْ منذ أيام برفقة والدي لمطعم جديد تم افتتاحه في شارع حدة مطعم يحترم آدمية المرأة كما تقول بعدم وجود القواطع التي تعزل

شارع حدة: ثالث شارع يشق بعد قيام الثورة وسبقه شارع عبد المغني وشارع الزبيري. يتميز بكثرة المطاعم فيه وبالمنازل الفاخرة لكبار المسئولين والتجار ورجال الأعمال. لا مكان فيه لفقير أو مسكين.

النساء عن الرجال كبعض المطاعم التي بدأت تنتشر في أنحاء العاصمة صنعاء. وكأن المرأة عورة ويجب سترها وهي مستورة في ثيابها المحتشمة، ومع أنها خرجت لترى الناس والعالم وإلا كانت بقت في المنزل بين ذات الأربعة جدران في منزلها إلا أن تفضيل البعض لهذه الطريقة ساهم في انتشارها.

حاولت الاعتذار لكن بعد أن شعرت بحالتها الغير طبيعية والتي لا تستدعي ذلك الاعتذار قبلت دعوتها رغم انهماكي في الكتابة، آه كم هي ممتعة هذه الكتابة...

خرجنا من المنزل بدا وضعنا غريبا بعض الشيء: أم ترتدي حجابا ملونا يغطي شعرها وبالطو ملون أيضا بينما أنا ارتدي البالطو الأسود واضع النقاب على وجهي!!! هكذا هو حالي بعد زواجي كما أمرني زوجي ورضخ لطلبه أبي رغم معارضته الشديدة للنقاب، والدليل على ذلك أمي، وألوانها الفرحة المشعة بالحياة.

كم هو محير هذا الأب في تصرفاته، لم يتدخل في حياتي بعد أن سلمني لزوجي اقصد طليقي، لم يتدخل مطلقا وكل ما كان يفعله هو إقناعي بالعودة لمنزل الزوجية كلما أتيته "حانقة" من قسوة ذلك الرجل عليَّ وعلى بناته، دون أن يخوض في خلافاتنا

الحانقة: هي المرأة التي تغادر منزل الزوجية إثر خلافات إلى منزل أسرها أو من سيحل لها مشكلتها

التي أدت إلى ما أنا عليه الآن، وأن المرأة ليس لديها بعد الزواج غير بيت زوجها وأن تحملها له في كل الظروف واجب مهما كانت شدة هذه الظروف أو قسوتها. هكذا ربانا، أنا وشقيقاتي وهكذا يريدنا أن نربي بناتنا، ورغم ما كنا نعانيه بلا استثناء أنا وبناتي إلا أن هذا كان سلوكه أيضا دون استثناء معي ومع شقيقاتي. المهم أن لا تتأثر مصالحه مع أزواج بناته سواء تجاريا أو سياسيا أو اجتماعيا. كان ذكيا واستطاع استغلال هذه الزيجات لمصلحته على حساب سعادتهن واستقرارهن.

من يرى أمي وهي تسوق السيارة وكاشفة عن وجهها وتتوجه لشرب القهوة في مطعم لا يصدق أبدا أنني ابنتها! سألتها من اخبرها عن افتتاح هذا المطعم قالت والدك، حضرنا أول يوم افتتاح له منذ ثلاثة أيام. الم اقل لكم أن أبي هذا في غاية الغرابة.

طلبت أمي لها قهوة تركية بينما طلبت عصير جوافة. حاولت بيني وبين نفسي توقع ما تود أمي قوله لي دون فائدة. مستحيل أن يكون أبي قد وجد لي عريساً جديداً! ومستحيل أيضا أن يكون طليقي قد منع صغاري من زيارتي آخر الأسبوع! والاحتمال الأكثر هو طلب قبولي لزوج محلل يتم زواجي به بشكل صوري على أن يطلقني بعدها لأعود لحظيرة طليقي وتعود المياه لمجاريها بين أبي وبينه في الأعمال التي توقفت بسبب طلاقي.

باءت توقعاتي بالفشل وكان ما قالته لي أمي هو آخر شيء توقعته، هو آخر شيء يمكن أن يبرهن على تعاستي وعلى حظي العاثر، كان طلبها بأن أتوقف عن كتابة الرواية!

هل تصدقون؟

هل ما اسمعه معقول، هل هذه التي أمامي هي أمي التي كانت تهنئني صباح اليوم وتشد على يدي وتحفزني للاستمرار، هل هذه هي أمي التي وعدت أن تكون إلى جواري بعد كل ما تعرضت له من ظلمٍ وقهر!؟ هل هذه هي أمي التي قررت أن تكفر عن صمتها بعدم تدخلها في مستقبل بناتها أمام زوجها لأنه أدرى بمصلحة بناته أكثر منها؟ هل ما اسمعه حقيقة أم خيال؟ هل هذا جزء من روايتي التي لم تغادر عقلي بعد وابحث لها عن مصادر تشويق وإثارة لحماس القارئ...

أمسكت بيدي وهي تطلب مني أن اهدأ لتحكي لي الحكاية وان نتناقش في الموضوع بعقل لأن هذا سبب مجيئنا إلى المطعم في هذا الجو الهادئ برفقة هذه الموسيقى التي تدغدغ الوجدان وتبعث استرخاء للروح والجسد معا. سكت لأسمعها، لم يكن لي خيارٌ آخر افعله غير ذلك لم يكن لي شيء يمكنني أن اعبر عن اندهاشي وذهولي وخوفي غير ذلك، لتقول:

دخل والدك بعد أن تناول غداءه مع شقيقيك إلى غرفتي،

أثار انتباهه ما تركتِه لي من مسودة روايتك، أخذها وراح يتصفحها دون أن يعلم أنها لك وعندما سألني عنها أخبرته عن مشروعك الجديد في عزمك القيام بكتابة رواية... صمت للحظات واخذ يقرأ مسودتك حتى انتهى منها وإذا به يصيح بعصبية شديدة وبصوت عالٍ ليقول: انه رافض لهذا المشروع ولن يسمح لأسم ابنته أن يتصدر غلاف رواية فيها هذه الحكايات الفاضحة...

ثم اخبرني إذا كنت تريدين البدء في مشروع كتابة فليكن مساعدته في كتابة مذكراته بأسلوبك المميز كما لاحظ أثناء قراءته للرواية وأنه بدأ بالفعل في كتابتها وسينشرها قريبا أسوة بزملائه قادة الثورة.

ماذا تتوقعون أن أفعل! أن أثور في وجهها كالبركان الهائج لأذكرها بما وعدت به عن وقوفها إلى جواري. أن اردد على مسامعها واجبها تجاهي في هذه الفترة بالذات!؟ أن اذكرها بأن هذا الذي يريد كتابة مذكراته ودوره في قيام الثورة العظيمة الخالدة ما هو إلا انتهازي كبير لم يفعل شيئا للثورة لا أثناء قيامها بفراره من قصر الإمام إلى منزل والدها في الروضة حتى أعلن رسميا عن قيام الثورة من إذاعة صنعاء ١٩٦٢. ومن ثم دوره المشين في سرقة كنوز القصر الإمامي وإخبار الثوار عن ما

تبقى منها لدعم الثورة، وتكرار فعلته هذه أثناء حصار السبعين يوما لصنعاء باختفائه في ذات المنزل حتى انتهت الحرب واستشهد فيها الكثير من الأبطال الحقيقيين دفاعا عنها وعن مبادئها، وخروجه من جحره وانضمامه لصفوف الثوار من جديد وإقناع كل رئيس جبهة أنه كان على الجبهة الأخرى من القتال. حتى في أحداث أغسطس التي تلت انتصار الجمهوريين في حصار السبعين في فبراير ١٩٦٨ كان كالحرباء في مهادنته لجميع الأطراف من الجمهوريين المختلفين في وجهات النظر لترسيخ الحكم، ليعرف من الذي سيمسك بزمام الأمور ليكون معه.

هل هذا هو الثوري الذي يريد أن يقول سيرته في مذكراته، ومن سيصحح له، من سيقول بان هذا لم يحدث! وهذا لم يحدث! وهذا لم يحدث! وما أنت غير انتهازي كبير خططت للاستفادة من الثورة من اجل مصالحك فقط ونجحت بذكاء في ذلك حتى الآن. هل هذا الذي تريدينني أن أساعده يا أمي. هل غطى حبك على كل هذه الجرائم له؟

السبعين يوما: مدة حصار صنعاء (نوفمبر ١٩٦٧ - فبراير ١٩٦٨) من قبل الملكيين الموالين للحكم الإمامي للقضاء على الثورة والتي انتهت بانتصار الثوار وتثبيت الحكم الجمهوري في اليمن.

بعينيك ترينه يا أمي إنساناً خالياً من العيوب ويستحق أن ينشر مذكراته حتى لو كانت افتراءات على التاريخ.

هل تظنون أنني فعلت كل ذلك، وحدثتها بكل ما كان يعتمل في أعماقي. أبدا لم افعل شيئا، انتهيت من شرب عصير الجوافة وأنا احلق في ديكور المطعم الجميل، ومن ثم طلبت من أمي أن تعود بنا للمنزل. حاولتْ في الطريق أن تقنعني بوجهة نظرها في أن نهاود أبي في البداية حتى ينتهي مما يريد القيام به ومن ثم ننشر ما نشاء. لم أرد عليها، لم انبس ببت شفة!...

هل تتخيلون ما كان يعتمل في داخلي حينها؟ تحول العالم بأسره أضيق من ثقب إبرة لا أرى غير السواد من خلالها، الكون بأسره غريب عني أنا لست منه، إنه عالم فسيح يضيق بي، يضيق بي، يضيق بي كن معي يا رب، كن معي!...

*****

عدنا للمنزل لنتفاجأ بشابين في مقتبل العمر، جسدان مفتولان قويان يشعان حيوية ونشاطاً. ملامحهما هجينة، خليطة من أصل عربي وآخر غير عربي بالتأكيد! بشرتهما مائلة للبياض. عينا أحدهما عسليتان فاتحتان وعينا الأخر سوداوان وتشبه استدارتهما إلى حد كبير عيني أبي!...

رآنا أبي ولم يسأل أين كنا! أمسك بيد أمي وقادها باتجاه

الشابين وعلامات الفرحة والسعادة طافحة من وجهه، يكـاد يطير من شدة النشوة التي أثارت فضولي وفضولها لمعرفة سببها أولا، ومن هؤلاء ثانيا؟ وقف وهو ما يزال ممسكا بيدها أمامهما وهو يقول:

أعرفك يا زوجتي الغالية على "يوسـف وآدم" ولـديَّ! وصلا للتو من إيطاليا! لم أتخيل أنني سأراهما مجددا بعـد أن اختفت والدتهما معهما قبل خمسة وعشرين عاماً. كان يوسـف في السابعة وأدم في الخامسة حينها.

انظمي إلينـا أنـت وروضـة، للتـو شرع يوسـف في سرد تفاصيل اختفائهم مع والدتهم وماذا حدث لها، هيـا اجلـسا! اجلسا!...

كان جميع الحاضرين في دهشة لم تخفها ملامحهـم، شـقيقيَّ عبدالله ومحمد، وزوجتيهما وصـغارهم الـذين غادرونـا بعـد دقائق لأنهم لا يفهمون ماذا يجـري! زوجـة أبي الثانيـة "أمـة الكافي" أو كما يـدعوها أبي "كافيـة" أيـضا كانـت حـاضرة ومنزوية في أحد الأركان تتفحص الجميـع وعلامـات الغـيظ بادية على وجهها! كيف لا وقد كانت هذه هي ضرتها وشعرت بما شعرت به أمي عندما تزوجها أبي.

وأخيراً كوتها النار التي كوت بها أمي عندما وافقت على

الزواج برجل متزوج، ورأت أبناء ضرتها أمامها ورأت زوجها منصتاً بكل حواسه لمعرفة ما حدث لها منذ هربت!

بدأ الشابان في سرد حكايتهما منذ غادرا مع أمهـما هروبـاً من اليمن، "السجن الكبير" كما قالت عنه حينئذ إلى ايطاليـا دون أن يعلم أبي بذلك إلى أن توفيت أمهـما "كـاترين" قبـل شهر فقط...

بدأ حكايتهما من آخرها، من رغبة أمهما التي كانـت ملحـة في طلبها طيلة مرضها وهو: إذا توفيت عليهما أن يـزورا بلادهمـا "اليمن" وينعما برؤية والدهما وأشقائهما جميعا لأنها لم تنقطع يوما عن معرفة أخباره وأخبار زوجاته وأولاده وبناته، منذ رحلت عن طريق صديقتها التي كانت زوجة احد اليمنيـين مـع فـارق أنها الفت اليمن وانسجمت في البقاء فيها بعكسها فلم تكن تتخيل أن صغارها سيتعلمون في الـيمن ذات التعلـيم الـذي سـيجدونه في أوربا أو سيستمتعون بالحيـاة في الـيمن كـما سيـستمتعون بهـا في أوربا حيث الحدائق والملاهـي ودور الـسينما والمـسارح، والـيمن مازالت في بدايات نهضتها. فكـرت في ذلـك بعـد أن رفـض أبي طلبها، ولم يسمح لها كحل وسط أن تستقر في ايطاليا فترة الدراسة وتعود بها في الإجازات لينعما بقرب عائلتها. رفض حتى فكـرة طرح الموضوع ولا تعرف إن كان رفـضه لمقترحهـا هـذا بـسبب

حبه لها أم بسبب فرحته بولديه التي لم تنجبهما أمي ولا زوجته الثانية "كافية"، مما اضطرها إلى التخطيط للفرار بهما دون معرفته من اجل ضمان المستوى الذي تتمناه لهما تعليمياً وصحياً ونفسياً.

تعبت "كاترين" كثيرا وهي تكد وتشقى لتوفير احتياجاتهما حتى أصبحا رجلين معتمدين على نفسيهما بوظائف مرموقة ولم يمنعهما طموحهما من تكوين أعمال خاصة بهما في إنشاء مكتب سياحي ينظم رحلات في كافة أنحاء أوربا وأمريكا والدول العربية وشرق أسيا. تطور ليصبح شركة مرموقة في مجال السياحة.

توفيت أمهما قبل شهر بعد معاناتها من سرطان الرئة الذي قضى عليها بعد أن كان إقناعها الإقلاع عن التدخين أو التخفيف منه صعبا أمام الضغوط التي كانت تواجهها في عملها وفي تربيتها لهما. وهاهما الآن ينفذان وصيتها في العودة لبلادهما التي لم تتوقف يوما عن الحديث عنها بكل حب، وتبكي أحيانا من شدة شوقها لرؤية أبي كما كانت تقول لهما وتحدثهما دائما عنه (لم أتوقف يوما عن حبه!...) والدليل لهجتهما اليمنية التي يتقنانها إلى حدٍ ما لأنها كانت دائمة التحدث معهما بها، وإغناء ثقافتهما عن العادات والتقاليد اليمنية.

كان أبي واجما، ربما كان يفكر في ماذا لو انه وافق على الحل الذي اقترحته "كاترين" في المكوث فترة الدراسة في ايطاليا والعودة بالصغيرين في الإجازات؟ ربما كان سيوفر على نفسه الكثير من متاعب الفراق والحيرة عن اختفاءها وعدم معرفته أي معلومات عن الصغيرين رغم كل نفوذه. وأن اختلاف البيئات الثقافية له ولها كان لابد لها من حل وسط يرضيها ويرضيه، لكن أنانية الرجل وتحكمه لم تمكنه مما يشاء!...

اعتقد أن كاترين امرأة يمنية سترضى بحبه لها وعدم تقصيره في ذلك على حساب مصلحة ولديها ومستقبلهما!...

يا الهي إنها الصورة الأخرى المناقضة تماما لأمي!...

****

أحدث الشابان ثورة بكل ما تعنيه هذه الكلمة في العائلة: بين شقيقاتي وأزواجهن، بين كل أقاربنا ومعارفنا. كانت حكاية أبي الذي تزوج ايطالية أثناء تواجده كسفير لليمن في إيطاليا غير معروفة لكل هؤلاء ولم يهتم أبي أن يخفي شيئا منها بعد عودة ولديه، حتى لو عرفت اليمن بأسرها حكايته. ربما تكفيرا عن شعوره بالذنب تجاه كاترين وربما لشدة فخره بهما وبما هما عليه الآن من علم وأدب والتزام ومسئولية، يكادان يكونا النقيض لأبنيه الذين يستقران في شقتيهما وبين حوائط

غرف نومهما وفي أحضان زوجتيهما أكثر من أي شيء آخر في الدنيا مادام لديهم ما يكفيهم من المال ليعيشا في تلك الرفاهية، بينما هؤلاء يحترمان العمل كقيمة تزيد من احترامهما لنفسيهما وتجعل لحياتهما هدفاً ومعنى.

احدث أيضا قدوم يوسف وآدم ثورة في كل شركات أبي. حدَّثا نظام كل الشركات الخاصة بالاستيراد والتصدير وبالوكالات التجارية وبالمصانع. ادخلا الكمبيوتر في كلا ما يخص هذه الأعمال كنظام مستقل يجمعها كلها معا. المدهش أنهما جعلا لأبي نظامً خاصاً في كمبيوتره المحمول يجعله يتابع كل أعماله ويستقبل تقارير شركاته دون الحاجة لاستجداء ذلك من محمد وعبدالله كما كان يفعل. ينامان معظم ساعات اليوم وما تبقى منه لتناول القات والجلوس مع الأصحاب، وما خفي كان أعظم وهو ما لا يعلمه أبي عن وجود شقة خاصة بهما وأصدقائهما يتم فيها كل ما يمكن أن يتخيله المتخيل من مشروبات روحية ونساء و...!...

لذلك شعرا بالغيرة من يوسف وآدم لأنهما سيأخذان من أبي ما يريدان من المال وربما سيملكهما بعض الشركات أو يحول لهما بعض الودائع الموجودة باسمهما في البنوك أو... أو... أو...!...

لكنهما فاجأ الجميع وهما يستأذنا أبي في العودة لايطاليا بعد قضاء أكثر من شهرين في اليمن حتى لا تتأثر شركتهما السياحية بغيابهما، وأنهما سيجدان وسائل كثيرة للمجيء لليمن ورؤيتها مجددا. ليس هذا فحسب بل إنهما رفضا ما عرضه عليهما أبي بالفعل من أموال ومن طرق مختلفة لأخذ نصيبهما في كل ما يملك لأنهما في غير حاجة لها فأساس ما تركته لهما أمهما من مال قد تضاعف بفضل جهدهما وهو سبب سعادتهما ومستقبلهما كما أرادت أمهما لأبيهما أن يفتخر بهما وان يشعر كما لو انه رباهما معها والى جوارها.

طلبا من أبي شيئاً واحد فقط فيما إذا سنحت الفرصة وفي اقرب وقت زيارتنا جميعا لهما في ايطاليا وعلى الأخص أنا لأنني أكثر من يحتاج للسفر بسبب ظروفي السيئة وما مررت به من معاناة وأن كل هذا سيتبدل برؤية عالم آخر.

وافق أبي بالطبع أمامهما وأنا اعرف انه لن يفعل ذلك...

بكى وهو يحتضنهما ويشكرهما على كال ما فعلاه من اجله. المرة الأولى التي أرى دموعه ولا اعرف مدى صدقها!

لم ينس أن يخبرهما انه فخور بهما!...

جملة لم يقلها لأحد من أبنائه وبناته حتى اللحظة!...

*****

الفترة التي قضاها يوسف وآدم كانت جيدة بل ممتازة بالنسبة لي فقد انشغل بها أبي وبمتابعة انجاز خطتهما للنهوض بمستوى شركاته وكافة أعماله، ونسى أمر مذكراته ونسى أمر روايتي أيضاً. تقدمت بشكل مرضٍ فيها وكالعادة كنتُ أرسِل لجود و لسارة ما انتهي منه أولا بأول لسماع رأيهما، أما أمي فقد اكتفت بقراءة ما اكتبه على جهاز كمبيوتري المحمول. لم تكن تبدى رأيها إلا نادرا ولا اعرف إن كان ما افعله أو اكتبه يرضيها أو تجد فيه ما تتمناه أم أنها لا تبارك كل ما افعل، وتتوجس من معرفة أبي بعدم خضوعي لأوامره؟

لم اهتم لذلك ليس بغرض تجاهل كلامها وتجاهل أوامر أبي لكن كان ذلك بسبب المزيج في أعماقي من مشاعر عدة تكاد تنتشلني مما أنا فيه. سعدت بهذا الشعور الطاغي على ما عداه كضوء يسبق خطواتي منذ بدأت كتابة الرواية، يوازيه شعور بتلك القوة التي استقيها من عظمة ما أفعله لنفسي ولعقليلات جود، قوة تزداد يوما بعد يوم! تزداد بوتيرة أعلى كلما تقدمت في كتابة الرواية.

اعترف لكم أن ما فعلته كاترين مع شقيقيَّ جعلني اشعر كم هي المرأة جبارة إذا ما أصرت وآمنت على انجاز ما تريد!...

ما أنجزته من الرواية في تلك الفترة أصابني بالحزن الشديد لأن عقيلات جود تزداد أوضاعهن سواءاً ويقبلن هن ذاتهن بما لا يقبله بشرٌ ولا جان، لماذا؟ لن أقول، لأني لا اعرف!!! لكن ما اعرفه هو أسباب كل عقيلة على قبول الظلم والقهر!... كيف لا اعرف وقد كنت أولهن! وقدوتهن في الخضوع للهيانة بأقذع الشتائم والضرب دون سبب أو جريمة أو تقصير!...

هل كان طليقي ينفس عن مروره بأزمات في عمله أو خسائر في أرباحه أو مشاكل في عائلته؟ هل كان يشعر بالراحة والرضي وهو يمارس عليَّ شتى أنواع الإذلال وأنا غير قادرة على الاعتراض أو الرفض حتى لا يشعر صغاري بما أعاني فيحدث لهم تأثير سلبي على سلوكهم في المستقبل؟

لم اخطأ في تحمل كل ذلك على حساب نفسي وصحتي لأن صغاري يستحقون أكثر من ذلك. ها هم اثبتوا أنهم أصحاء من الداخل، وأنهم أيضا مدركون وممتنون لما كنت افعله من اجلهم و لن يخذلوني أبدا، هذا كان ملخص ايميل سارة الأخير وهي تحتضن أخاها الصغير وشقيقتها في احدث صورة أرسلتها لي.

احتججتُ لزيارة جود ولو لساعات لمناقشة أشياء أردت

إضافتها على الرواية، إضافة تخييلي الذاتي الذي أجده ضروريا لنجاحها ولاستكمال بنيتها، لكن زيارتها على ما يبدو صعبة لحرص أبي على تفقد أحوالي طيلة اليوم منذ عرف بموضوع كتابة الرواية. يحرص على تناولنا الغداء جميعا منذ رحيل يوسف وآدم، وأحسست لمرات عديدة أنه يريد الحديث معي، ولا أدري فيما! هل في روايتي أم في مذكراته؟

يؤجل ذلك ولا اعرف لماذا هل بسبب تفكيره الذي تغير وفق التطورات الجديدة التي أحدثها يوسف وآدم، أم بسبب إصراره على منعي من كتابتها ونشرها... لا يهم ليتحدث متى ما أراد المهم أنني لم ولن أتوقف عما عزمت عليه.

طلبت مني أمي مرافقتها وأبي لعدن لرؤية قطعة أرض تم منحها لمعظم قادة الثورة في مدينة عدن، وإنهاء إجراءات الملكية، لأنها تظل وحيدة طيلة انشغال أبي بأعمال أخرى. هذه الأعمال هي تجارة الأراضي التي ينوي استمرارها في عدن بعد صنعاء. ما يفعله أبي الثوري العظيم والمحنك هو شراء الأراضي من أصحابها بأسعار زهيدة بعد أن يعرف أنها ستنزل في مخطط الحكومة. غالبا ما يتم رشوة بعض مهندسي إدارات التخطيط لاستيفاء كافة البيانات عن هذه الأماكن، ومن ثم بيعها بأسعار خيالية بعد أن يتم تخططها وبذلك يكسب قيمتها

أضعاف مضاعفة، وهو باحتكاره هذا يمنع الفرصة على الطبقة الفقيرة من الحصول على نفس الفرصة، ليس هو فقط بل هناك الكثير من محدثي النعم الذين يحتفظون بنصف صنعاء، حتى جبالها أحاطوها بالأسوار الدالة على ملكيتهم لها، دون تفكير في محتاجيها وفقراءها، تتوسع المدينة في كل اتجاهاتها ليس لتلبي حاجات الجميع من الإيواء ولكن لفئة لا تجد من يردعها بقوانين بناء تساوي بين أبناء الشعب وتمنحهم حقوقهم التي يستحقونها... والآن ها هو يعمل في عدن ما يفعله في صنعاء، لم تسور الجبال في عدن أو تقتطع أراضيها أو يتم استفزاز مشاعر الفقراء بذلك الترف من قِبل هؤلاء الإقطاعيين إلا بهذه الأفكار التجارية التي يرفضها المنطق والعقل والشرع.

رفضت الذهاب معهما رغم حاجتي الماسة للاسترخاء أمام البحر والتمتع به وفضلت البقاء مع جود للانتهاء من الرواية. جود التي فسرت لي سبب اختفائها وانشغالها.عن عدم الرد على ايميلاتي ومتابعة أخباري قالت أنها قبل عدة أيام أخبرتها صفية أن هناك زائراً في الباب و يريد محادثتها وعندما قالت لها انه رجل زادت دهشتها، انتفضت من سريرها وارتدت البالطو وخرجت لمعرفة من هو هذا الرجل الذي يريدها. من شدة ذهولها لم تنبس ببت شفة حتى بادر هو بالسلام عليها وطلب الدخول لأنه يريد أن يحدثها في

موضوع مهم. كان ابن عمها الذي تقدم لخطبتها من أكثر من خمسة عشر عاما، وماذا يريد جاء يجدد طلبه في الزواج منها.

(جئت إليك مباشرة لأنك أصبحت قادرة على اتخاذ قرارك من ذاتك وإذا وافقت على طلبي سأتخذ إجراءاتي مع عائلتك، لم استطع أن امنع نفسي من التفكير فيك طيلة هذه المدة رغم بعدنا عن بعضنا. هل توافقين يا جود على طلبي؟ هل تقبلين أن تكوني زوجة ثانية لأني لا استطيع الانفصال عن زوجتي وأولادي بعد مرضها الشديد في السنوات الأخيرة، لكنك ستكونين في آمان تام معي، ثقي من ذلك؟) هكذا بادرها بقوله. لم تعرف بما تجيب، ربما لم تتخيل أن هذا ممكن الحدوث إلا في الأفلام العربية!

أنا محتارة يا روضة ولا اعرف بما أرد عليه وكيف أتصرف وهل بمقدوري فعلا أن أخوض هذه التجربة. تعلمين انه حب عمري كما أخبرتك من قبل وأني لم أتوقف يوما عن التفكير فيه، متوحدة معه في أيامي وأحلامي، كان وحيداً وواحداً في قلبي وعقلي طيلة هذا العمر الطويل، يرافقني في أحلامي كحاضرٍ وواقع أعيشه بمنتهى اللذة. ربما جاء عَرَّضهُ في الوقت المناسب بالنسبة لي، لكن زوجة ثانية؟ هذا ما يربكني ويحيرني، هل تعتقدين أنني سأجني على زوجته الأولى حتى لو كانت تعاني من مرض كما قال بموافقتي، أم احترم قراره وهو اعلم كيف سيُسيِّر

حياته.خاصة وقد انتظر كل هذه المدة من الحياة معها ومع أولاده. آه يا روضة ساعديني فأنا مربكة، مربكة جدا!

بالتأكيد يا جود وافقي واستمتعي بالحياة في كنف من أحببته طيلة حياتك. بإمكانك أن تغيري مسار حياتك باتجاه أكثر دفئاً وحناناً. الحياة مع رجل يحبك ويحترمك ويحرص على راحتك هي المتعة التي تبحث عنها كل امرأة. الحياة مع رجل يشعر بقيمة أن يكون إلى جواره امرأة تكمله ويسيران معا لتحقيق الهدوء والأمان الذي ينشدانه في الحياة. كم تفتقد المرأة في مجتمعنا لرجل له هذه الصفات. أتذكر إحدى صديقاتي وهي تشكو بمرارة من زوجها الذي لا يقول لها كلاماً جميلاً! لا يتغزل بها وبجمالها! رغم اهتمامها الشديد بمظهرها وبأنوثتها من أجله. تسأل نفسها بصمت هل ما تقوله صديقاتها صحيح من غزل أزواجهن فيهن وفي جمالهن وحتى في طريقة نومهن على السرير؟ هل حقا يتبادلون الكلام الناعم وهم في لحظاتهم الحميمية؟ هل حقا غزلهم دائم لا ينتهي أم أنهن يبالغن؟ لا تعرف لكن ما تعرفه أن ما تراه في الأفلام من تبادل كلام وغزل يجعلها تشعر برعشة تسري في كل جسدها لم تصلها مع زوجها في طيلة حياتها معه. ربما لذلك أصبح لها عالمها الخاص الذي تمارس فيه طقوس لذتها وفي كل مرة تنتهي من فعلها بلذة

هائلة، تذهب مباشرة للمرآة، ترى وجهها، ترى ماذا فعلت فيها المتعة وكيف حولت اللذة وجهها إلى إشراقه لا تعهدها فيه إلا في هذه اللحظات التي لا تشبه أي لحظات. لذة خالصة للذة ذاتها للمتعة التي تحلق بجسدك في فضاء واااسع لا تجد فيه غيرك. تتمنى لو أن هناك من يشاركها تلك اللذة من يصل معها لذات الصرخة من انتفاضة الحب التي يتحدث عنها الرجال ويتباهون بها. رغم وجودها إلى جوار رجل. لكن هكذا هم الرجال كما تقول: لا يعتبرون المرأة شريكاً مساوياً لهم في الرغبة ويفضلون العكس تماما وهذا ما تفعله.

لذلك وافقي يا جود لأن الحب أروع شيء في الوجود وأنت بحاجته بعد ما عانيته. وافقي يا صديقتي وسأتمنى لك كل الخير.

لم نضيع الوقت بعد ذلك قرأت معي ما أنجزت وناقشتها في إضافاتي واقترحت ما تراه مناسبا لما فعلته "هي" في مفكرتها ولِما أنجزته "أنا" في روايتي الموعودة. عدت بحماس منقطع النظير للانتهاء من الرواية .وعدتني جود أن تبحث عن ناشر لكن من خارج اليمن بسبب ما قاله أبي. لا تريد لي أي نوع من المشاكل معه، وضعي أصبح أكثر حساسية الآن. امرأة مطلقة، يعني مصيبة كبيرة.

كلما تقدمت في كتابة الرواية كلما شعرت بمتعة لا حدود لها وبرغبة في قضاء بقية حياتي أمارس هذا الفعل اللذيذ: اكتب، اكتب فقط، أشعر بعبارة "ارنست همنجواي" الرائعة: (الكتابة هي الرذيلة الكبرى واللذة القصوى، وحده الموت يستطيع وضع نهاية لها...) تدفق فرضته حالتي ربما، وحالات العقيلات الموجعة للروح والجسد. تدفق ربما ناتج عن كثرة قراءاتي السابقة في كل شيء، تدفق فرضه التحدي الذي لن يثنيني احد عن فعله والاستمرار فيه حتى لو كان أبي، بسلطته وجبروته.

أعتذر يا أبي، لن اسمع كلامك هذه المرة، لن استمر في قول نعم إلا وأنا أدرك أسباب قولها تماما، نعم: الكلمة التي تعشق سماعها من كل محيطك، ستفقد سماعها من بين شفتي خاضعة وقابلة دون تردد. قوتي الحالية التي اشعر بها في أعماقي أنت السبب فيها بظلمك لي وقرارك التحكم في حياتي ومستقبلي كما تريد. اعتذر لأنه آن الأوان ليكون لحياتي معنى ولوجودي هدف، أنا من يحددهما لا أحد غيري.

وفرت لي جود هدوءً مناسبا للكتابة، أنجزت أجزاء هامة وحيوية في الرواية. كنت بحاجة لشهر وربما شهرين لانجازها بعد عودتي للمنزل. كان الليل رفيقي في الكتابة بعد خلود الجميع للنوم وعدم إزعاجي، قراءة وكتابة ومراجعة

وتصحيح اوووه... حتى انتهيت منها وكلي شعور بالنشوة والانتصار على هزيمتي التي خطط لها وفعلها طليقي وأبي أولا وعلى هزائم الكون ثانيا لأني قررت مواجهتها وهزيمتها مهما كانت!!!

وفورا أرسلت نسخة أخيرة منقحة ومصححة لجود وسارة.

سارة ردت حال انتهائها من قراءتها:

((أمي أنا فخورة بك وبانجازك هل تسمحين بوضع روايتك على موقعي؟)) كانت سارة قد صممت بذاتها موقعا لها على شبكة الانترنت ووضعت فيه كل أبحاثها في علم الاجتماع، وتتمنى يوما أن تجد من يساعدها على نشرها وتطويرها وعلى حضور وتلبية ما يصلها من دعوات لمؤتمرات وندوات علمية.

آه كم تمنيت لو وافق والدها على ذلك العريس الذي تقدم لخطبتها، كان يبدو عليه متفهما وجادا في طلبه والاهم مناسبا لها في الميول والاهتمامات. سأدعو لها بسرعة الخلاص من والدها إلى الأبد. طلبت منها عدم وضعها على الموقع حتى تبت جود في موضوع نشرها بشكل نهائي.

لكن لا اعرف لما تأخرت عليَّ جود بالرد!!!

كلما تذكرت حالتي بعد طلاقي شعرت بقشعريرة تسري في جسدي. لكني حالياً أُذكِّر نفسي عن تعمد وأقارن بين حالتي التي كانت وما وصلت إليه من رضا وتصالح مع ذاتي حتى لا أعود لما كنت عليه. نعمة خروجي من تلك الحالة بدون أضرار يشعرني بقيمة ما فعلته لي جود عندما قدمت لي المفكرة الخضراء لقراءة ما فيها ومن ثم قراري الموافقة على كتابة ما قرأت.

ألذ طُعم لجرك للحياة من جديد!!!.

ها أنا انهي العام الأول من طلاقي وهناك ما يحتاج للترميم في أعماقي بشكل كبير، سأفعل ذلك وبمفردي وبدون مساعدة من أحد. حياتي وسعادتي وسعادة صغاري أسمى من أن يقضي عليها ذلك المتخلف الذي يظن نفسه جبروت زمانه وأنه قادراً على كل شيء. تزوج في هذا العام مرتين وفي المرتين تفر نسائه من حظيرته، تفر بجلدها قبل أن يدمرها، يعتقد بأن كل النساء جواري له مادام معه المال والجاه، لم يعد هذا مقياساً للحياة عند البعض من النساء، ولا تجعل النصيب والرضا بالقضاء والقدر من علامات خضوعها ومسببات رضاها بل على العكس هذا معناه استسلام ولا شيء غيره ومن تزوجهن لم يفعلن ذلك، لم يصبرن أو يتحملن أكثر من طاقتهن لأن حياتهن كانت غالية عليهن. لست بحاجة لأن يعرف

قيمتي الآن؟ ما فعلته أنا من انتشال ذاتي من دمار ما فعله بي هو الذي رفع وسيرفع من قيمتي أمام صغاري وأمام العالم بأسره.

أخرجت كل ما كان سيدمرني في كتابة الرواية، عقيلاتها المختلفات جعلنني أفكر بشكل آخر يحتويهن باتجاه الحياة التي تحوي كل هذا الظلم، ولكل طريقته في قبوله أو رفضه أو التعايش معه. هناك المرأة الخانعة والمستسلمة لكل ما يقوله الرجل الممعن في إذلالها وفي كسرها وفي أهانتها. الرجل الرافض أن تكون أفضل منه في مجال وأجرأ منه في مجال آخر. الرجل الذي يريد أن يبقى على القمة متفاخرا بتفكيره الذي لم يتجاوز عضوه العفن!!!

إلا يستحق الشفقة هكذا رجل!؟

أخيرا ردتْ عليَّ جود، كان ردها مفاجئا، ما تأخر فيه الخير على قول أمي وبالفعل جاء الخير في ردها، ردا لم أتوقعه، وتفكيراً كان غائباً عني، ردت عليها دار نشر لبنانية بل من أشهر واعرق دور النشر التي وافقت على طباعة "عقيلات" ليس هذا فحسب بل وأشادت بمستوى اللغة وبتميز الموضوع. خبر جيد يا جود بل رائع، أزلت من على كاهلي حمل نشرها هنا في اليمن، ومواجهة ومجابهة والدي وشقيقيَّ من نشري للفضائح كما قالوا.

كيف يصبح ما تنضح به حياتك ويحيط بعالمك من مآسي فضيحة؟

عادت أمي من عدن بعد أن تأخرت كثيراً بسبب إصرار أبي على الانتهاء من مشاكل الأراضي كلها وعقود ملكيتها خاصة بعد انتشار المظاهرات الأخيرة في عدن وغضب الناس مما حدث من نهب للأراضي دون وجه حق، وترديد بعضهم لشعارات معادية للوحدة ومطالبة بالتشطير من جديد، مستخدِمة خطاباً رجعياً ومناطقياً ليس له فائدة غير المزيد من الدماء لأبناء الشعب الواحد التي أصبحت الوحدة قدره ومستقبله.

هل يعي أبي بأنه احد المستفيدين من قيام الوحدة بشكل كبير في حصوله على قطعة أرض في موقع مميز باعتباره قيادياً ثورياً عظيماً، وعرفانا بما فعله تم منحه كل هذه المزايا؟ هل يعي بان استفزاز الناس الفقراء بتلك الطريقة سينقلب عليه وعلى أمواله لأن انتقام المظلوم كبيرٌ ولابد منه.

لديهم حق الذين رموا على منزلك ومنازل البعض من الانتهازيين بعض القنابل وتفجيرها وإحراق بعضها، لديهم حق وقد شعروا بنهب بَرَّهُم وبحرهم، ففي حين يكتفي هؤلاء بالجلوس أمام البحر في عالم من الصفاء والنقاء، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء طيلة بقائهم في مدينتهم الجميلة، جئتم انتم وعثتم في أرضها نهبا وحرمتوا أهلها الطيبين حتى

من البقاء في تلك الأماكن التي أكلتها مبانيكم وأسواركم العالية التي تخفي هلعكم وخوفكم وجشعكم!.

عادت أمي وهي مستاءة من الوضع في عدن وفي الضالع وفي يافع، ومستاءة من الشعارات التي تم ترديدها بالعودة للتشطير حفاظا على حقوقهم التي نهبت، ومستاءة من سؤ الفهم الذي تسبب في مقتل مدنيين وعسكريين ليس لهم ذنب غير أنهم خرجوا للتعبير عن مطالبهم وحقوقهم السلمية. عادت مستاءة لكني لم اخبرها بان زوجها احد أسباب ما حدث لهؤلاء الطيبين، الذين لا يطلبون سوى حقوق لوطنهم ولمواطنتهم.أمام التصرفات التي استفزتهم بشكل سافر وأشعرتهم بالمهانة في المدينة التي يعشقونها.

هذه هي أمي ولو فعلت شيئا غير ذلك لما عرفتها. لم تقف إلى جواري كما وعدتني لذلك لم تطلب حتى قراءة ما أنهيته من الرواية! سألتني بنفسها أين وصلت في كتابتها؟ وصعقت عندما أخبرتها أنني أنهيتها وان جود ستنشرها في بيروت وطمأنتها بأنها لن تدخل اليمن حتى يطمئن قلبها على زوجها وعلى مشاعره وعلى مذكراته التي ينوي كتابتها. وأن بإمكاني الآن مساعدته لو أراد، على الأقل مراجعته فيما لو قرر أن يكون

هو احد الذين كانوا في داخل مارد الثورة عند قيام الثورة وأحد الذين فجروا قصر الأمام. ذلك المارد المسكين الذي ظل طويلا يعاني الوحدة في ميدان التحرير حتى تم نقله لا اعرف إلى أين بحجة إقامة نفق مشاة تحت الأرض لتلافي اختناقات المرور في تلك المنطقة.

المارد تم نقله أو إخفاءه، والزحمة أعلى نفق المشاة باتت أكثر من داخله، يعني لم يحل أزمة سير بل كان حلا لأزمة مارد ثورة!...

*****

صدرت الرواية، جاءتني بها جود بشكل مفاجئ، طبعة أنيقة وغلاف جميل معبر كنت قد اخترته ووافقت عليه جود ووافقت عليه دار النشر أيضا دون مناقشة أو استفسار. باب قديم من الخشب المهترئ في مادته وفي ألوانه. مزلاجه واضح في المنتصف ولك أن تتخيل ما يخفيه هذا الباب من ظلم وقهر...

اسمي على غلاف الرواية كان من دون لقب ومع ذلك هجم عليَّ أبي في حجرتي وفي يده نسخة من الرواية وصلته

مارد الثورة: اسم للدبابة التي كان في داخلها عددا من ضباط الثورة وفجروا من خلالها قصر الإمام البدر الذي كان يطلق عليه "دار البشائر" في ميدان التحرير بصنعاء.

طازجة من بيروت وصديقه يسأله: هل روضة حسين هي ابنتك؟ المؤلفة يمنية لذلك فكرت أنها قد تكون ابنتك أو أن الأمر مجرد تشابه أسماء؟

لحسن حظي طبعا أن صديقه هذا كان من المثقفين الحقيقيين، الذين لا يدَّعون التحضر وهم أكثر خلق الله تخلفاً وجهلاً وضيق أفق. مثقف لدرجة مناقشته له في الرواية وأبعادها وأسلوبها وحبكتها، كل هذا ساهم في أن يأتي إليَّ أبي وقد هدأ قليلا، وفكر في أكمال قراءتها في المساء.

غادر حجرتي وأنا ما زلت غير قادرة على التحكم في أعصابي وقدماي لا تكادان تحملانني! توقعت منه أكثر وأكثر كثير مما فعله لكن يبدو أن رد فعل صديقه المثقف كان ممتازا. وربما هو التقدم في السن الذي يجعل رؤيتنا مختلفة في كل ما يحيط بنا. سنرى ردة فعله بعد قراءتها! هجمت عليَّ أمي أيضا بعد مغادرته لتهنئتي بصدور الرواية وان ما حدث لم تتوقعه. توقعتْ ردة فعل أكثر من ذلك بالنسبة لأبي لكن لا تعرف لماذا هدأ وأصبح أكثر تقبلا من قبل لهذه مواضيع!

فاجأتني أمي بعد ذلك باعتراف لم أتوقعه منها كونها هي التي راسلت دار النشر وساهمت بمبلغ لطباعتها لأن اسمي لم يكن معروفاً بعد حتى تنشر لي دار النشر على نفقتها الخاصة

وطلبت من جود أن لا تخبرني لأنها لا تريد أن تكون كاذبة فيما لو سألها أبي أي سؤال خاص بالرواية وبمساعدتها لي!

إلى هذا الحد تعشق أمي هذا الرجل!!!

احتضنتها وشكرتها، وطلبت منها مسامحتي لأني اعتقدت أن حبها لأبي وخوفها من عصيان أوامره لن يثنيه شيء كما كان ولا زال أيضاً. لكنها مثلي تماما تسأل ما الذي جعل ردة فعل أبي هكذا هادئة دون عواصف أو تهديد كعادته، سنعرف ذلك لاحقا بالتأكيد، هو لا يترك موقفا إلا واستفاد منه فما الذي يمكن أن يستفيد منه في هذا؟

كاتبة من منازلهم! من هي روضة حسين؟ هل هي حقا امرأة أم رجل؟ كل هذه الأسئلة دارت في أذهان الصحافة بعد أن ذاع خبر الرواية وأصبحت المدينة بأسرها تتكلم عنها وعن عقيلاتها. التشكيك بوجودي وان من كتب الرواية هو رجل باسم مستعار لان موضوعها نسوي وستجد رواجا سريعا، هو التفسير الذي وافق هوى أبي. المهم أن لا اظهر في الصورة أعني في وسائل الإعلام المختلفة. لم يكن يهمني كل ذلك المهم أنها خرجت للنور وسيأتي اليوم الذي سيعرف الجميع من هي روضة حسين عاجلا أم أجلا يا أبي.

الغريب هو أن ينسب العمل لرجل وكأن المرأة لا يمكنها

أن تقوم بأفعال مساوية لأفعاله وأن الانتصارات هي للرجال فقط!...

تهنئة صغاري كانت أروع ما توقعت، زيارة مفاجئة حال معرفتهم من أمي بصدور الرواية. باقة ورد كبيرة باللون الأبيض والأحمر وقضاء ليلة في أحضاني بعد رجاء والدهم أن يفعلوا ذلك. كانت سارة بحاجة لأن تتحدث معي عن العريس الذي تقدم لها في السابق وأنه قد عاود طلبه من أبيها وأيضا طلب شقيقتها زوجه لشقيقه. توسط في هذا الطلب رجل أعمال يحترمه والدها ويعزه وبَيَّنَ له مدى ثروتهم، لكن الولدين يفضلان الاعتماد على نفسيهما ولن يخسر بموافقته عليهما ومصاهرة عائلتهما. سارة وشقيقتها مترددتان بعد أن فاتحهما والدهما في الموضوع. تكره الارتباط بأولاد الأغنياء هؤلاء.

الغِنَّى في اليمن معناه كسل ونوم وشرب كحول ومخدرات وضياع وقت في أشياء تافهة واعتماد على ثروة لم يتعب في جنيها، بل يفكر طيلة الوقت كيف يبددها. النادر فقط من الأغنياء من يتعامل مع الثروة بطريقة مختلفة عكس الأولى. وهؤلاء هم "أولاد عز" منذ ولادتهم وتربوا بطريقة مختلفة أهم ما فيها حب العمل والإخلاص له رغم أموالهم الطائلة لأنه قيمة في حد ذاته وهؤلاء هم المميزون ليس في اليمن فقط

ولكن في بعض الدول العربية والأسيوية بإدارة أعمالهم وازدياد نشاطهم وخدمتهم لوطنهم بطريقة أو بأخرى. ما عداهم محدثوا نعمة يعوضون النقص المعرفي والإنساني في أعماقهم.

لا يكفي ما قاله صديق والدهما عن الشابين لا يكفي يا أمي لذلك نحن محتارتان في هذا الأمر. تركت الموضوع لأمي لتدبر لقائي بهما مع الفتاتين لنعرف كل شيء عنهما! وبالفعل في إجازة الأسبوع التالي زارانا معا تم لقاء تعارف بين الفتاتين والشابين دون معرفة أحد وتركت لهما حرية القرار بعد هذا اللقاء، الذي ارتاح له أربعتهم وتمت مناقشة أمور كثيرة كانت أساسية بالنسبة للفتاتين ولم يرفض الشابان ما قالتاه لأنه كان منطقياً ولصالح مستقبلهما ومساهمتهما في بناء المجتمع من خلال أسرة متفاهمة منتجة ومتعلمة.

لا غرابة، تلقى الشابان تعليمهما في أمريكا، حضارة حديثة تعتمد على الإنسان أولا وأخيرا: ثقافته، تعليمه، حقوقه، صحته... المهم أن لا يتغيرا كحال اغلب من درس وتعلم خارج اليمن، حال عودته. وعوضا عن التأثير على المجتمع والمحيط يتم العكس: المجتمع بسؤ بعض عاداته هو الذي يؤثر!...

العودة للخلف تدمي القلوب!...

على غير عادته أصبح والدي كثير التردد على غرفتي

للاطمئنان عليَّ كما يقول لم يفعلها منذ زمن، بل هـو لم يفعلهـا أبدا. زياراته لنا منذ كنا صغارا مناساباتية: أعياد عامة، أعيـاد عيد ميلاد، مرض، أو حتى موت كما حدث ذات صباح عندما تفاجئنا بالخادمة الحبشية ميتة في غرفتها بعد أن تعرضت لأزمة قلبية. لكن ما يحدث لي معه هذه الفترة أمر غريب وغريب جدا بالنسبة لي.

سألت أمي في محاولة ماكرة مني لمعرفـة مـا يـدور في رأس أبي دون فائدة. قالت إنها مثلي: تعرف أن تصرفه هذا غير معهود تجـاهي أو حتى تجاه أي احد من أولاده، لكنه لن يصمد كثـيرا في إخفـاء مـا يريـد وسـيخبرها أو يخـبرني قريبـا!... تعـودتْ أن لا تـسأله إلا إذا تحدث هو في أي موضوع. تعـودتْ أن لا تجادلـه أو تناقـشه إذا كـان يشعر بالضيق من موضوع مـا، أو يمـر بأزمـة مـا ليـنفس عـن همـه ويرتاح. زوجته الثانية عكسها تمامـا تـسأل وتطلـب تبريـراً وشرحـاً للمشاكل لذلك يهرب منها غالبا ولا يقضي هذه الأوقـات العـصيبة إلا مع أمي، يشاركها أيضا أوقاته الفرحة وانتصاراته الماليـة وأخبـار شركاته التي تدر عليه دخلا ماليا كبيرا!...

سيظلان: أبي وأمي في علاقتهما يمـثلان لي حالـة ذهـول واستغراب وبحث عن تفسير دائم لتلك العلاقة.

أخيرا ها هو أمامي ليجيب على استفـساراتي التـي دارت

بيني وبيني. جاء ليخبرني ما أردت معرفته منذ فـترة تغيـير في سلوكه تجاهي. من غير المنطقي أن يمر صـدور الروايـة عليـه هكذا! من غير المنطقي أيضا أن يكون بهذا اللطف والبعد عن إصدار الأوامر هل تريدون معرفة السبب هـا هـو يقـول: أن طليقـي أبـا أولادي وافـق عـلى زواج ابنتيـه مـن خطيبـيهما وسيزوجهما معا. طلب مني البدء في تجهيزهما والخروج معهما لشراء مستلزماتهما، وحجـز قاعـات العـرس وتحديـد موعـد الزفاف وفق استعدادي لذلك...

لم ينه أبي كلامه بعد، سيقول لي آخر شيء يمكن أن يخطر على بـالي، لا يمكـن أن تتوقعـوه أو حتـى يخطـر عـلى بـالكم أيضاً!!! لقد طلب مني العودة لطليقي! كيف وقد وقعت عليَّ طلقته الثالثة يـا أبي؟ قـال لا احمـل أي هـم!!! سـيبحث عـن "محلل" ليقوم بالمهمة يتزوجني صوريا ومن ثم يطلقني لأعود له من جديد! ولترجع المياه إلى مجاريها ونعود للعمل مع بعضنا من جديد، يقصد عمله مع طليقي. قال ذلـك وهـو يعلـم أن ذلك محرم شرعاً!...

ها هو يضعني في سلة البضائع من جديد، ها هو يضرب بكرامتي عرض الحائط لأعود له بعد كل الذل والهوان الـذي ذقته!؟ ماذا عليَّ أن افعل؟ ماذا عليَّ أن أرد عليه؟ ماذا عن بناتي

وزفافهن واستعدادهن والاهم فرحتهن؟ رميت في وجه أبي ابتسامة ماكرة وعينيي ضائعتين في عالم فسيح من الأحلام التي ضاعت بكلامه الحقير هذا وبخطته المبتذلة تلك.

لم أرد! ولم يكن هو لينتظر ذلك الرد الذي يريد! تركني لأفكر وهو سينتظر الرد! يعلم جيدا أنني لن أرد عليه إلا بالرد الذي يريده هو وينعش مصالحه هو أولا وأخيرا كما كان وكما هو عليه الآن وما سيكون عليه في المستقبل.

أنا لست إلا رقماً في خانة حساباته وأرباحه!...

*****

ارتميت في حضن جود وأنا انتحب من البكاء وكأن التعاسة هي رفيقتي الدائمة، لم افرح بعد بانجاز الرواية لم أتمتع بعد بذلك الشعور وبالتفكير في تداعياته على ذاتي! رغم عدم الإعلان عن اسمي بشكل صريح وواضح وكأن الذي كتبها هو شيطان رجيم، إلا أن ما يعتريني من رضا عما فعلت لا يضاهيه شيء، لتأتي لي هذه المصيبة وفي هذا الوقت الحرج بالذات القريب من زفاف بناتي!

شُل تفكيري عن أي شيء أو عن إيجاد حل. قالت لي جود: وافقي على ما عرضه عليك أبوك ولا تتأخري في الرد. كدت افقد صوابي من قولها هذا لولا أنها استدركت: لكن بعد

الانتهاء من مراسيم زفاف أبنتيك. تكونين أنت قد أديت ما عليك واطمئن قلبك عليهما ومن ثم فكري فيما قاله بهدوء وأنت حرة اقبلي أو ارفضي.

لديك حق يا جود! هذا هو كلام العقل، وبعد الانتهاء من ذلك كله سأفكر في عرض أبي الذي يشعرني بالغثيان وبرغبة في التقيؤ كلما تذكرت كلامه ومر على مخيلتي عرضه الدنيء. هل له وصف آخر؟ لا أريد أن احرم أبنتيَّ من حقهما في الفرح. لم تنس جود أن تنبهني إلى ضرورة إيهام أبي بأن رأيي سيكون الموافقة بعد الانتهاء من حفل زفاف ابنتيَّ.

كانتا سارة وأروى في قمة سعادتهما ونحن نشتري احتياجاتهما، اختارت كل واحدة منهما موديلا مختلفا لفستان زفافها، مطعما بذوقها وأحلامها الخاصة. خرجتا أيضا عن المألوف واختارت سارة اللون الذهبي وأروى اللون الفضي عوضا عن اللون الأبيض. شعرتا بالخجل ونحن ننتقي ملابسهما الداخلية وقمصان النوم، ووجدتها فرصة ملائمة لأزيد وأضيف على ما أعطيتهما من معلومات عن الزواج وعن العلاقة الزوجية بين الرجل وزوجته وتساوي حقوقهما معه والتعبير عن رغبتهما المشتركة في ذلك دون خوف أو شعور بالخجل أو التصنع في إخفاءها.

استمر الحال بنا في الإعداد لزواجهما ثلاثة أشهر متتابعة

كنت في قمة سعادتي وشعوري بالاطمئنان والرضا على مستقبلهما خاصة بعد أن تعرفت على باقي عائلة العريسين وعرفت كم هم راقون في تعاملهم مع بعضهم البعض كعائلة عريقة من مدينة عدن، ومع الآخرين أيضاً، وكم يحترمون المرأة ويعتبرونها ركيزة البيت ودعامته الأساسية.

كانت ليلة الزفاف مذهلة بترتيبها وبساطة ورقة كل شيء فيها. حلقتُ فيها نشوة وانهمرت دموعي من الفرحة حال دخول أربعتهم لصالة الاحتفال، وجدتني أقرأ سورة " قل أعوذ برب الفلق" وأنا أرى همهمات المدعوات وانبهارهن بكل ما رأين! دخل أفراد العائلة في آخر الحفل لالتقاط الصور التذكارية، ارتجفت وأنا أرى طليقي قادما باتجاهنا، كاد يغمى عليَّ من شدة رغبتي في عدم رؤيته. وجدت جود خلفي تقول لي: هو غير موجود، هو غير ذي أهمية، هكذا يجب أن تتصوري وجوده، نكرة ليس إلا!... وهذا ما نفذته.

تمت الزفة من القاعة الرئيسية لغرفهم في الفندق باكرا، سيغادرون فجرا لقضاء شهر العسل في ايطاليا اثر دعوة تلقوها من خالي العروستين يوسف وآدم.

تشعر الأم حال زواج ابنتها بمتناقضات كثيرة، تتذكر فيها المستقبل الذي ينتظر ابنتها، تتمناه خاليا من المشاكل، وتتذكر

الأم ما مرت به من مراحل في تجربتها من ليلة الزفاف إلى حملها وإنجابها للأولاد والى قلقلها عليهم والى سهرها لراحتهم والي مسيرة طويلة من المراحل التي ستمر بها لا محالة ومع ذلك يكون في طرفها الآخر شعور بالسعادة والرضا من خوضها هذه التجربة التي ستتلافى فيها أخطاءها بتحذيرها لابنتها وتوجيهها للطريق الصحيح. هناك من تخطئ من الأمهات بهذه التوجيهات وهناك من تؤديها على أكمل وجه.

شعرت بهذا كله وأنا أودع سارة وأروى قبل سفرهما مباشرة، حمدت الله كثيرا على توفيقه لهما في زواجهما. سأطمئن عليهما مدى الحياة. دعوته أن يلهمني الصواب في اختيار ما يفيدني ويفيد صغيري نشوان في حياته القادمة التي أتمناها بعيدا عن والده، وعن المستقبل الغامض الذي ينتظره مع أب لا يعرف غير مصالحه فقط. آه كم أتمنى ذلك لكن كيف؟ كيف؟

عاد أربعتهم من شهر العسل، قضوا أسبوعين في ايطاليا من أروع ما يكون، لم يقصرا يوسف وآدم معهم وقاموا بترتيب برنامج لهم شاهدوا فيه معظم مدن ايطاليا، حلمت سارة برؤية البندقية كثيرا لذلك لم تتوقف عن سعادتها وهي تتجول في أرجاء المدينة على ظهر جندول صغير في جو ربيعي ساحر وهي غير مصدقة ما تراه من بيوت عائمة على وجه الماء تحكي تاريخاً عريقاً وحضارة غابرة.

أرسلا معهم هدايا للجميع، هديتي كانت عبارة عن قلم ومحبرة كان يتم استخدامها من قبل الكُتاب في الكتابة في القرون السابقة بعد أن عرف يوسف بأمر روايتي ومعها رسالة صغيرة بخط عربي متقن يدعوني فيها لزيارة ايطاليا قائلا:

هنا يا أختي عالم مختلف، شعب يعمل ما دام هذا هو وقت عمله. ويرتاح مادام هذا وقت راحته. شعب يعرف واجباته كلها ويطلب من الدولة واجباتها نحوه. هنا عالم متحضر يعمل ليرفع من مستواه ومستوى وطنه لمستقبل أبنائه. باختصار إنه العالم النقيض لعالمكم ولليمن.

هنا كل ما يطلبه الإسلام من الإنسان من أمانة والتزام وإخلاص وشعور بالمسئولية لكن الناس ليسوا بمسلمين. وعندكم يا أختي بعض المسلمين دون إسلام ودون تنفيذ مبادئه وما يقوم به ويحث عليه.

هنا الحياة حياة الحسن حسن لذاته والسيئ سيئ لذاته ليس بغرض الحسنات أو عدها وإحصاءها آناء الليل والنهار والبحث عن أكثر الأعمال جلبا لها لكنها أعمال نابعة عن شعور الواجب والضمير والحب للوطن ولرفعته ومعزته.

إن ما رأيته يا أختي في اليمن لا يرضي أي إنسان تعود على مبادئ العمل بإخلاص والكسب المشروع وفق تعبك ونيلك

لما تستحق لذلك قررنا العودة أنا وآدم، لأن الإسلام الذي زرعته في أعماقنا أمي رغم كونها مسيحية جعلنا نفضل العيش بعيدا عن الحياة في اليمن الذي تتناقض في بعض جوانبها مع الإسلام كعقيدة ودين.

ندعوك يا أختي لزيارتنا والتمتع بهذه البلاد الساحرة إيطاليا، وهذه المدينة التي ينضح من أرجائها عبق التاريخ وروعته: روما.

*****

أبي يريد معرفة رأيي في طلبه! وأنا أريد معرفة السر الذي جمعه بطليقي والمصلحة المشتركة بينهما لكن كيف؟ هل أماطل؟ وإن فعلت بحجة ماذا؟ عاد صغيري نشوان لمنزله بعد أن قضى معي فترة طويلة بعد زواج شقيقته. طلبي لبقائه عندي معناه استعجال ردي على عرض العودة لحظيرة الزوجية بعد أن يقوم محلل بالزواج مني بشكل صوري! وهذا ما لا أريده الآن، إلا بعد معرفة ما يثير فضولي ويجعلني لا أتسرع بالرد!!!

حاولت معرفة ذلك من أمي دون فائدة، كأنها تخفي شيئاً لا تريدني أن اعرفه. ربما سيغير رأيي في قبول العودة. لكن ما هو؟ وكيف لي أن اعرف؟ شاركتني جود حيرتي وكعادتها تسعفني بآرائها التي تكون دائما لصالحي. ربما لأنها خارج الدائرة وترى ما

يحدث داخلها بشكل جيد أكثر مني. أنا التي لا اعرف موقعي تحديدا هل في المركز المهم أم في المحيط الهامشي!؟

يلزم مراقبة أبي دون أن يشعر وفي نفس الوقت الاستمرار في إيهامه بأني موافقة على طلبه واحتاج فقط لفترة راحة أتقبل فيها عودتي لعصمة رجل من جديد ناهيك عن التجربة الأخرى في الزواج الصوري الذي اقترحه على. هذا مقترح جود وهذا ما فعلته بالضبط! كان أبي حذرا في اتصالاته، وفي حديثه مع أمي إلى أن حدث ما يستعجلني عليه لإنهاء موضوع زواجي بشكل صوري ومن ثم عودتي لطليقي لقد وجد المحلل وهو يضمنه بشكل كبير وأبدى طليقي ارتياحه أيضا له.

هكذا إذا، اعتقدت إنهما كانا في انتظار ردي وقبولي من عدمه وهما لم يضعا هذا في بالهما أبدا باعتبار أن موافقتي أمرٌ مفروغ منه. هكذا هما، لم يتغيرا ولن يتغيرا. كان عليَّ أن افهم ذلك: أن نظرتها لي لم تتغير في كوني تلك العقيلة التي سيربطانها لأي جذع مناسب لي كما كنت سابقا وهما أكيدان أنني لن أتحرك أبدا. إلحاح أبي بدا لي غير طبيعي وكأن الصفقة لن تتم إلا بإنهاء خطتهما في عودتي. أبي كما يبدو لي هو الذي يحتاج لإنهائها أكثر من طليقي. هناك ما سيجنيه من مال جعله لا يفكر إلا في كيفية الحصول عليه مهما كان الثمن.

لا ثمن ارخص من الزج بابنته رغم كل ما عانته في ذات الحفرة التي ستقضي على حياتها!...

قفزت إلى ذهني دعوة يوسف وآدم لي لزيارتها في إيطاليا، لكن كيف أتمكن من إقناع أبي بسفري أنا ونشوان قبل الموافقة على طلبه على أنها فترة استرخاء لي وللصغير أعود بعدها في قمة حماسي للحياة الزوجية من جديد، وعمل كل ما يرضيه ويرضي طليقي. وأني لن أفكر بعد عودتي من ايطاليا إلا في كيف اسعد زوجي وابني. أدهشني ووافق على سفري ربما لأنه شعر بتمسكي بهذه الرحلة وأنها من حقي بعد ما عانيت. كانت أمي سترافقني لكنها فضلت البقاء مع أبي في هذه الفترة بالذات. ترى ماذا في هذه الفترة بالذات يا أمي!؟

أرسلت ايميل ليوسف بموافقة أبي وبحضوري أنا وابني بعد خروج الفيزا من السفارة الإيطالية بصنعاء، والانتهاء من بعض الاستعدادات لشراء متطلباتنا. أطمئن أبي وأمي وطليقي بأفكارهم وبان الأمور ستسير على الطريقة التي أرادوا لها أن تسير! زال الحذر من مكالماتهم الهاتفية مع بعضهم البعض وان كان هناك شيءٌ من الغموض! وأنا أحاول مستميتة ربط خيوط خطتهم لعلي اشفي فضولي قبل سفري. سيجد لي يوسف حلاً بالتأكيد لمشكلتي، لأن عودتي معناها موتي المحقق!...

مرور عابر من أمام حجرة أمي قبل سفري بليلة كشف لي كل شيء وأزال كل فضول كاد يفضحني لمعرفة ما يدور. صفقة أسلحة للحرب الدائرة في صعده في اندلاعها الخامس الآن مايو ٢٠٠٨ من بداية نشوبها في يونيو ٢٠٠٤م. بين جماعة الحوثيون والدولة، صفقة أسلحة! أبي وطليقي شريكان فيها هو بوساطته المختلفة لدى شيوخ القبائل في صعده في جمع السلاح من المعارضين للسلطة لإضعاف شوكتهم وطليقي بماله الذي سيشتري به السلاح ويعيده إلى عناصر هامة في الدولة تقوم بهذا الدور. أبي في هذا كله سيأخذ نصيبه من الصفقة دون مجهود يذكر وطليقي سيجد الحظوة لدى الدولة في استمرار دعمه ودعم مشاريعه وتجارته هذا إذا لم تكافئه على وطنيته وتعينه وزيرا!...

ما لا يعرفه أبي وكنت قد اكتشفته وزاد من كرهي لطليقي واحتقاري لأفعاله قبل أن يطلقني هو انه يقوم بذات العملية ويدخل للبلاد أسلحة يتم تهريبها بشتى الطرق ويعطيها للجماعات التي تحارب في صعده وازدواجية تعامله أو سفالته تلك مكنته من جني الكثير والكثير من الأموال.

وما لا يعرفه طليقي واكتشفته للتو هو تورط أبي في إقناع

صعدة: محافظة في شمال اليمن.

عائلات فقيرة بتجنيد أبنائها وذهابهم للحرب في صعده مقابل التعهد لها برواتب شهرية مدى الحياة فيما لو استشهد أو أصيب أبنائها في هذه الحرب.

غالبا ما يتم التفاهم مع الشاب نفسه الذي يضحي بحياته مقابل هذا المبلغ الزهيد لأسرته الفقيرة معتبرا ما يفعله مقامرة هو الرابح فيها سواء عاد سالما واستمتع بالمال أو مات ما دام مرتبه مستمراً لعائلته.

كم هو الفقر قاسي ومذل!...

كم تبدو هذه الحرب قذرة وتحمل في طياتها نزعات لا إنسانية بين أبناء الشعب الواحد. إذا ما اعتمدنا كلام الصحف والإعلام الرسمي عن تلك الحرب لغياب الحقائق الخاصة بها: إضرارها، خسائرها، عدد القتلى من الجانبين! وكم يبدو لي أبي وطليقي أقذر منها لأنهما يؤججان نارها بما يفعلانه دون وازع ديني أو حتى أخلاقي يمنعهما من هذه الجرائم.

لم تعد هذه الأمور تهمني الآن. لم يعد يهمني مقدار سفالتهم ودناءتهم أو حتى وداعهم أمام ما انوي القيام به بعد أن قررت الاستماع لنصيحة جود ونصيحة ابنتيَّ: أكثر من يتمنى لي الخير.

ودَّعتُ أمي وأبي بعد أن أصرا على مرافقتي إلى المطار. قبلا

نشوان واحتضناه وهما يطلبان منه الانتباه عليّ لأنه رجلي ومحرمي في تلك البلاد وأنهما سينتظران عودتنا بفارغ الصبر بعد أسبوع.

بدأ كل ما في أعماقي يقهقه وأنا ممسكة بيد صغيري مجتازة صالة المغادرة باتجاه الطائرة...

خانت أبي فراسته للمرة الأولى. كـان تركيـزه منـصبا في الصفقة التي سيقوم بها! في المال الـذي سـيجنيه مـن ورائهـا! خانته فراسته ولم يسمع غير نداء الطمع والأنانية وحب المال! استمريت في القهقهة هذه المرة لكن بصوت عالٍ وأنـا أتخيـل عالمي الأتي بكل شوق.

انظر إلى صنعاء من أعلى، من نافذة الطائرة، لم يكن ظاهرا فيها من هذا العلو غير جامع الصالح ببناءه الباذخ رابضاً فوق أنفاس الفقراء والمساكين.

ارتفعت الطائرة أكثر وبدت المدينة من هذا العلو تماما كما قالت عنها كاترين ذات يوم ذلك "السجن الكبير"

صنعاء

٢٠/١٠/٢٠٠٨م

حط في شباكنا حلم أخير
نقر زجاج البائسين
عربد في زوايا حزنهم
وأحالهم فرحاً، وأغنية، وماء
حدثهم عن زمن سيأتي
حاملاً لذة الميلاد لا ميلاد...
قد حط في شباكنا وجع أخير...

هدى أبلان

استدراك:

شخصيات الرواية من الواقع وأي تشابه بينها وبين الخيال فهو من قبيل الصدفة ليس إلا!...

الراوية

عن حرب صعدة

قال إنهم قاتلوا دفاعا عن مشروعهم الخاص والسلطة لاستعادة السيادة
تقرير المركز الاستراتيجي: ينتمون فقهيا إلى المذهب الهادوي وعقائديا إلى الجارودية وسياسيا بين حزبي الحق والمؤتمر

أحمد الزيلعي، نيوزيمن
٠٣/٠٨/٢٠٠٨

أفراد تنظيم الشباب المؤمن كانوا يشكلون جناحا في حزب الحق، بتلك العبارة رجح تقرير المركز اليمني للدراسات الإستراتجية هوية من بات يعرف بالحوثيين وذلك في المحور الأمني والذي خصصه للعام ٢٠٠٧ للحديث عن حرب صعده، متناولا فيها الجولة الرابعة، خلفياتها وتداعياتها.

ووفقا للتقرير فإن لتنظيم الشباب المؤمن هوية دينية تتأرجح بين من ينسبها إلى الأثني عشرية المحضة وبين من ينسبها إلى الزيدية المحضة، لكنه رجح هويتهم إلى انتماءهم فقهيا إلى المذهب الهادوي الزيدي وعقائديا إلى فرقة الجارودية

الزيدية التي قال إنها"من أشد فرق الزيدية غلوا خاصة في مسألة الإمامة وعدالة الصحابة، وسياسيا متأرجحة بين حزبي الحق والمؤتمر الشعبي العام".

وتابع التقرير في تعريفه للشباب المؤمن بقوله وكان هذا الجناح في البداية شديد الولاء لحزب الحق، وكانوا من الشباب المتحمس، مشيرا إلى أنهم ربما رأوا في القيادات الكلاسيكية القديمة حائلا دون تحقيق الطموح المنشود والأماني المرجوة، خاصة بعد تراجع نصيب الحزب في عدد المقاعد والناخبين في الانتخابات النيابية للعام ١٩٩٧م وأن تلك القيادات التقليدية هي من يحمل مسؤولية ذلك التراجع، مضيفا أن الشباب قدموا عريضة لقيادة الحزب الحق ووقعوا عليها وكانت تحوي جملة من المطالب، موضحا عن إقرارهم تقديمهم استقالة جماعية من الحزب وشكلوا ما يعرف بالشباب المؤمن، بعد أن لم تحصل استجابة من قيادة الحزب لمطالب الكوادر الشبابية.

وبحسب تلك الرواية تكون الشباب المؤمن أو جماعة الشعار فيما بعد التي هتفت بـ(الله أكبر الموت لأمريكا الموت لإسرائيل اللعنة على اليهود النصر للإسلام) في جامع الهادي أثناء صلاة الرئيس فيه صلاة الجمعة في ٢٠٠٢م ومروره بمحافظة صعده قاصدا الديار المقدسة حاجا، وكان حينها صالح قد وقف ليلقي

كلمة، إلا أن جماعة الشعار التي عجت أصواتها بالشعار حالت دون ذلك"مما دفعه للخروج من المسجد دون إلقاءه الكلمة بهذا الحدث الذي رآه الرئيس رأي العين في محافظة صعده التي كانت تأتيه تقارير محلية مرفوعة له تحذره من التنامي المتسارع لنفوذ الشباب المؤمن سواء على المستوى الجماهيري أو على المستوى العسكري"، حسب تعبير التقرير الذي أشار إلى غياب يكاد يكون شبه تام لمؤسسات الدولة في بعض مناطق صعده كمديرية حيدان، مركز تواجد حسين بدر الدين الحوثي حتى صار الناس لايعطون زكاتهم للدولة ولا يتحاكمون إليها ولا يعترفون إلا بشرعية واحدة هي شرعية السيد الحوثي.وقبل انطلاقة رصاصة الجولة الأولى التي اندلعت شرارتها في الـ ٢٠ من يونيو من العام ٢٠٠٤م، وبعد حادثة رفع الشعار في جامع الهادي، أشار التقرير إلى قيام السلطة باستدعاء حسين الحوثي للحضور إلى صنعاء للتفاهم وامتناع الأخير عن الحضور خوفا من المجهول، ثم اتخاذ سلطة صنعاء إجراء أكبر من ذلك تمثل في إرسال حملة عسكرية إلى مران للقبض على حسن الحوثي والتي عادت من دون تحقيق مهمتها، ومن تلك اللحظة بدأت سلسة من المعارك في عدد من مديريات محافظة صعده وانتقلت في جولتها الخامسة إلى العاصمة صنعاء وتحديدا في بني حشيش . وبعيدا عن تفاصيل الجولات

المختلفة للحرب والتي تحدث التقرير عن أبرز تفاصيلها، فقد استعرض التقرير أهداف طرفي الصراع، والذي حصره على الشباب المؤمن) الحوثيون (من جهة والسلطة التي يديرها المؤتمر الشعبي العام من جهة أخرى، مشيرا إلى أهداف الأول متمثل في رؤيتهم أن خوضهم الحرب كانت مجرد دفاعا عن النفس وعن حريتهم الدينية، معتبرين حربهم مقدسهم وقتليهم فيها شهيد، إضافة إلى "مقارعتهم المشروع الأمريكي الصهيوني الذي يرون أن النظام السياسي في اليمن ممثل لذلك المشروع.

أما أهداف السلطة كما قرأها التقرير فتمثلت في الحفاظ على السيادة على مناطق من محافظة صعده التي يتمركز فيها الشباب المؤمن والقضاء على نفوذ الحوثيين. لكنه أشار إلى وجود أهداف غير معلنة للسلطة والحوثيين على حد سواء، حيث قال إن السلطة أرادت من المواجهة العسكرية توجيه ضربة انتقامية لتنظيم دعمت إنشاءه ومشاريعه لعدم مراعاته الجميل وإصراره على تحدي الدولة"، إضافة إلى استفادتها في إعادة ترتيب النفوذ العسكري للقيادات من خلال الزج بهم في معركة خاسرة تكون سببا في إفقادها نفوذا لحساب قيادات عسكرية صاعدة.

أما هدف الحوثيين غير المعلن وكما ساقه تقرير المركز

اليمني للدراسات الإستراتيجية، فتمثل في أنه دفاعا عن مشروعهم الخاص "وذلك بعد ما رأوا أن في الحرب ضدهم "كسر لشوكة مشروعهم المذهبي."ومن الأهمية بمكان العودة إلى أسباب انشقاق الشباب المؤمن حيث وأن التقرير أفرد لها صفحة، مستأنسا فيها بأقوال المراقبين، أولها تشبع الشباب بالفكر الثوري من خلال زياراتهم لبعض الدول كإيران ولبنان وسعي السلطة إلى تفريخ حزب الحق، حيث اتجهت إلى دعم تنظيم الشباب المؤمن ورصدها لها ميزانية شهرية وطباعتها مناهج منتدياتها والمراكز الصيفية التابعة للشباب المؤمن في مطابع الكتاب المدرسي، إضافة إلى تلقي الشباب المؤمن دعما من جهات خارجية إيرانية وبعض الجمعيات الشيعية في كل من الكويت والبحرين وبعض الرموز الشيعية في السعودية.

عن الحراك الجنوبي

الصورة الأقرب لما يحدث في الجنوب اليوم انه تحول إلى ساحة حرب، ليس بالضرورة أن تكون حرباً معلنة لكن اجتماعات مجلس الدفاع الوطني المتتالية والمستمرة لا تدع مجالا لتفسير آخر.

في المقابل يخوض الشارع الجنوبي مواجهات صعبة مع قوات الجيش والأمن في مشهد اقرب ما يكون إلى الانتفاضة الشعبية.

السلطات تخوض أكثر من معركة في آن واحد، معركة دموية مع الشارع الغاضب، معركة سياسية مع أحزاب المشترك، معركة إعلامية مع الوسط الصحافي الذي يراد تكميمه حتى لا ينقل الحقيقة كما هي، بيد أن الحرب المستعرة على الساحة الوطنية اليوم يراد لها أن تتجه صوب أحزاب المشترك تحديداً، وكأن هذه الأحزاب هي من فجر الوضع في الجنوب وخلق أزمة سياسية تزداد تفاقما كل يوم، الإعلام الرسمي يُحمِّل المشترك كامل المسؤولية عما يجري من أحداث مؤسفة في المحافظات الجنوبية والشرقية، وهو أمر يبعث على الشك والريبة ويضع أكثر من تساؤل على بساط البحث، فأحزاب المشترك تنفي في كل مناسبة أي دور لها في تحريك

الشارع الجنوبي وتوجيهه، وتؤكد باستمرار أن المشترك أعجز من أن يقود مسيرة أو ينظم اعتصاماً جماهيرياً حاشداً، في الوقت الذي تنسب فيه السلطة كل ما يدور على الساحة الجنوبية إلى هذه الأحزاب وهو ما يوحي بوجود شيء ما تم التخطيط والإعداد له مسبقا يهدف إلى النيل منها.

العام الثاني للحراك الجنوبي

في آذار مارس من عام ٢٠٠٧ انطلقت الفعاليات الاحتجاجية لمجلس تنسيق جمعيات المتقاعدين العسكريين والمدنيين، وكما هو معروف قد كانت المطالب حقوقية بحتة، لكن السلطة فشلت في التعامل مع تلك المطالب بل واستخفت بها، وهو ما دفع بالمتقاعدين للانتقال بمطالبهم الحقوقية إلى إطارها السياسي المعروف اليوم، وقد تميز الحراك الشعبي طيلة تلك الفترة بطابعه السلمي ووحدة قيادته، وتناميه المستمر في أوساط الجماهير، وعلى الرغم من ظهور بعض الأصوات الانفصالية في قيادات الحراك الشعبي الجنوبي واعتقال السلطة لبعض تلك القيادات إلا أن الاحتجاجات لم تجنح للعنف ولم تهدد به، وظلت متمسكة بنهجها السلمي كخيار لا تراجع عنه لا سيما وان أحزاب المشترك أضحت شريكاً أساسياً وفاعلا في تلك الاحتجاجات السلمية.

ومع دخول حركة الاحتجاجات) الجنوبية (عامها الثاني فقد طرأت عليها بعض المتغيرات التي لم تكن غالبها في صالحها، أبرزها انقسام قادتها وتنازعهم قيادة الحراك، وغياب المشروع الجامع والرؤية الواضحة لمستقبل الحراك وأهدافه، أضف إلى ذلك المحاولات التيُ بذلت من قبل السلطات لشق وحدة العمل المشترك والتحالف الذي نشأ بين تياري المتقاعدين والمشترك بقصد إضعاف فاعلية الحراك وصرفه عن غاياته، ورغم ذلك لم ينجرف ذلك الحراك الشعبي إلى محرقة العنف والفوضى التي أُريد حرقه فيها.

بيد أن ما نراه اليوم هو صورة مختلفة تماماً عن صورة الاحتجاجات التي بقيت إلى حوالي سنة كاملة محتفظة بطابعها السلمي وتفوقها الأخلاقي الذي أحرج السلطة ولم يدع لها فرصة لتشويشه أو العبث به، اليوم الساحة الجنوبية هي ساحة مواجهات يومية بين المواطن وحكومته، غاب عنها العقل وحضرت فيها الدبابة والمجنزرة والرصاص الحي والقنابل المسيلة للدموع، وفتحت السجون والمستشفيات أبوابها في حين أُغلقت مقرات الأحزاب والجمعيات، وهرب الناس من منازلهم وصعد بعضهم إلى الجبال حاملاً سلاحه، وأعلن البعض عن ثورة مسلحة، وصرنا نسمع عن جنود يتم

استهدافهم وآخرين يتم أسرهم، وعن جموع قبلية مسلحة أعادت تمركزها وانتشارها في بعض المواقع استعداداً لمواجهات طويلة مع السلطات .لكن علينا أن نعترف بان العنف الحاصل اليوم وتلك المصادمات التي وقعت بين طرفي الصراع لم تكن بقرار أو توجه أو سياسة حث عليها قادة الحراك الجنوبي، لم نسمع أن احدهم طالب الجماهير أو دعاها إلى الخروج على السلطة، لم يدع أحد إلى العصيان المدني أو إسقاط النظام، ولم يحرض أحد على حمل السلاح واستهداف قوات الأمن، لم يحدث ذلك رغم أن الخطاب السياسي لبعض قادة الحركة الاحتجاجية كان قد تجاوز سقف الوحدة بكثير

المشترك في الصورة

أمور كثيرة تبعث على الدهشة والاستغراب وقعت قبل أن يصل الوضع في الشارع الجنوبي إلى حالة الانفجار التي وصلها، منها قصة التجنيد العسكري التي كانت المدخل لتفجير الأوضاع وإشعال الأزمة على هذا النحو، فالقصة نفسها تكررت في اغلب المحافظات الجنوبية حيث دُعي الشباب) ومن قبل جهات مؤتمرية (للتوجه إلى المعسكرات القريبة لتسجيل أنفسهم بغرض الالتحاق بوظائف عسكرية ضمن مشروع محاربة البطالة وإيجاد فرص عمل للعاطلين،

لكن الشباب فوجئ بمعاملة مهينة من قبل المعنيين إلى جانب أنهم لم يحصلوا على فرصتهم في العمل وفقًا للأنظمة والقوانين) الحكومة أعلنت مؤخرا وقف عملية التجنيد .. يبدو أن العملية استوفت أغراضها (وبالتالي عاد الشباب الغاضب إلى مناطقهم ليفرغوا شحنات غضبهم على السلطة المحلية التي استخفت بعقولهم، وتُرك الوقت الكافي لشباب الضالع) الذينُ رفض تجنيدهم (ليفعلوا ما بدا لهم في ظل صمت وغياب طويل ومستغرب لأجهزة الأمن، وكان مراقبون وشهود عيان قد أكدوا بأن وجوهاً كثيرة ممن شاركت في أعمال الشغب والفوضى والتخريب في الضالع هي من خارج المحافظة، وهو ما يلقي بظلال من الشك حول هوية أولئك المنفذين والدافع الحقيقي لما قاموا به والجهة المحرضة لهم، ويتضح جزء من ذلك المشهد الغريب حينما سارعت السلطة إلى القيام بحملة اعتقالات واسعة في صفوف قادة الحراك الجنوبي ليس في الضالع وحدها بل وفي لحج وعدن ومناطق أخرى، حيث شملت الاعتقالات شخصيات سياسية لا علاقة لها نهائيا بأحداث الشغب تلك، وعلى الفور سارع الإعلام الرسمي الموجه لإطلاق التهم وتعميمها على أحزاب المشترك باعتبارها المحرض والمستفيد من كل ما جرى، وكمثال على ذلك فقد

اتهمت صحيفة (الثورة) الرسمية أحزاب المشترك بالوقوف وراء تلك الأعمال وشحن الشارع بدافع تصفية الحسابات الحزبية والسياسية مع الحزب الحاكم على حد زعمها.

لقد سارع إعلام السلطة الموجهة لوضع المشترك في الصورة منذ اللحظة الأولى لبدء أحداث الشغب وسارت التعبئة للرأي العام باتجاه تحميله مسؤولية ذلك العنف والتحريض والفوضى والخروج على الأنظمة والقوانين، والهدف النهائي من ذلك تسليط الضوء على المشترك وتصويره على أنه عدو للوحدة يهدف من خلال تغذية الاحتجاجات والاعتصامات الجماهيرية في الشارع إلى تقويض وحدة الشعب والإضرار بمصالح الوطن، وفي المقابل تظهر السلطة وكأنها المناضل الوحيد في ساحة الدفاع عن الوحدة ضد المتآمرين الذين يحاولون العودة بعجلة التاريخ إلى الوراء.

الوحدة أو الموت

يكاد يُجمع السياسيون والمراقبون على أن السلطة ضاقت بالنضال السلمي للمشترك والمتقاعدين، وأنها قررت أخيرا الدفع بهؤلاء إلى الميدان الذي تجيد الحركة فيه وهو ميدان العنف والفوضى بعد أن فشلت في إدارة معاركها السياسية والاقتصادية مع المعارضة والشارع .ومنذ البداية كان الخطاب

الرسمي يُروج كلما اشتدت وتيرة الاحتجاجات الشعبية لمقولة «الوحدة أو الموت» وقد كان شعار ١٩٩٤ الوحدة أو الموت ، وتصاعدت مطالب المحتجين استطاع أن يحشد وراءه كل فئات الشعب وقواه السياسية للوقوف ضد محاولة الانفصال الفاشلة، اليوم هناك من يحلم بتكرار المشهد من جديد ولكن على طريقته الخاصة.

يوجد من يحلم بعودة تلك الصورة النادرة التي جمعت كل أبناء الوطن للدفاع عن وحدتهم ووقفوا فيها جميعهم خلف قيادة واحدة، وبمعنى آخر هناك محاولة لإعادة إنتاج مشروع وحدوي جديد على غرار مشروع وحدة ٩٤ الذي أعطى المشروعية الأخلاقية والقانونية للنظام باسم الوحدة . وكما يقول محللون سياسيون فإن النظام صار بلا مشروع وطني وبلا رؤية يستطيع من خلالها إقناع الشعب بضرورة استمراره، وبناءً عليه كان لا بد له من خلق مشروع جديد يُعيد تلاحم الناس حوله ويضمن تأييدهم له، وليس هناك أفضل من مشروع الوحدة والدفاع عن الوحدة كطريق وحيد لتحقيق تلك الغاية بعدما فشلت كل الطرق الأخرى.وعلى هذا الأساس تتم عسكرة المدن واستفزاز الناس بالدبابات والمصفحات ومضادات الطائرات، إلى جانب الإفراط في

استخدام القوة ضد المحتجين كي يندفعوا لحمل سلاحهم وينتشروا على رؤوس الجبال ويعلنوا التمرد، حينها تصرخ السلطة مجددا الوحدة أو الموت» وتبدأ في إعادة رسم المشهد السياسي في البلاد بطريقتها الخاصة، فيتم تعبئة الجماهير واستنهاضها للدفاع عن الوحدة ضد فلول التمرد، ويتم حشر أحزاب اللقاء المشترك في الزاوية الحرجة بتصويرها الرديف المساند سياسيا لهؤلاء المتمردين، وبهذه الطريقة يتم ضرب عصفورين بحجر واحد، حيث يبدأ النظام باستعادة حيويته وشعبيته الجماهيرية باعتباره السد المنيع الواقف ضد محاولات تمزيق الوطن، إلى جانب ذلك يتم حرق صورة المشترك جماهيريا بتصويره أحد أعداء الوحدة.

وهكذا تغدو مقولة «الوحدة أو الموت» بوابة العبث بأمن واستقرار البلد وبداية مغامرة جديدة غير محسوبة العواقب قد تودي بالوطن وبوحدته، ذلك أن ظروف اليوم مختلفة تماماً عن ظروف حرب ٩٤ ولن يكون بمقدور السلطة حشد الجماهير المتذمرة والمستاءة من سياستها، كما أن المواطن في الجنوب ما عاد بنفس حماسته السابقة التي كانت أثناء حرب صيف ٩٤ بعدما ظل يتجرع طلية الفترة الماضية النتائج الكارثية لسياسة الحزب الحاكم، كما لا يمكن هذه المرة إغفال الدور الخارجي

الدولي والإقليمي (الذي بات يدعم من طرف خفي فكرة عودة الجنوب اليمني إلى ما كان عليه في السابق لمصالح خاصة.
والخلاصة أن مشروع الوحدة أو الموت الجديد لا يملك مقومات النجاح التي توفرت لنفس المشروع عام ٩٤ لاختلاف الظروف الداخلية والخارجية، ولن يكون من المجدي حشد القوات أو تعبئة الجماهير ضد جزء من أبناء الشعب ممن يشعرون بالضيم والغبن وأنهم مسلوبو الحقوق من نظام ظل لأربعة عشر عاماً ينتقص منهم ولا يضعهم في قائمة اهتماماته، هذا إلى جانب أن الأمور اليوم صارت أكثر وضوحا ولم يعد الناس مستعدين لان ينخدعوا مرة أخرى ويدفعوا الثمن باهظاً أضعافاً مضاعفة، فهذا مما صار فوق احتمالهم.

http://shababshaib.com/vb/showthread.php?p=١٤٣٢٣

عن جامع الصالح

مسجد الرئيس علي عبدالله صالح الواقع في قلب العاصمة اليمنية صنعاء، يتقاطر عليه عشرات الآلاف من المصلين منذ افتتاحه في سبتمبر ٢٠٠٩م بداية شهر رمضان المبارك١٤٢٨هـ، بعد أن فتح المسجد أبوابه قبل الموعد المقرر لافتتاحه رسميا في ٢٢ نوفمبر المقبل ٢٠٠٩ كأحد أبرز المساجد الإسلامية في الوطن العربي.

يتميز المسجد بست منارات فريدة ذات تصميم خاص، يبلغ ارتفاع ٤ منها ١٠٦ أمتار مع الهلال، واستخدمت فيها أساسات خاصة تصل إلى عمق ٣٥ مترا وبقطر ٧٠ سنتيمترا لكل مئذنة، وهو ما ساعد في تقوية المبنى على مقاومة الزلازل .ويتسع المسجد لـ٤٥ ألف مصل وألفي سيدة ويقع المسجد على مساحة قدرها ٢٢٢ ألفا و٥٠٠ متر مربع، تشمل مبنى المسجد وكلية علوم القرآن والدراسات الإسلامية ومواقف السيارات، والمناطق الخضراء.

نادية يحيى الكوكباني

§ أستاذ مساعد/قسم العمارة/كلية الهندسة/ جامعة صنعاء.
§ دكتوراه في الهندسة المعمارية، جامعة القاهرة،٢٠٠٨ م

§ عضوة "لقى" مؤسسة الثقافة النسوية وحوار الحضارات.

§ عضوة اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين.

§ حاصلة على المركز الثاني في مسابقة جائزة الدكتورة سعاد الصباح للإبداع الفكري والأدبي (القصة القصيرة، ٢٠٠٠).

§ حاصلة على جائزة رئيس الجمهورية للشباب ٢٠٠١.

§ ترجمت بعض أعمالها القصصية إلى (الانجليزية، الألمانية، الفرنسية، الايطالية)

§ ترجمت روايتها "حب ليس إلا" للغة الإيطالية، دار **Illiso** الإيطالية ٢٠٠٩

صدر لها:

§ زفرة ياسمين، مجموعة قصصية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ٢٠٠١.

§ دحرجات، مجموعة قصصية، مؤسسة لقى، صنعاء. ٢٠٠٢.

§ تقشر غيم، مجموعة قصصية، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين. ٢٠٠٤.

§ نصف أ نف... شفة واحدة، ثلاث مجاميع قصصية وكتابات نقدية، وزارة الثقافة ، صنعاء، ٢٠٠٤.

§ "حب ليس إلا" رواية، دار ميريت القاهرة، ٢٠٠٦

§ تحت الطبع المجموعة القصصية الخامسة (لا بين لهما!...)

www.zafrah.net
nadiahkokabany@hotmail.com